اوسكار وايلد

صورة دوريان غراي

تعريب: لويس عوض



أوسكار وايلد

صورة دوريان جراي

الكتاب: صورة دوريان جراي
المؤلف: أوسكار وايلد
تعريب: لويس عوض

عدد الصفحات: 296 صفحة

الترقيم الدولي: 978-977-85115-4-3

رقم الإيداع: 2014/10186

الطبعة الأولى: 2014

الناشر:

دار التنوير للطباعة والنشر

مصر: القاهرة-وسط البلد -19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا)-الدور 8-شقة 82
هاتف: 0020223921332 فاكس: 0020227738932
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
لبنان: بيروت - الجناح - مقابل السلطان ابراهيم
سنتر حيدر التجاري - الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

المقدمة

الفنان صانع الأشياء الجميلة.

غاية الفن أن يكشف عن نفسه وأن يخفي شخصية الفنان.

الناقد من يترجم أثر الجمال في نفسه بلغة غير لغة الفنان، أو يصوغ من إحساسه به مادة غير مادة الفن.

وإن أعلى أنواع النقد لا يختلف عن أحطها في أنها جميعًا تراجم لحياة النقاد على نحو ما.

ومن يقرؤون معاني القبح في آيات الجمال هم السفهاء، ولا عذر لمن ضل سواء السبيل.

أما من يقرؤون معاني الجمال في آيات الجمال فهم الأصفياء: هم رجاء الإنسانية.

هم المختارون الذين لا يرون في الجمال إلا جمالًا.

ليس بين الكتب كتب أخلاقية وكتب منافية للأخلاق. فالكتب إما جميلة التأليف وإما رديئة. تلك هي خلاصة القول.

ثورة القرن التاسع عشر على الأدب الواقعي هي ثورة كاليبان[1] حين

---

(1) كاليبان في مسرحية «العاصفة» لشكسبير مخلوق شانه أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان، دائم السخط منحط الرغبات، فهو رمز الجسد، استخدمه الساحر پروسبيرو لقضاء حاجاته اليومية. كذلك استخدم پروسبيرو كائنًا آخر لطيفًا جميلًا سامي النفس شديد الميل إلى الحرية هو الطيف آريل، وهو يرمز للروح. ويقلل إن كاليبان وآريل

يرى وجهه في المرآة.

وثورة القرن التاسع عشر على الأدب الخيالي هي ثورة كاليبان حين «لا» يرى وجهه في المرآة.

الحياة الأخلاقية بعض مادة الفن. ولكن «أخلاقية» الفن تأتي من كمال التعبير رغم نقص أداة التعبير.

ما من فنان يريد إثبات نظرية ما: فالحقائق ذاتها لا يمكن إثباتها.

ما من فنان يتحيَّز لمدرسة في الأخلاق معينة. والتحيز الأخلاقي لازمة في الأسلوب لا تغتفر.

ما من فنان يشتكي السقم أبدًا. فالفنان يستطيع التعبير عن كل شيء في الحياة.

أداة الفن الفكر واللغة ومادة الفن الفضيلة والرذيلة.

أرقى الفنون من ناحية القالب الموسيقى، وأرقى الفنون من ناحية الشعور التمثيل.

للفن ظاهر مكشوف ورمز خبيء.

ومن يتجاوز الظاهر يجازف بكل شيء.

ومن يفهم الرمز يجازف بكل عزيز.

الفن ليس صورة الحياة، بل صورة المستعرض لموكب الحياة.

اختلاف الظنون في العمل الفني دليل على أن العمل جديد ومعقَّد ونابض بالحياة.

وكلما اختلف النقاد أحسَّ الفنان بأنه أدَّى واجبه.

في وسعنا أن نصفح عن صاحب الفن المفيد إذا أدرك أن فنه ليس جميلًا والمبرِّر الأوحد لوجود الفن غير المفيد هو أن يأسرنا بجماله.

لا نفع في الفن إطلاقًا.

أوسكار وايلد

يرمزان إلى الشر والخير، وكلاهما في قبضة الإنسان (المترجم).

الفصل الأول

كان عبير الورود يملأ استديو الرسَّام. وحين هبَّ نسيم الصيف بين أشجار الحديقة، نفذ من الباب المفتوح عطر لعله عطر الليلج النفَّاذ أو عطر النسرين المنعش.

وفي ركن الأريكة المكسوّة بالطنافس العجمية اتكأ اللورد هنري وتون مدخِّنًا كعادته بلا انقطاع. وكان من متَّكئه يلمح بريق الأزهار المنتشرة على شجرة النحل في صعوبة، فتبدو له صفراء وحلوة كالشهد، والشجرة تهتز أغصانها كأنها لا تقوى على حمل كل ذلك الجمال المكدَّس فوقها، فيهتز معها الوهج الذهبي. وعلى الستائر الحريرية الخشنة، الممتدة بطول النافذة العالية، كانت ترتمي بين الفينة والفينة ظلال عجيبة هي ظلال طيور عابرة، فتخلق في الغرفة جوًا يابانيًا لا يلبث أن ينجلي. ويستعرض اللورد هنري في خياله رسّامي طوكيو ذوي الوجوه الشاحبة فيذكر كيف يسعى أولئك الرسَّامون إلى التعبير عن معاني السرعة والحركة بفنهم التقليدي الجامد. كل ذلك والنحل يطن طنينًا مقبضًا وهو يتلمس طريقه بين الحشائش التي لم تشذَّب، أو يحوم في إلحاح حول كؤوس اللبلاب الذهبية التي تسلقت جدران الحديقة كأنها تبغي الفرار منها. فازداد السكون بطنينه وحشة وامتلأ الجو ضيقًا. أما عجيج لندن فقد كان خافتًا مكظومًا كأنه صوت أرغن مكتوم بعيد.

وكان في وسط الغرفة حامل مستقيم ثُبِّتت عليه صورة بالحجم الطبيعي لشاب لا حَدَّ لجماله، وقد جلس أمامها الرسَّام نفسه، بازيل هولوورد، وأخذ يتأملها على بعدٍ قليل ـ أجل. هذا هو بازيل هولوورد الذي أثار اختفاؤه الفجائي منذ بضعة سنوات فضول الخاص والعام وظنَّ الناس في تأويل احتجابه أعجب الظنون.

وفيما كان الرسَّام يتأمَّل الصورة الساحرة التي أبدعتها ريشته في دقة ومهارة، شاعت في محيّاه ابتسامة الرضا، ثم استقرت الابتسامة على شفتيه. ولكنه نهض فجأة ووضع أصابعه على جفنيه كأنه يريد بذلك أن يحبس في مخيلته حلمًا عجيبًا خشي أن يزول.

قال اللورد هنري في تراخٍ:

ـ هذه أبدع صورة رسمتها يا بازيل بلا جدال، ولا بد أن ترسلها إلى معرض جروڤنور في الموسم القادم. إن معرض الأكاديمية لا يليق لها فهو واسع ومبتذل، وفي كل مرة دخلته وجدته مكتظًا بالزائرين مما حجب عني الصور، أو مكتظًا بالصور مما شغلني عن رؤية الزائرين. لا شك في أن معرض الجروڤنور هو أنسب معرض لك.

فأجاب بازيل وهو يرفع رأسه إلى الوراء بتلك الطريقة الغريبة التي كانت تضحك زملاءه منه أيام الطلب في أكسفورد:

ـ لست أظن أني سأعرضها في مكان ما. بل هذا مؤكد. لن أعرضها في أي مكان.

ورفع اللورد هنري حاجبيه ونظر إليه عاجبًا بين ذؤابات الدخان الأزرق الخفيف الذي تصاعد من سيجارته، المخلوطة بالأفيون، في أشكال لولبية متداخلة جميلة، ثم قال:

ـ أتقول إنك لن تعرضها في أي مكان؟ وكيف ذلك يا صديقي العزيز؟ ما السبب؟ ما أعجب أطواركم معشر الرسَّامين! أنتم تقلبون الدنيا رأسًا على عقب لكي تصيبوا شيئًا من الشهرة، فإن أصبتموها بدا أنكم زاهدون

فيها. هذه غباوة منك يا بازيل، فهناك شيء واحد أسوأ من أن تكون موضع حديث الناس، وهو ألا تكون موضع حديثهم. وهذه الصورة خليقة بأن ترفعك على شباب الفنانين في إنجلترا وأن تملأ قلوب شيوخهم غيرة منك، إن كانت للشيوخ قلوب.

أجاب الرسَّام:

ـ أعلم أنك ستسخر مني، ولكني في الواقع لا أستطيع عرضها لأني وضعت فيها من نفسي أكثر مما ينبغي لرسّام أن يضع في صورة.

وتمدَّد اللورد هنري على الأريكة واسترسل في ضحك طويل. فأضاف الرسَّام:

ـ نعم، هذا ما كنت أتوقعه منك، ولكني ما قلت إلا الحقيقة.

ـ أنت تقول إنك وضعت فيها من نفسك أكثر مما ينبغي، وهذا غرور منك عظيم. أقسم لك يا بازيل أني ما كنت أحسبك مخدوعًا في نفسك إلى هذا الحد. فأنت يا ذا الوجه الضخم الخشن والشعر الأسود الفاحم كيف تشبِّه نفسك بهذا الفتى الذي يحاكي أدونيس جمالًا ويبدو كتمثال مخروط من عاج كسته أوراق الورد؟ يا صديقي بازيل إن صاحبك هذا هو الإله نرسيس قلبًا وقالبًا. أما أنت فلست أنكر أن لك مخايل المفكرين وما إلى ذلك كله. ولكن الجمال الحقيقي يختفي حين تظهر مخايل الذكاء. والذكاء نفسه إسراف من الطبيعة، والإسراف يفسد التناسب في أي وجه. فالمرء إذا ما بدأ يفكر تحوَّل وجهه إلى جبهة كبيرة أو أنف كبير أو أي شيء من هذا القبيل. استعرض سائر النابهين في أي مهنة من مهن الفكر ترى صورهم نماذج في البشاعة ليس لها مثيل. ولقد يُستثنى من ذلك رجال الكنيسة، ولكن هذا طبيعي فرجال الكنيسة لا يفكرون البتة؛ والأسقف يردِّد وهو في الثمانين ما لُقِّن أن يقوله وهو في الثامنة عشرة، ولذلك تراه يحتفظ بجماله إلى آخر يوم من أيام حياته. إن صديقك الشاب هذا الذي تبخل عليَّ باسمه وتحيطه بهالة من الغموض قد سحرتني صورته. وأؤكد

لك أن صديقك هذا لا يفكر بتاتًا. يا له من مخلوق جميل لا عقل له! وما أخلقه بأن يقضي معنا الشتاء ليغنينا مرآه عن الزهور الغائبة، وما أخلقه بأن يقضي معنا الصيف لنجد فيه ما يطفئ ذكاءنا! كلا يا بازيل. لا تخدع نفسك فما فيه منك شيء.

ردّ الفنان قائلًا:

ـ لقد أسأت فهمي يا هاري، فأنا أعلم أني لا أشبهه، ولست بحاجة إلى من يدلني على ذلك، ولو قُدِّر لي أن أكون مثله لساءني ذلك. أراك تهز كتفيك استخفافًا، ولكني صادق في قولي. إن القدر يكيد لأصحاب الذكاء النابغ والجمال النابغ ويتعقَّبهم كما يتعقَّب الملوك منذ فجر التاريخ من دون إشفاق. ولخير لنا أن نكون من طينة العامة، فالأغبياء ودميمو الخلقة أسعد أهل الأرض طرًا، لأن في وسعهم أن يجلسوا في اطمئنان ويحملقوا كالبلهاء من أماكنهم في موكب الحياة الحافل. فإن فاتهم النصر فقد كُفّوا مرارة الهزيمة. هم يعيشون كما ينبغي أن نعيش جميعًا، يعيشون في صفاء، لا يبالون بشيء، آمنين مطمئنين، لا يفسدون حياة أحد ولا يفسد أحد حياتهم. أما نحن فندفع ثمن التفوّق غاليًا: أنت تدفع ثمن جاهك وحَسَبك، وأنا أدفع ثمن ذكائي وفني، أيًا كان قدرهما، ودوريان جراي يدفع ثمن جماله وشبابه. نعم يا هاري، لسوف ندفع ثمن ماحَبَتنا به الآلهة من نِعَم، ولسوف نتعذَّب عذابًا أليمًا.

فسار اللورد هنري نحو بازيل هولوورد وسأله قائلًا:

ـ دوريان جراي، أهذا اسمه؟

ـ نعم، هذا اسمه، وما كان في نيتي أن أبوح لك به.

ـ ولِمَ تريد إخفاءه عني؟

ـ لست أعرف كيف أشرح لك الأمر. ولكني إذا أحببت أحدًا من أعماق قلبي كتمت عن الناس اسمه، لأن في إعلانه شيئًا من الخيانة. ولقد تعلمت الولع بالأسرار، ويبدو لي أن الأسرار هي كل ما بقي لنا في

هذا العصر مما يملأ الحياة غرابة وغموضًا. فأتفه الأمور يثير فضولنا إن هو حُجب عنا، ولذلك تجدني لا أطلع أحدًا على وجهتي كلما غادرت لندن في هذه الأيام، فأن فعلت فقدت كل شيء في رحلتي. أعترف لك بأنها عادة سيئة ولكنها تُدْخِلُ على الحياة شيئًا من سحر الخيال. وأظنك تحسبني مخبولًا لكَلَفي بالأسرار.

فأجابه اللورد هنري قائلًا:

ـ كلا يا صديقي بازيل. ولعلك نسيت أني متزوج وأن اللذة الوحيدة في الزواج هي أنه يجعل حياة الغش لازمة للطرفين. فأنا لا أعلم أين تذهب زوجتي، وزوجتي لا تعلم شيئًا عمًّا أفعل. ولقد نتقابل، فنحن نلتقي فعلا بين وقت وآخر حين نتعشى معًا خارج المنزل أو حين نذهب معًا لزيارة أبيها الدوق، فإذا تقابلنا قصَّ كل منا على الآخر أسخف الأكاذيب متكلفًا الجد الكامل. وزوجتي قد برزت في هذا الفن، بل هي أطول مني فيه باعًا، فليس يبدو عليها أقل ارتباك عند ذكر التواريخ كما يبدو عليَّ دائمًا. فإن تبيَّنت تناقض أقوالي لم تثر بتاتًا، ويا ليتها تثور. هي تكتفي بالضحك هازئة مني.

قال بازيل هولوورد وهو يسير نحو الباب المؤدي إلى الحديقة:

ـ لست أحب أسلوبك هذا في الكلام عن حياتك الزوجية يا هاري. وأنا أعتقد أنك زوج فاضل ولكنك تخجل من فضائلك. عجبًا لك يا رجل. ما سمعتك تقول كلمة طيبة وما رأيتك تفعل شيئًا شريرًا. إن سخريتك بكل شيء إن هي إلا موقف تصطنعه اصطناعًا.

فعلَّق اللورد هنري على هذا بقوله:

ـ إن أردت أن تبدو طبيعيًا فلا بد لك من التكلُّف، وأشق أنواع التكلُّف عندي هو التكلُّف الذي ألتزمه لأبدو طبيعيًا.

وخرج الرجلان معًا إلى الحديقة، وهناك جلسا على مقعد من الخيزران طويل في ظل شجرة من أشجار الغار. وانصبت أشعة الشمس

على الأوراق الملساء وبين الحشائش اهتزت الأقاحي البيضاء.

وبعد صمت قليل أخرج اللورد هنري ساعته من جيبه وقال:

ـ يجب أن أنصرف الآن يا بازيل، ولكن لا بد أن تجيبني قبل انصرافي على سؤال طرحته عليك منذ هنيهة.

فأجاب الرسَّام مطرقًا:

ـ أي سؤال هذا؟

ـ لا تتجاهل تجاهل العارف.

ـ لست أفهم ما تريد.

ـ إذًا فها هو السؤال للمرة الثانية: أريدك أن تفسِّر لي امتناعك عن عرض صورة دوريان جراي. إليَّ بالسبب الحقيقي.

ـ لقد ذكرت لك السبب الحقيقي.

ـ كلا. إنما ذكرت أنك وضعت في الصورة من نفسك أكثر مما ينبغي وهذا تعليل صبياني.

فنظر بازيل إلى اللورد هنري نظرة ثابتة وقال:

ـ اصغِ إليَّ يا هاري. إن كل صورة ترسم بإحساس قوي هي صورة الفنان وليست صورة نموذج. فالنموذج شيء عارض لا أكثر ولا أقل، أو هو المناسبة فقط. و الرسَّام لا يكشف عن شخصية نموذج في الصورة التي يرسمها وإنما يكشف عن شخصيته هو. ولقد كشفت أنا في هذه الصورة عن سرّ روحي، ولهذا لن أستطيع عَرْضها.

فضحك اللورد هنري وسأله قائلًا:

ـ ترى ما يكون هذا السر؟

ـ سأطلعك عليه.

فقال صاحبه وهو يتأمله مليًا:

ـ هات ما عندك، فكلي آذان صاغية.

قال الرسَّام:

ـ ليس في الأمر تعقيد كما تظن يا هاري، وأخشى أن يتعذر عليك فهم ما سأقول أو أن تشك في صدق كلامي.

وابتسم اللورد هنري ثم مال وقطف أقحوانة من بين الأعشاب أوراقها وردية وأخذ يتفحصها ثم قال متأملًا قلبها الذهبي الصغير الذي نمت حوله نتف بيضاء:

ـ بل سأفهم كل ما تقول تمامًا. أما عن الشك فأنا أصدِّق كل ما يُقال لي ما دام شيئًا غير معقول.

وهبَّت نفحة من النسيم فتساقطت بعض الأزهار عن أشجارها، وأخذت أزهار السوسن تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال في الهواء الراكد كأنها جمهرة من النجوم. وغنّى جندب بجوار الحائط، ثم مرَّ بالحائط طيّور[1] طويل نحيل ذو أجنحة بنيه شفافة فبدا كالخيط الأزرق. وخيل إلى اللورد هنري أنه يسمع قلب بازيل هولوورد يخفق خفقانًا، فعجب لحاله أشد العجب.

قال الرسَّام أخيرًا:

ـ إليك القصة يا هاري. منذ شهرين قصدت إلى دار الليدي براندون لقضاء السهرة، ولا يخفى عليك أننا، معشر الفنانين المساكين، مطالَبون بالظهور في المجتمعات بين وقت وآخر لنثبت للناس أننا لسنا قومًا متوحشين. وأنت القائل إن أي شخص يستطيع في عصرنا أن يبدو رجلًا متحضرًا إذا كان يملك زي السهرة الأبيض. حتى السمسار يستطيع أن يفعل ذلك. ولا أطيل عليك القول، فقد مرَّت بِي عشر دقائق قضيتها في الصالون متنقلًا بين سيدات هرمات ضخام مثقَّلات بالملابس الفاخرة، متحدِّثًا إلى فريق من أعضاء الأكاديمية التافهين الثقلاء. ثم تنبَّهت فجأة

(1) الطيور هو اليعسوب، حشرة تنتمي إلى رتبة اليعسوبيات، تتميز بجسد طويل ممدود وزوجين من الأجنحة الشفافة وعينين كبيرتين. بالانجليزية Dragonfly.

إلى فتى يطيل التأمل فيَّ، واستدرت قليلًا فرأيت دوريان جراي.رأيته للمرة الأولى. وعندما تلاقت نظراتنا أحسست بالدم يغيض من وجهي، وتملكني فزع عجيب، وأيقنت أني أمام إنسان ذي شخصية ساحرة مدمِّرة، فلو أني تركت الأمور تجري مجراها العادي لاستغرقت روحه روحي ولأفنت نفسه نفسي ولسيطر على فني ومواهبي. ولم أكن وقتئذ لأرضى بأي تأثير خارجي يتحكَّم في حياتي، وقد كنت دائمًا سيّد نفسي وأنت تعرف نزعتي الاستقلالية يا هاري، فعزمت على تجاهله. ثم هتف بي هاتف لا أعرف مصدره يقول إن حياتي تجتاز أزمة هائلة وأحسست بأن القدر يخبِّئ لي أفراحًا لا حد لها، وأتراحًا لا حد لها، فجزعت أشد الجزع وهممت بالإنصراف جبنًا وإشفاقًا لا بوازع من ضميري، فلا فضل لي في ذلك.

ـ الجبن والضمير إسمان لمدلول واحد يا بازيل. وكل ما هنالك أن الضمير هو الاسم الرسمي، الماركة المسجلة على حد قولهم.

ـ أنا أخالفك في هذا يا هاري، ولا أخالك تعتقد في ما تقول. ولعل الدافع كان الكبرياء، فلقد كنت فيما مضى شديد الكبرياء. ولكن أيًا كان الدافع فقد رأيتني أقتحم الباب، وعند الباب اصطدمت طبعًا بالليدي براندون فصاحت بي قائلة: «لن أسمح لك بالانصراف بهذه السرعة يا مستر هولوورد» وأنت بلا شك تعرف نبرتها الحادة الشاذة.

قال اللورد الشاب وهو يمزِّق زهرة اللؤلؤ بأنامله العصبية ورقة ورقة:

ـ نعم، فهي تشبه الطاووس في كل شيء سوى الجمال.

ـ وهكذا لم أستطع التخلص منها، فقدمتني إلى بعض أفراد الأسرة المالكة، وإلى أشخاص زيَّنت أكتافهم النجوم واختالوا تيهًا بوسام ربطة الساق، وإلى سيدات عجائز على رؤوسهن تيجان عالية مدببات الأنوف لا يختلفن كثيرًا عن الببغاوات. وسمعتها تتحدَّث إلى هؤلاء عني كأني صديق من أعز أصدقائها ورأيتها تمعن في التعظيم من شأني رغم أني لم

أرها قبل ذلك إلا مرة واحدة. ولعل السبب في ذلك صورة من صوري أصابت وقتئذ نجاحًا عظيمًا وأطنبت في تقريظها الصحف اليومية، وأنت تعلم أن الصحف اليومية هي عند أهل القرن التاسع عشر سجل الخلود، وفجأة وجدتني مرة أخرى أمام الشاب الذي اضطربت نفسي لمرآه كل هذا الاضطراب. واقترب كل منا من الآخر حتى كدنا أن نلتصق، والتقت نظراتنا ثانية، فلم يسعني إلا أن أطلب إلى الليدي براندون أن تتولى تقديمنا، ولو لم تفعل لتبادلنا الحديث دون تعريف سابق. ومن هذا ترى أن موقفي لم ينطوِ على الجرأة كما تصورت أنا في تلك اللحظة، لأن الظروف ألزمتني به إلزامًا. وقد قال لي دوريان فيما بعد إنه أحس إحساسي، وزعم أن المقادير هي التي دبرت لنا هذا التعارف.

فسأله صاحبه قائلًا:

ـ وماذا قالت الليدي براندون عن هذا الشاب العجيب؟ إنها مولعة بذكر لمحة خاطفة عن ضيوفها كلما قدمت أحدهم إلى الآخر، وأذكر أنها قدمتني مرة إلى نبيل من النبلاء أحمر الوجه نافر الطبع غطت صدره الأوسمة والنياشين، وبعد أن قدمتني إليه همست في أذني بلهجة موثرة تفصيلات مدهشة سمعها ولا شك كل من بالقاعة. فآثرت الانسحاب لأني أحب أن أستكشف الناس بنفسي. ولكن الليدي براندون تعامل مدعويها كما يعامل الخبير المثمِّن السلع المعروضة في المزاد: فهي تارة تشرح لك كل ما يتعلَّق بهم حتى تزهد فيهم، وتارة تذكر لك كل شيء إلا ما تهمك معرفته.

قال هولوورد بغير اهتمام:

ـ مسكينة الليدي براندون، ما أقسى حكمك عليها يا هاري.

ـ يا صديقي العزيز، إنها حاولت أن تنشئ صالونًا ففتحت مطعمًا، فمن أين يأتي إعجابي بها؟ ولكن ماذا روت لك عن دوريان جراي؟

ـ أشياء من قبيل: «ياله من فتى ساحر! لقد كنَّا أنا وأمه المسكينة

متلازمتين أبداً. ولست أذكر الآن ما عمله، ولكني أعتقد أنه بلا عمل نعم، لقد تذكرت أنه يتقن البيانو... أم تراه يتقن الكمان؟ أهي الكمان يا مستر جراي؟» فلم نستطع أن نكتم الضحك، وفي الحال زالت الحواجز بيننا.

قال اللورد الشاب وهو يقطف زهرة أخرى من أزهار اللؤلؤ:

ـ ليس الضحك بداية سيئة للصداقة بحال من الأحوال، وأعتقد أنه أحسن نهاية لها كذلك.

فهز هولوورد رأسه ثم قال:

ـ أنت لا تفهم معنى الصداقة يا هاري، بل لا تفهم معنى العداوة كذلك. أنت تستلطف كل الناس، ومعنى ذلك أنك لا تبالي بأحد.

فقال اللورد هنري وقد دفع بقبعته إلى الوراء ونظر إلى السحب الخفيفة المتناثرة وهي تسبح في سماء الصيف الفيروزية كالخيوط الحريرية المغزولة البيضاء:

ـ ما أظلمك يا بازيل! نعم، أنت تسرف في ظلمي، فأنا أفرِّق تمامًا بين أنواع الناس: فأختار أصدقائي لجمالهم وزملائي لكرم أخلاقهم وأعدائي لذكائهم. ولا بد من الحذر الشديد في اختيار الأعداء، ولن تجد بين أعدائي عدوًا غبيًا واحدًا، فهم جميعًا من أهل الذكاء، ولذا تراهم يقدرونني حق قدري. فهل هذا من مظاهر الغرور يا بازيل؟

ـ بالتأكيد يا هاري. ولكن إذا رجعت إلى تصنيفك للناس دخلت أنا في قائمة الزملاء.

ـ أنت يا صديقي بازيل أقرب عندي كثيرًا من مجرد زميل.

ـ وأبعد كثيرًا من صديق. أنا عندك في مرتبة الأخ كما أعتقد.

ـ لا تذكّرني بالإخوة فأنا لا أحبهم إطلاقًا. فأخي البكر لا يريد أن يموت، وإخوتي الصغار أراهم دائمًا مشرفين على الموت.

فجلس هولوورد وزجره قائلًا:

ـ لا تقل مثل هذا الكلام يا هاري!

ـ أنا لا أعني ما أقول بالحرف الواحد يا صديقي، ولكني أكره أقاربي بالرغم مني. ولعل السبب في ذلك هو أن الإنسان يسوءه أن يرى غيره يشاركه عيوبه. وأنا أعطف من كل قلبي على الكره الذي تبديه الديمقراطية الإنجليزية لما تسميه مساوئ الطبقة الراقية. فعامة الشعب تشعر بأن العربدة والغباوة والانحلال الخلقي امتيازات خاصة بها، وإذا اتصف أحدنا بنقيصة من هذه النقائص بدا أنه اعتدى على اختصاصات تلك الطبقة. فعندما تقدم سذرك المسكين إلى محكمة الطلاق غضبت العامة غضبة كبرى، ومع ذلك أنا أعتقد أن أصحاب الأخلاق الفاضلة بين أبناء الشعب لا يتجاوزون عشرة في المائة.

ـ لست أصدق كلمة واحدة مما تقول، ويخيل إليَّ يا هاري أنك لا تقول ما تعتقد.

فأخذ اللورد هنري يداعب لحيته المدببة السمراء ويضرب حذاءه الرقيق بعصاه الأبنوسية المحلّاة بالأزرار، ثم قال:

ـ يا لك من إنجليزي صميم! فهذه هي المرة الثانية التي تبدي فيها هذه الملاحظة. إن مجرَّد عرض فكرة من الأفكار على إنجليزي صميم لضرب من الحماقة. اعرض فكرة ما على إنجليزي صميم تجد أنه لا يحاول أن يزن صدقها أو خطأها، فكل ما يهمه منها هو مدى إيمان صاحب الفكرة بفكرته. أما أنا فأرى أن جمال الفكرة لا صلة له بأخلاص صاحبها. والواقع أنه كلَّما قل إيمان الإنسان بفكرته كانت أقرب إلى الصحة بوجه عام، لأنها تتجرَّد في هذه الحالة من ميوله الشخصية وأحكامه الموروثة وحاجاته في الحياة ولكني لا أرغب الآن في أن أجادلك في الشؤون السياسية أو الاجتماعية أو الميتافيزيقية وإلا خسرت صداقتك، والأشخاص أفضل عندي من المبادئ، والأشخاص الذي تجرَّدوا من المبادئ أفضل عندي من كل شيء في الحياة ولنعد إلى دوريان جراي. هل يتردَّد عليك كثيرًا؟

ـ كل يوم، ويشقيني أن يمر يوم من دون أن أراه، فهو ضرورة من ضرورات حياتي.

ـ هذا غريب فقد حسبتك لا تهتم لشيء سوى فَنّك.

فأجاب الرسَّام بلهجة جادة:

ـ إن دوريان جراي قد أصبح كل فني الآن. ويخيل إليَّ أحيانًا يا هاري أن تاريخ العالم ليس فيه إلا عصران لهما بعض الأهمية: العصر الأول هو العصر الذي ظهرت فيه أداة جديدة للتعبير الفني، والعصر الثاني هو العصر الذي ظهرت فيه شخصية جديدة أصبحت موضوعًا للفن. فاختراع الرسم بالزيت كان له من الأهمية عند أهل البندقية ما كان لوجه أنتينوس[1] في الفن اليوناني القديم. ودوريان جراي سيحدث في فني ثورة لا تقل خطرًا عن هذين الانقلابين. وما ذلك لأني أصوره أو أرسمه أو أنقل على اللوحة خطوطه وقسماته فقد ألفت ريشتي ذلك، ولكن لأني لا أنظر إليه نظرتي إلى نموذج فحسب. ولست أقصد أني غير مطمئن تمام الاطمئنان إلى الصور التي نقلتها عنه، أو أن جماله يستعصي على الفن، فالفن لا يستعصي عليه شيء. وأنا أعرف أن إنتاجي قد تقدم منذ أن عرفت دوريان جراي، بل دخل عليه إتقان لم يكن من خصائصي أولًا. ولست أدري إن كنت تفهم معنى هذا الكلام أم لا، ولكن شخصيته قد ألهمتني أسلوبًا في الفن جديدًا لا أعلم كيف جاءني. فأصبحت أرى الأشياء وأفكر فيها بطريقة مختلفة عن طريقتي الأولى، بل أصبحت أستطيع أن أصوغ الحياة كلها صوغًا جديدًا على نسق لم آلفه من قبل. أتذكر من القائل: «أيامي تأمّل ولكني أحلم بالجمال»؟ لقد نسيت الآن، ولكن هذا مقام دوريان جراي عندي. ولقد جاوز العشرين ربيعًا ولكنه ما زال في نظري صبيًا

---

(1) أنتينوس: شاب يوناني (111-130 م) وُلد في بيثينيا وانتقل إلى إيطاليا كي يتعلّم تعليمًا راقيًا، كان مفضلًا للامبراطور أدريان ورافقه في رحلات واحتفالات دينية عديدة، مات أثناء رحلة في النيل، قيل إنه غرق وقيل إنه قد ضُحي به. تم تأليهه بعد موته.

غض الإهاب. ليتك تفهم معنى هذا الكلام يا هاري! إن رؤية هذا الصبي حين يخطر أمامي تلهمني دون وعي مني بأسس مذهب جديد، وأحس بهذه الأسس إحساسًا واضحًا فتلهمني بأسلوب جديد اجتمع فيه خيال المدرسة الرومانسية وسمو الروح اليوناني، أسلوب يقوم على انسجام الروح والجسد! فيا له من حلم جميل! ها نحن بحماقتنا قد فصلنا الروح عن الجسد، واستحدثنا منهما فنًا مثاليًا خاويًا من كل مغزى وفنًا واقعيًا مبتذلًا. فيا ليتك تعرف موقع دوريان جراي عندي يا هاري! أنت لا شك تذكر ذلك المنظر الطبيعي الذي رفضت أن أنزل عنه لأنيو رغم عروضه السخية، فهو من أبدع ما رسمت. أوتعرف لم ضننت به عليه؟ لأن دوريان جراي كان يجلس إلى جواري ساعة أن رسمته فطاف بي وحي منه لطيف خرج من شخصيته فغمرني، فكشفت للمرة الأولى في حياتي عن ذلك السحر الذي كنت أنشده دون أن أدرك معناه، وعبّرت عن كل ذلك في اللوحة.

ـ يا للعجب! لا بد أن أرى دوريان جراي يا بازيل.

ونهض هولوورد من المقعد وأخذ يسير في الحديقة جيئة وذهوبًا، وبعد برهة عاد إلى مكانه وقال:

ـ إن دوريان جراي عندي محض دافع يدفعني إلى الخلق الفني يا هاري، فلن ترَ فيه شيئًا عَجَبًا، أما أنا فأرى فيه كل شيء، وإذا ما غاب عني ظهر في فني أكثر مما وهو قريب. فهو كما ذكرت لك ملهمي بأسلوب جديد، وأنا أعثر عليه في بعض الخطوط الدقيقة وأعثر عليه في بعض الألوان الحلوة هذا كل ما في الأمر.

فسأله اللورد هنري قائلًا:

ـ إذا كان الأمر كذلك فلمَ تمتنع عن عرض صورته؟

ـ لأني وضعت فيها دون قصد مني ما يعبر عن هذه الوثنية الفنية الشاذة، وهو لا يعرف عنها شيئًا بطبيعة الحال. هو لا يعرف عنها شيئًا

ولن يعرف عنها شيئًا، ولكن الناس قد يفطنون إليها، ولست أحب أن تقف روحي عارية أمام أنظار المتطفِّلين الأغبياء. كلا يا هاري لن أضع قلبي تحت أنظار السوقة ليقرؤوا أسراره، فلقد وضعت في الصورة من نفسي أكثر مما ينبغي. أجل، يا هاري، أكثر مما ينبغي.

ـ أرى الشعراء أقل منك وسوسة، فهم يعرفون فائدة العاطفة في سوق النشر. وفي عصرنا هذا نجد أن القلب الممزق يعاد طبعه مرارًا وتكرارًا.

فقال هولوورد:

ـ وهذا ما يثير حفيظتي على الشعراء. إذ واجب الفنان أن يصنع الأشياء الجميلة، ولكن حرام عليه أن يودع فيها شيئًا من نفسه. ففي هذا العصر ينظر الناس إلى الفن نظرتهم إلى المذكرات التي يدوّنها الكتّاب عن حياتهم الشخصية. نعم، لقد فقدنا القدرة على فهم الجمال المجرَّد، ولسوف أكشف للعالم يومًا ما عن سر هذا الجمال المجرَّد. ولهذا السبب عينه لن يرى العالم الصورة التي رسمتها لدوريان جراي مهما كلفني ذلك.

ـ أعتقد أنك مخطئ يا بازيل، ولكني لن أجادلك في رأيك، فالجدل هوية السفهاء. قل لي: أيحبك دوريان جراي؟

ظل الرسَّام يفكر لحظات ثم أجاب:

ـ أجل يحبني. أعرف أنه يحبني، والأمر مفهوم لأنني أتملَّقه، وتتملكني لذة عجيبة عندما أقول له أشياء أعرف أني سأندم على قولها. وهو في العادة شديد التلطُّف معي، فنحن نقضي الوقت الطويل في الاستديو ونتحدَّث في ألف موضوع وموضوع. ومن وقت إلى آخر ينتابه طيش بغيض فأراه يجد متعة حقيقية في الإساءة إليَّ، وعندئذ أشعر يا هاري بأني قد أسلمت روحي إلى مخلوق ينظر إليَّ نظرة إلى زهرة توضع في عروة سترته ويرى في فَنِّي مجرد حلية تُرضي غروره أو زينة تكمل جمال اليوم الصائف الصبوح.

قال اللورد هنري:

ـ إن أيام الصيف طويلة، وربما سئمت منه قبل أن يسأم منك، ولا جدال في أن العبقرية أطول أجلًا من الجمال وهذه أفظع مأساة في حياتنا الإنسانية. ولذا ترانا نتكالب على تثقيف أنفسنا، وفي تنازعنا الوحشي للبقاء نبحث عن ذخيرة باقية. ولذا ترانا نحشو أدمغتنا بالحقائق والترهات على السواء كيلا نفقد أمكنتنا في الحياة، وهي غاية سخيفة. إن المثل الأعلى في عصرنا هو الرجل الذي يعرف كل شيء، وجمجمة الرجل الذي يعرف كل شيء صندوق مزعج، بل هي حانوت من حوانيت العاديات اكتظ بالوحوش الأثرية وأكداس التراب، ولن تجد فيه سلعة لم يبالغ في تقدير ثمنها. ما زلت أظن يا بازيل أنك ستسأم منه قبل أن يسأم هو منك. ولسوف يأتي يوم تنظر فيه إلى صاحبك هذا فتتبين أنه قد صار نموذجًا عتيقًا لا يصلح للرسم أو يضايقك توزيع الألوان فيه، أو أي شيء من هذا القبيل، وعندئذ تقسو في حكمك عليه وتظلمه في قرارة نفسك وتحس إحساسًا عميقًا بأنه قد غدر بك، فتنطفئ حرارتك تمامًا وتصبح كبركان خامد، وهذا شيء يؤسَف له لأنك ستتبدَّل من حال إلى حال. إن القصة العنيفة التي رويتها عليك لهي قصة الفن إن صح هذا التعبير. وأفظع ما في الخيال أنك تستفيق منه على الحقيقة المرة.

ـ كفاك ما قلته يا هاري، فلسوف تظل شخصية دوريان جراي مسيطرة عليَّ ما دمت حيًا. ولن يُتاح لمثلك أن يقدر إحساسي لأنك متقلِّب الطبع.

ـ بل إن طبعي المتقلِّب هذا يا صديقي بازيل هو ما يجعلني أقدِّر إحساسك، فالمخلصون لا يعرفون من الحب إلا جانبه التافه، أما المنقلبون فيذوقون علقمه.

ثم أشعل اللورد هنري عود ثقاب بحَكّه في علبة فضية جميلة وأخذ يدخِّن سيجاره هادئ البال راضيًا عن نفسه وكأنه لخَّص فلسفة الحياة في جملة واحدة. واجتك باللبلاب القاتم الخضرة سرب من الشحارير

فسُمع له حفيف، وزقزقت العصافير، وكانت ظلال الغيوم يطارد أحدها الآخر فوق الحشائش كأنها تتسابق في الحديقة. والحديقة! ما كان أجمل الحديقة! كذلك بدت له عواطف الناس جميلة. أجل. فتنته عواطف الناس أكثر مما فتنته أفكارهم. وبحث عن سحر الحياة ومصدره فوجد أنه ينبثق من روح الإنسان ومن عواطف أحبائه. ثم أخذ اللورد هنري يتخيل الغداء الممل الذي فاته في بيت عمته ببقائه كل هذا الوقت مع بازيل هولوورد فاغتبطت نفسه، فلو قد ذهب إلى بيت عمتة لوجد عندها اللورد جودبودي لا محالة، ولدار الحديث كله حول الفقراء وإطعامهم، وحول ضرورة البدء في بناء البيوت النموذجية. أجل لو أنه ذهب إلى بيت عمته لسمع الأغنياء يتحدثون في مزايا الاقتصاد ولسمع الكسالى يتحدثون في شرف العمل ببلاغة قصوى. فما أسعده بتجنب هذا الجو الخانق! وفيما هو يفكر في عمته جال برأسه خاطر فقال:

ـ لقد تذكَّرت الآن يا بازيل.

ـ وماذا تذكرت يا هاري؟

ـ تذكَّرت المكان الذي سمعت فيه اسم دوريان جراي.

فعبس الرسَّام قليلًا وقال:

ـ وأين كان ذلك؟

ـ لا تعبس يا بازيل كأن في الأمر شرًا. لقد سمعت اسم دوريان جراي في بيت عمتي الليدي أجاثا. وقد قالت لي عمتي إنها عثرت على شاب يساعدها في أعمالها الخيرية التي تقوم بها في حي الإيست إند، واسم هذا الشاب دوريان جراي، ويجدر بي أن أقول إنها لم تتحدَّث قط عن جمال هذا الفتى، وهذا طبيعي، فالنساء لا يتذوّقن الجمال، أو على الأقل الصالحات منهنّ لا يتذوقنه. وقد وصفته لي بأنه شاب جاد خيِّر النفس، فتخيلته رجلًا يلبس نظارة خفيف الشعر ضخم القدمين شوَّهت وجهه آثار الجدري. فليتني كنت أعرف أنه صديقك الملهم هذا.

ـ لو أنك عرفت لساءني ذلك يا هاري.
ـ ما السبب؟
ـ لأني لا أحب أن تلتقي به؟
ـ أنت لا تحب أن ألتقي به؟
ـ نعم.
وخرج كبير الخدم إلى الحديقة وقال:
ـ إن مستر دوريان جراي في الاستديو يا سيدي.
فضحك اللورد هنري وقال:
ـ لا بد أن تقدّمني إليه الآن يا بازيل.
والتفت الرسَّام إلى الخادم فرأى عينيه تختلجان في ضوء الشمس. قال:
ـ اطلب من مستر جراي أن ينتظرني يا باركر، فلن أتأخر طويلًا.
فانحنى الرجل وانصرف. ثم نظر الرسَّام إلى اللورد هنري وقال:
ـ اسمع يا هاري. إن دوريان جراي أعز صديق لي، وهو ساذج النفس مطبوع على الخير، وقد أصابت عمتك تمامًا فيما قالته عنه، فلا تفسده ولا تحاول أن تؤثِّر فيه، فتأثيرك في الناس سيئ. إن العالم أمامك رحيب وبه آلاف من الناس يستحقون اهتمامك، فلا تحرمني من هذا الصديق الواحد الذي أستوحي منه فني، واعلم أن مستقبلي كفنان متوقف عليه دون سواه. فتذكر يا هاري أني أثق بك.
وكان هولوورد يتكلَّم مكرهًا وببطء شديد كأن كل كلمة تخرج من فمه تعصر فؤاده عصرًا. فاحتج اللورد هنري على كلامه وهو يبتسم، وتأبط ذراه وسعى به إلى البيت كأنه يجرّه جرًا.

الفصل الثاني

رأى الرجلان دوريان جراي حين دخلا الاستديو، وكان جالسًا أمام البيانو يقلّب صحائف كراسة من «مناظر الغابة» للموسيقي شومان فلم يشاهدا وجهه. قال:

ـ ما أجمل هذه الصحائف يا بازيل! أحب أن أدرس هذه الكراسة، فهل تعيرني إياها؟

ـ نعم يا دوريان، سأعيرك إياها إذا أحسنت الجلوس أمامي فلم تتحرَّك كثيرًا أثناء قيامي برسمك.

فدار الفتى على مقعد البيانو في ثبات وأجابه متحديًا:

ـ لقد سئمت الجلوس، وما أنا براغب في صورة بالحجم الطبيعي.

ثم وقع بصره على اللورد هنري فارتبك قليلًا واحمرّت وجنتاه لحظة ونهض قائلًا:

ـ عفوًا يا بازيل فقد كنت أظننا على انفراد.

ـ هذا يا دوريان هو اللورد هنري وتون، صديقي منذ أيام الطلب في أكسفورد. وقد كنت منذ دقيقة واحدة أصفك له بأنك خير من جلس أمام رسّام، وها أنت قد أفسدت كل شيء.

فتقدَّم اللورد هنري إلى الشاب باسطًا يده وقال:

ـ بل لا زلت سعيدًا بلقائك يا مستر جراي. إن عمتي تحدثني عنك

كثيرًا، فأنت أحد أصفيائها، بل أخشى أن أقول إنك أحد ضحاياها كذلك.
وبدا على وجه دوريان جراي أسف ليس من طبعه وأجاب قائلًا:
ـ أنا في قائمتها السوداء في الوقت الحاضر، فقد وعدت عمتك الليدي أجاثا بأن أخرج معها إلى نادٍ بحي هوايت تشاپل ولكني نسيت تمامًا. وقد كان الغرض من هذه الرحلة أن نشترك في عزف بعض المقطوعات الموسيقية. أما وقد أخلفت وعدي فلن أجد الشجاعة لزيارتها بعد الآن.
ـ سأصلح أنا بينكما، ولن أجد صعوبة في ذلك، فهي تحبك حبًا جمًا، ولست أظن أن تخلّفك قد أفسد شيئًا، فعمتي أجاثا حين تعزف على البيانو تُحْدِث ضجة كبرى، ولا يبعد أن سامعيها حسبوا أن هناك عازفين لا عازفًا واحدًا.
فقال دوريان ضاحكًا:
ـ هذه قسوة عليها وإهانة لي.
ونظر اللورد إليه مليًا. نعم. لا شك أنه كان آية في الجمال. فشفتاه الحمراوان من خلق فنان دقيق، وعيناه الزرقاوان الصافيتان وشعره الذهبي المتموج من خلق فنان سخي. وقد اجتمع له من صراحة الشباب منتهاها ومن طهارته أصفاها ومن حرارته أقواها، فلا عجب أن مرآه كان يوحي بالثقة في القلوب لحظة أن تقع عليه العيون، كأنه مخلوق نقي صان نفسه عن دنس الدنيا. وزال عجب اللورد هنري من تفاني بازيل هولوورد في الولاء له. وأخيرًا قال:
ـ إنما يهتم بأمور الإحسان الثقلاء، وأنت يا مستر جراي شاب لطيف، بل أنت مثال اللطف.
وبعد أن فرغ من كلماته ارتمى على الأريكة وأخرج سيجارة من علبته. أما الرسَّام فقد كان منشغلًا بخلط ألوانه وإعداد أدواته. وكان القلق يبدو عليه، فلما أن سمع عبارة اللورد هنري الأخيرة التفت إليه وقال بعد تردُّد قليل:

ـ لا بد أن أفرغ اليوم من رسم هذه الصورة يا هاري، وأرجو ألا تحسبني فظًا إذا طلبت إليك أن تتركنا.

فابتسم اللورد هنري ورمق دوريان جراي بنظرة ذات مغزى وقال:

ـ أأنصرف يا مستر جراي.

ـ بل أرجو أن تبقى معنا، فبازيل اليوم منقبض النفس وأنا لا أحتمله حين يكون منقبض النفس. وفضلًا عن ذلك أنا أحب أن تشرح لي ما قلته من أن الاهتمام بالأعمال الخيرية لا يناسبني.

ـ لا أظن أني سأحدثك عن الجميعات الخيرية فهو موضوع جدّي ممل، ولكني مع ذلك سأبقى معكما ما دمت قد طلبت مني ذلك. وأرجو يا بازيل ألا يكون في بقائي مضايقة كبيرة لك. ألم تقل مرارًا إنك تحب أن يجد من ترسمهم جليسًا يدفع عنهم الملل؟

فعض هولوورد شفتيه وأجاب قائلًا:

ـ إذا كان دوريان يحب أن تبقى معنا فلن يسعك إلا البقاء بطبيعة الحال، فرغبات دوريان أوامر لا تعصى عند جميع الناس ما خلا نفسه.

ولكن اللورد هنري تناول قبعته وقفازه وقال:

ـ أشكرك على إلحاحك عليَّ في البقاء يا بازيل، ولكن لا بد لي من الانصراف، فأنا على موعد في نادي أوليانز. الوادع يا مستر جراي، واعلم أنه يسرني أن تزورني في شارع كيرزون في عصر يوم من الأيام، فأنا موجود دائمًا في بيتي حوالي الساعة الخامسة إلا في الأحوال النادرة. أكتب لي بموعد زيارتك، وتذكر أني سأحزن كثيرًا إلن لم أرك ثانية.

فصاح دوريان جراي قائلًا:

ـ اصغ إلي يا بازيل. إذا انصرف اللورد هنري انصرفت أنا كذلك، فأنت لا تنطق بكلمة حين ترسم، ولقد مللت الوقوف أمامك كل يوم متكلفًا الابتسام.

قال هولوورد وهو يرنو إلى الصورة في تفحّص:

ـ أرجو أن تبقى يا هاري لترضي دوريان ولترضيني. إن ما قاله دوريان صحيح، فأنا لا أنطق بكلمة أثناء العمل ولا أستمع لكلام الغير، ولا بد أن ذلك يسبب أشدّ الضيق لمن أرسمهم. هلا أرجوك أن تبقى؟

ـ وهل أخلف ميعادي في نادي أوليانز؟

ضحك الرسَّام وأجاب:

ـ هذه مسألة سهلة. عد إلى مكانك يا هاري، وأنت يا دوريان خذ مكانك على القاعدة ولا تصغ كثيرًا إلى كلام اللورد هنري فإن له تاثيرًا خبيثًا في جميع أصدقائه لم ينجُ منه إلا أنا.

وسار دوريان جراي إلى القاعدة كأنه شهيد يسير إلى حتفه، وأخذ مكانه عليها، وزمجر امتعاضًا كأنه يشكو أمره إلى اللورد هنري الذي راق في نظره. ورأى دوريان أن اللورد هنري وبازيل طرفا نقيض. كم كان صوت اللورد هنري حلوًا. وبعد لحظات كان دوريان جراي يسأل اللورد هنري قائلًا:

ـ هل صحيح ما يقوله بازيل عنك يا لورد هنري من أن لك تأثيرًا خبيثًا في الناس.

ـ التأثير الصالح لا وجود له يا مستر جراي، فكل تأثير يتنافى مع الأخلاق، أعنى إذا أردت أن تحكم حكمًا عمليًا.

ـ لست أفهم.

ـ إن تأثيرك في شخص ما معناه أنك تسبغ روحك عليه، مما يملأ رأسه بأفكار ليست أفكاره ويملأ قبله بعواطف ليست في طبعه ويجعل من رذائله رذائل مستعارة من الغير، وبذلك يصبح صدى يردِّد ترنيمة رجل آخر، أو ممثلًا يلعب دورًا لم يُكْتَب له. إن غاية الحياة تقدم الذات وما خلق كل منا إلا لينمّي مَلَكاته ويصون طبيعته على الوجه الأكمل. ولكن الناس في هذه الأيام يخافون من أنفسهم، وينسون أن واجب الإنسان الأول هو واجبه نحو نفسه، فتراهم يطعمون الجياع ويكسون

العراة وأرواحهم جائعة عارية. ولا بد من أحد أمرين، فإما أن شعبنا قد فقد شجاعته أو أن الشجاعة لم تكن من صفاته في يوم من الأيام فنحن عبيد الخوف: الخوف من المجتمع هو جوهر الأخلاق، والخوف من الله هو جوهر الدين. ومع ذلك...

كان الرسَّام مستغرقًا في عمله فلم يتتبع الحديث، ولكنه لاحظ أن وجه دوريان جراي يسطع ببريق جديد لم يره من قبل. قال:

ـ أدر رأسك قليلًا يا دوريان.

قال اللورد هنري مستأنفًا حديثه بصوت خافت رخيم وهو يعبر عن قصده بيده كعادته منذ أن كان تلميذًا في كلية إيتون:

ـ ومع ذلك فاعتقادي أن الأيام لو قيَّضت لنا رجلًا واحدًا يحيا حياته كاملة، فيصوِّر كل إحساس يجيش في نفسه ويعبر عن كل فكرة تمر بخلده ويحقق كل حلم يداعب خياله، لعادت البهجة إلى الحياة مرة أخرى وانتشلتنا هذه الصراحة من كابوس القرون الوسطى الذي ما زلنا نشقى به. أجل. لو قيضت لنا الأيام مثل هذا الرجل لعدنا إلى المثل الأعلى في حضارة اليونان، حضارة هيلاس، بل لتجاوزنا اليونان وحضارتهم الخصبة الجميلة. ولكن أشجع رجل بيننا يرتعد أمام نفسه فرقًا. إن إنكار الذات الذي يفسد علينا الحياة لهو بقية أليمة من تراث الهمجية الأولى حين كان رجل الغاب يمزق جسده بيده، وها نحن ندفع ثمن زهدنا في الحياة، فكل نازع نكبته في نفوسنا يجثم في أفئدتنا ويسمِّم فينا ينابيع الحياة. إن الجسد يخطئ مرة واحدة ثم تغسل عنه خطيئته، لأن التجربة تطهّره، ولا يبقى بعدها إلا لذة الذكرى أو غصة الندم الجميل. ولا نجاة من الغواية إلا بالاستسلام لها. فإن قاومت الغواية ذبلت روحك من شوقها إلى المحظور، وما حظر المحظور إلا رياؤها، وبكت نهمًا إلى الحرام، وما حَرّم الحرام إلا يأسها وإشفاقها. يقولون إن الأحداث الكبرى تبدأ في عقل الإنسان، وأنا أقول إن الجرائم الكبرى تبدأ في عقل الإنسان

كذلك، بل تبدأ في الإنسان لا سواه. وحتى أنت يا مستر جراي، بشبابك المنفتح كالوردة الحمراء وطفولتك النقية كالوردة البيضاء، حتى أنت يا مستر جراي، قد جمحت بك شهوات ارتعد أمامها ضميرك، وعصفت بك خواطر ملأت قلبك رعبًا، وعرفت في يقظتك ومنامك أحلامًا كلما ذكرتها ضرَّج الخجل خديك بالدماء.

فقاطعه دوريان جراي في لعثمة قائلًا:

ـ كفى! كفى! لقد بلبلت أفكاري. أعتقد أن هناك ردًا على كل ما تقول ولكني عاجز عن إيجاده. الزم الصمت ودعني أفكر.

وظل ما يقرب من عشر دقائق ثابتًا في مكانه فاغر الفم يلمع في عينيه ضوء غريب. وكان يحس إحساسًا مبهمًا بأنه يدخل تحت تأثير ما، ولكنه أحس كذلك بأن النفوذ الجديد الذي يسيطر عليه لم يأته من الخارج وإنما خرج من أعماق نفسه. فلقد هزت الكلمات القليلة التي قالها صديق بازيل وترًا خفيًا في فؤاده لم يهتز من قبل لشيء، وأيقظت فيه أعجب المشاعر. ولا شك في أن اللورد هنري تعمَّد بعض الشيء أن يحيِّر دوريان، ولكن كلماته جاءت عَرَضًا وبغير تحضير سابق.

ولم تكن هذه المشاعر جديدة على دوريـان جراي، فقد كانت الموسيقى توقظ مثلها فيه، ولكم ملأته بالقلق والحيرة. ولكن الموسيقى خرساء لا تفصح، وهي لا تخلق في نفوسنا عالمًا جديدًا مرتّبًا متماسك الأجزاء بل تخلق فيها عالمًا من الفوضى. أما الألفاظ فسلطانها عظيم وتصويرها دقيق وتعبيرها قاس، ومن رام الفرار منها لاحقته أينما ذهب. ولكنها رغم ذلك كله ذات سحر لطيف، ولها من النغم العذب ما للعود وللكمان وهي تحبس كل شارد من العواطف في إطار من حديد. فيا لنا من الألفاظ! ليس أصدق من الألفاظ تعبيرًا عن الحقيقة.

كم من أشياء مرَّت بدوريان جراي وعجز عن فهمها أيام صباه. ولكن ها هو يفهمها الآن. وهذه الحياة تصطبغ فجأة أمام ناظريه بالألوان النارية

العنيفة. وخُيل إليه أنه يمشي بين ألسنة اللهيب من دون أن يكتوي بنارها، وياليته اكتوى. أما اللورد هنري فقد كان يتأمله وعلى شفتيه ابتسامة ذات مغزى. وكان يعرف متى يتوقف عن الكلام ويستعين ببلاغة الصمت. ثم ثار فضوله وعجب لما رآه من تأثير فجائي لكلماته، وتذكر ذلك الكتاب الذي قرأه وهو في السادسة عشرة من عمره وتعلم منه ما لم يعلم من أسرار الحياة فجال بباله أن دوريان جراي يمر الآن في تلك التجربة ذاتها. ولم يكن ما قاله اللورد هنري إلا سهمًا انطلق بغير تصويب، فهل أصاب السهم الهدف، يا له من هدف جذّاب!

ولم يتنبه هولوورد إلى السكون الذي خيَّم على الحجرة فقد كان مشتغلًا بالرسم يلوِّن الصورة بألوانه الجريئة التي تضفي على عمله رقَّة وأناقة هما في الواقع مظهر من مظاهر القوة، في الفن على الأقل.

قال دوريان جراي:

ـ لقد أتعبني طول الوقوف يا بازيل، والهواء هنا يخنق أنفاسي، فلا بد أن أخرج إلى الحديقة لأرتاح قليلًا.

فأجاب الرسَّام:

ـ عفوًا يا صديقي، فقد أنساني الرسم كل شيء. إن وقفتك اليوم يا دوريان أجمل من وقفتك في أي يوم مضى، فلم تبدُ منك أدنى حركة. كذلك أمكنني أن أنقل التعبير الذي كنت أطلبه، أقصد ذلك البريق في عينيك وذلك الانفراج الخفيف في شفتيك. ولست أعرف بم حدثك هاري ولكن حديثه بلا جدال قد أكسب محياك تعبيرًا لا نظير له. أكان يطريك طيلة هذا الوقت؟ مهما يكن من شيء فلا تصدِّق كلمة واحدة مما يقول فهو يلقي الكلام جزافًا.

قال دوريان:

كلا. لم أسمع منه كلمة إطراء واحدة، ولذا تجدني أميل إلى الشك في كل ما قاله.

قال اللورد هنري معترضًا وهو ينظر إليه بعينيه الناعستين الحالمتين:
ـ بل أنت تؤمن بصدق ما أقول، وأنت تعلم ذلك. إن الحرارة هنا خانقة فلنخرج معًا إلى الحديقة. آتنا شرابًا مثلجًا به شيء من الشليك يا بازيل.
ـ بالتأكيد يا هاري. أمامك الجرس فاطلب خادمي پاركر ومره بما تشاء، أما أنا فباق هنا لأتم هذه الصورة، وأرجوك ألا تعطل دوريان في الحديقة طويلًا إذ لا بد لي منه ثانية فأنا أحس برغبة في العمل لم أحس بها من قبل. يا لها من صورة رائعة، فما أسعدني بها! لسوف تكون أبدع ما رسمت حين تتم، بل لا أغالي إن قلت إنها أبدع ما رسمت في وضعها الحالي.

وخرج اللورد هنري إلى الحديقة فوجد دوريان جراي يدفن وجهه بين أزهار الليلج المنعشة يستاف عبيرها كأنه نبيذ كريم. ودنا منه ثم وضع يده على كتفه وقال بصوت خافت:
ـ هاقد عرفت طريقك إلى الخلاص يا دوريان، فما يطهِّر الروح إلا الحواس وما يطهر الحواس إلا الروح.

فجفل الفتى وارتدّ قليلًا. وكان عاري الرأس فعبثت أوراق الشجر بشعره المتموج وتشابكت خيوطه الذهبية. وبدا في عينيه ارتياع عظيم كأنه نائم أوقظ فجأة من منامه. وارتجف أنفه الدقيق ونبض في شفتيه القرمزيتين عصب دفين فتركهما ترتعشان بلا انقطاع. واستأنف اللورد هنري حديثه قائلًا:
ـ نعم يا مستر جراي، هذا سر من أسرار الحياة، بل سر من أسراها الكبرى، أعني شفاء النفس عن طريق الحواس وشفاء الحواس عن طريق النفس. وأنت نموذج من نماذج الخلق رائع، وشوقك إلى معرفة الحياة أكبر من معرفتك بها، ولكن معرفتك بالحياة أكبر مما تظن.

فأظلم وجه دوريان جراي وأشاح برأسه عن اللورد هنري. فلقد بدأ على الرغم منه يتعلّق بهذا الرجل المديد القامة الرشيق التكوين الواقف

إلى جواره، وأثار اهتمامه محياه الأسمر الحالم وملامحه المتعبة. أمَّا صوته الخفيض الكسلان فقد كان يسحر الحجر، ويداه الناصعتان الناعمتان كان لهما سحر زهرة غريبة، وكانتا تتحركان بلا انقطاع كلَّما تكلَّم حركة تشبة إيقاع لحن رتيب فيكاد سامعه أن يفهم ما تقولانه. ولكن دوريان رغم ذلك كله خامره الخوف منه، وإن أخجله أن يخاف. وكيف لا يخاف من هذا الغريب الذي يقرأ عليه صفحة نفسه كأنها كتاب مفتوح ويهتك أمامه ما خفي عليه من أسرارها. لقد عاشر دوريان جراي بازيل هولوورد فلم يسمع منه إلا كلمات الإطراء، ثم دخل في حياته فجأة رجل وصف له الحياة ففك له لغزها. ولكن مم يخاف؟ لو أنه كان صبيًا غريرًا أو بنتًا قليلة الحيلة لجاز له أن يخاف. أما وهو ليس بهذا ولا تلك فلا مبرر لخوفه على الإطلاق. قال اللورد هنري:

ـ هيا بنا إلى الظل نجلس فيه. هذا پاركر قد أتانا بالشراب، ولو مكثت في هذا الجو المحرق طويلًا لأتلفتك الشمس ولم يعد بازيل يجد فيك ما يستحق الرسم. فحذار من الشمس يا مستر جراي، فالسمرة لا تناسبك.

فأجاب دوريان ضاحكًا وهو يجلس على مقعد في طرف الحديقة:

ـ وما أهمية ذلك.

ـ بل أهميته جوهرية بالنسبة لك.

ـ وكيف ذلك؟

ـ لأن شبابك لا نظير له، والشباب هو كل ما يستحق أن نتمناه لأنفسنا في الحياة.

ـ ولكني لا أحس بشبابي يا لورد هنري.

ـ هذا طبيعي. أنت لا تحس بشبابك لأنك تملكه، ولن تحس به إلا إذا فقدته، ولسوف تفتقده يوم يضيع منك. ستفتقده حين يزول جمالك ويمتلئ وجهك بالغضون. ستفتقده حين يحفر الهم أخاديده في جبينك الجاف ويكوي الأسى بنيرانه شفتيك. أنت تفتن الدينا أينما ذهبت الآن،

فهل يدوم لك ذلك؟ ما رأيت وجهًا قط في جمال وجهك يا مستر جراي. لا تعبس فهذه حقيقة مقررة. والجمال لون من ألوان النبوغ، بل الجمال أعلى قدرًا من النبوغ، وهذه أيضًا حقيقة مقررة. فإن كنت تشك في ضوء الشمس أو في الربيع أو في القمر الفضّي حين ينعكس خياله على المياه المظلمة أو في أشباه هذه الحقائق الأولية فلك أن تشك في صدق ما أقول. إن الجمال يحكم العالم بأذن من الله، ولا ينازعه في دولتة شيء في الوجود، فمن حَبَته الطبيعة به جلس على عرش القلوب. أراك تبتسم لهذا الكلام، ولكنك لن تبتسم حين يزول عنك جمالك، أسمع الناس يقولون إن الجمال سطحي، ولعلهم صادقون في ما ذهبوا إليه، ولكن الجمال مهما كان سطحيًا فلن تصل تفاهته إلى تفاهة الفكر. ولو سألتني الرأي لقلت لك إن الجمال عجيبة العجائب ولقد يكون الجمال قشرة ظاهرية ولكن الظواهر هي كل شيء في الحياة، ومن لا يحكمون بالظواهر هم السطحيون الذين لا يفهمون شيئًا عن لغز الحياة. فلغز الحياة هو ما نراه وليس ما لا نراه. نعم يا مستر جراي، إن الآلهة تحبك، ولكن لا تنسَ أن الآلهة تسترد ما تمنح، ولم يبقَ أمامك إلا سنوات معدودات تستطيع فيها أن تحيا حياتك على أكمل وجه. فحين يذوي شبابك يذوي معه جمالك، ولسوف تجد يومئذ أن أيام مجدك قد مضت وتفهم معنى الهزيمة، أو تقتنع من كل هذا السلطان العريض بذكرى مجدك الزائل وهذا أشد مرارة من الهزيمة. إن كل شهر يفوت يقترب بك من هذا المصير الأليم. فالزمن ينفس عليك شبابك ويغار من ورودك ورياحينك، وحين يصرعك الزمن يشحب لونك ويتكهّف خَدَّاك وينطفئ البريق الذي يلمع الآن في عينيك، وتتعلم كيف يكون الشقاء. فانعم بشبابك ما بقى لك. أيامك ذهبية، فلا تبعثر ذهب أيامك مستمعًا إلى نصائح الوعّاظ الثقلاء أو آخذًا بيد العاثرين أو مكرِّسًا حياتك للجهّال والسفهاء، فهذه أهداف عصرنا وهو مريض، وهذه مُثُله العليا وهي زائفة. عش وانعم بالحياة المتفتحة فيك واستفد

من كل اختبار يمر بك وجدد إحساسك بالحياة ولا تخش شيئًا. فعصرنا بحاجة إلى دين جديد، إلى وثنية جديدة، إلى إحياء عبادة الجمال التي انطوت تحت أنقاض اليونان. ولتكن أنت رمز هذه الفلسفة الجديدة، فالدنيا وما عليها طوع بنانك حتى ينطوي ربيعك الناضر. لقد أدركت لأول وهلة حين لقيتك أنك تجهل حقيقة نفسك وتجهل ما ينتظرك من أفراح وها أنا أفصِّل لك أمرك لأن قوة خفية فيك جذبتني إليك فأشفقت أن يضيع منك كل هذا الشباب المكنوز، وهو خليق بأن يضيع. إن الأزهار الساذجة النامية على البطاح تذبل مع الخريف ولكنها تتجدَّد في مقدم الربيع، وهذه الشجرة الصفراء التي تتوهج الآن أمام عينيك سوف تسترد ما عليها من نضار في مثل هذه الأيام من العام القادم، ولسوف تكسو النجوم الحمراء أدواح الداليا بعد شهر واحد وتلمع تلك النجوم في ليل أوراقها الخضراء سنة بعد أخرى، أما نحن فشبابنا المهراق لا يعود، وأشواقنا تخبو وأفراحنا تفتر بعد أن كانت تهزنا هز الأعاصير في سن العشرين. كذلك تهن أبداننا وتنطفئ حواسنا ونؤول إلى دمى كريهة لا نفع فيها، دمى تحنُّ إلى ما فات وقد كانت ترتعب في القديم من نداء السعادة، وتتأوه على الغوايات الحلوة وقد كانت لا تجرؤ على إطاعتها أيام الشباب. فحيِّ الشباب إنه كل ما في الدنيا من صور النعيم.

كان دوريان جراي يستمع إليه عاجبًا فسقطت من يده باقة الليلج على الأرض المرصوفة بالأحجار الصغيرة. واندفعت نحوها نحلة طنَّت قليلًا ثم بدأت تدب في الليلج الملفوف. وطفق يتأمَّل هذه الظاهرة التافهة باهتمام عظيم كما نفعل عادة حين نضطرب لأمر جلل، أو حين تهزنا عاطفة جديدة لا نستطيع التعبير عنها، أو حين تلح علينا فكرة رهيبة وتأبى إلا أن نخضع لها. ثم طارت النحلة عن الليلج وشاهدها دوريان جراي تقتحم زهرة وتختفي في أعماقها، ورأى الزهرة ترتجف ثم تتأرجح ذات اليمين وذات اليسار.

وظهر الرسَّام فجأة بباب الاستديو وأشار لهما بالعودة فتبادلا النظرات وابتسما وسمعاه يقول:

ـ أنا في الانتظار، والضوء الآن جميل فعودا وتناولا شرابكما هنا.

فنهض الرجلان وسارا متكاسلَيْن في ممشى الحديقة. وطارت بجوارهما فراشتان إحداهما بيضاء والأخرى خضراء، وسمعا عصفورًا يغرِّد في شجرة الكمثرى عند طرف الحديقة. وقال اللورد هنري:

ـ أسعيد أنت بلقائي يا مستر جراي؟

ـ نعم، أنا الآن سعيد بلقائك، ولكن هل سأظل هكذا دائمًا؟

ـ لا تقل «دائمًا» يا مستر جراي، فكلمة «دائمًا» كلمة فظيعة تجعلني أرتجف فرقًا. والنساء مولعات بها إلى حد كبير، فهن يفسدن كل علاقة جميلة برغبتهن في أن تدوم هذه العلاقة إلى الأبد. إن كلمة «دائمًا» كلمة لا معنى لها. والفرق الوحيد بين النزوة العارضة والعاطفة الدائمة هو أن النزوة العارضة أطول عمرًا من العاطفة الدائمة.

وفيما هما يدخلان الاستديو أمسك دوريان جراي بذراع اللورد هنري وقال في شجاعة أخجلته:

ـ إذا كان الأمر كذلك فلتكن صداقتنا نزوة عارضة لا عاطفة دائمة.

ثم أخذ مكانه من جديد أمام الرسَّام:

وارتمى اللورد هنري على مقعد كبير وأنشأ يتأمله عن كثب. وخيَّم على المكان صمت طويل، فما كان يسمع إلا حفيف الفرشاة على اللوحة، وبين وقت وآخر كانت تسمع خطوات هولوورد وهو يتراجع ليتفحّص عمله من بعيد. وفي الضوء المتدفِّق من خلال الباب المفتوح سبحت ذرات التراب وبدت كدقائق التبر، وتأرَّج كل شيء بعطر الورود.

وتوقَّف الرسَّام عن العمل ربع ساعة أو يزيد. وأدمن النظر طويلًا إلى دوريان جراي ثم إلى الصورة وهو يعضّ فرشاته الضخمة في تجهم واضح، وأخيرًا صاح قائلًا:

ـ لقد اكتملت الصورة.

وانحنى كثيرًا، وكتب اسمه في ركنها الأيسر بحروف كبيرة حمراء ودنا اللورد هنري من الصورة فوجدها آية من آيات الفن لا تُبارى، ووجدها نسخة تطابق صاحبها تمامًا. قال:

ـ أهنئك يا بازيل من صميم قلبي، فهذه أجمل صورة رُسمت في العصر الحديث. تعال يا مستر جراي لترى نفسك.

كان الفتى مسترسلًا في أحلامه فأفاق منها، ونزل من القاعدة وقال بصوت خافت:

ـ هل انتهت الصورة حقًا؟

فأجاب الرسَّام:

ـ نعم انتهت تمامًا، فشكرًا على حسن وقوفك اليوم.

قال اللورد هنري:

ـ الشكر لي يا بازيل، فلولاي لما أحسن الوقوف. أليس كذلك يا مستر جراي؟

لم يجب دوريان بل مَرّ أمام صورته بغير اكتراث ثم التفت إليها فلما وقع بصره عليها رجع خطوة إلى الوراء واشتعل خداه لحظة من فرط السرور وفاضت عيناه بالبشر كأنه يقف على حقيقة جماله للمرة الأولى. وثبت في مكانه كالمسحور لا يعي شيئًا مما يدور حوله، اللهم إلا صوت هولوورد فقد جاءه كاللغط المطموس. لقد أشرق عليه وجهه الصبوح فبدهه جماله كأنه وحي عظيم وكانت تلك أول مرة يخالجه فيها هذا الإحساس، فقد كان من قبل لا يقيم وزنًا لكلام بازيل هولوورد ويحسب إطراءه إياه مجاملة لطيفة من مجاملات الأصدقاء. وتذكَّر دوريان جراي إطراء بازيل هولوورد. كم أصغى إليه وكم ضحك منه وكم نسيه! إن إطراء بازيل هولوورد لم يترك في نفسه أي أثر. والآن أقبل اللورد هنري وتون ورنم أمامه ترنيمه الشباب وحذَّره من الزمن الغدَّار الذي ينسخ

الشباب، فاهتز فؤاده لكلماته. وفيما كان دوريان جراي يتأمَّل نضارته التي تملأ اللوحة، فهم مغزى تلك الكلمات، واقتنع بأنها تعبِّر عن الواقع الملموس. فلسوف يأتي يوم يتشقَّق فيه وجهه وتنطفئ عيناه ويغدو قدّه المياس عودًا يابسًا ويهرب القرمز من شفتيه والذهب من شعره الجميل، وتمسخ الحياة جسده وقد كان خليقًا بها أن تجدد روحه. أجل. لسوف يصير إلى مخلوق شائه كريه.

وحين خطر له هذا الخاطر أحس بالألم يمزِّق أوصاله كأنه طعن المدى وارتجف كل عصب في بنيانه وازرقت مقتلتاه وترقرقت فيهما الدموع وخيل إليه أن يدًا من جليد تمس قلبه الدافىء. أما الرسَّام فلم يفهم لهذا الصمت معنى، وأنَّى له أن يعرف ما كان يدور برأس الفتى من هواجس، فقال حزينًا:

ـ ألا تعجبك الصورة؟

فقال اللورد هنري:

ـ وكيف لا تعجبه؟ بل كيف لا تعجب العالم كله؟ إنها آية من أفخم آيات هذا الجيل يا بازيل، ولا بد أن أشتريها. اطلب أي ثمن يروقك فهو لك.

ـ إنها ليست ملكًا لي يا هاري؟

ـ من صاحبها إذًا؟

ـ دوريان جراي بطبيعة الحال.

ـ يا له من فتى مجدود.

فقال دوريان جراي وعيناه لا تنصرفان عن الصورة:

ـ بل إني لفتىً تاعس! نعم. إني فتى تاعس! سوف يتقدَّم بي العمر وأصبح مخلوقًا بشعًا تنفر منه العيون. أما هذه الصورة فستظل أبدًا ناضرة الشباب، ولن يزيد عمرها عن هذا اليوم من شهر يونيو. ليت الأمر كان بعكس ذلك! ليت الصوزة تكبر وأخلد أنا في شبابي! إني لأنزل عن أعز

ما أملك لتتم هذه الصفقة، وليس في العالم كله ما أظنّ به ليتحقق لي هذا الحلم. هذه روحي أنزل عنها مختارًا ليكون لي ما أريد.

ضحك اللورد هنري وقال عابثًا:

ـ لا أحسب هذه الصفقة في مصلحتك يا بازيل، فالخطوط التي يرسمها الزمن ستفسد ولا شك عملك الجميل.

فأجاب هولوورد:

ـ طبعًا أنا أمانع في ذلك بكل ما أملك من قوة.

عندئذ التفت دوريان جراي إليه وقال متفرّسًا فيه:

ـ هذا لا يدهشني منك يا بازيل، فأنت تقدم فنك على أصدقائك، وما مقامي عندك إلا مقام تمثال من البرونز، بل لعل تمثال البرونز أثمن مني عندك.

حملق الرسَّام فيه من فرط دهشته، فما كان ينتظر منه أن يقول هذا الكلام. إن دوريان جراي الذي يعرفه لا يفكر على هذا النسق. أفهذا جزاؤه منه؟ ترى ماذا حدث له؟ وصعد الدم إلى وجه بازيل هولوورد واستولى عليه غضب شديد فالتهب خداه. ولكن دوريان مضى في حديثه قائلًا:

ـ نعم. إن موقعي عندك لأبخس من موقع هرمز العاجي هذا أو هذه الغزالة الفضية التي تحرص عليها حرصك على الحياة، وحبك لهما لن يبلى على مَرّ الزمن، فكم يدوم حبك لي؟ سيدوم حبك لي ما دامت لي نضرتي، وحين تظهر في وجهي أول بادرة من بوادر الهرم سأخرج من قلبك جملة. لقد أدركت الآن أن الإنسان يفقد كل شيء يوم يفقد جماله، مهما كان حظه من الجمال. صورتك علَّمتني ذلك يا بازيل، ولقد أصاب اللورد هنري في كل ما قال، فالشباب هو كل ما يستحق أن نتمناه لأنفسنا في هذه الحياة، ولسوف أقتل نفسي حين أعرف أن شبابي قد ذهب.

عندما سمع هولوورد هذا الكلام شحب لونه وأمسك بيد دوريان

جراي وصاح به:

ـ ماذا دهاك يا دوريان! ما كنت أرجو فيك أن تقول مثل هذا الكلام، فما أخلصت لأحد إخلاصي لك ولن أخلص. أأصبحت تغار من الجمادات يادوريان؟ دع عنك هذه الأوهام، فأنت أصفى معدنًا من كل هذه الأشياء!

ـ إني أغار من كل شيء جماله لا يموت، أغار من الصورة التي نقلتها عني. فكيف يبقى لها جمالها وأفقد أنا جمالي مُرغماً؟ إن كل لحظه تمضي تقتطع مني شيئًا وتضيف إليها شيئًا، فليت الأمر كان على عكس ذلك. واها لي! ليت الصورة تتغير وأبقى أنا على حالي. ماذا دفعك إلى رسمها؟ إنها ستسخر مني حين يأتي الأوان.

وفاضت عيناه بالدموع ونزع يده من يد هولوورد وألقى بنفسه على الأريكة ودفن وجهه في وسائدها كأنه يتلو الصلوات. فقال الرسَّام في مرارة:

ـ أنت المسؤول عن هذا يا هاري.

ـ بل هذا دوريان جراي الحقيقي.

ـ ليس هذا صحيحًا.

ـ علام تلومني إذا؟

قال الرسَّام بصوت متقطِّع:

ـ كان خليقًا بك أن تتركنا حين سألتك أن تنصرف يا هاري.

فأجابه اللورد هنري قائلًا:

ـ ولكنك سألتني أن أبقى.

ـ إسمع يا هاري. أنت ودوريـان أعز أصدقائي، ولن أستطيع أن أخاصمكما معًا في وقت واحد. لقد جعلتماني أبغض أجمل شيء أنتجته في حياتي، ولذا سأحطم هذه الصورة. إن هي إلا خيش وألوان ولن أدعها تدخل بيننا فتفسد حياتنا.

فلما سمع دوريان جراي هذا الكلام رفع رأسه الذهبي عن الوسادة

ونظر إليه شاحب الخد دامع العين فرآه يسير نحو النافذة ذات الأستار العالية حيث المائدة التي يجمع فيها أدواته. ماذا عساه يفعل؟ إنه يبحث عن شيء، فأصابعه تتحسَّس شيئًا بين الأنابيب الفارغة والفراشي الجافة. إنه يبحث عن المدية الفولاذية الحادة التي يستخدمها في مزج الألوان، ولقد وجدها. وها هو يهم بتمزيق الصورة.

وثب دوريان جراي من الأريكة وقد اختنقت في صدره زفراته وهجم على هولوورد وانتزع المدية من يده وقذف بها إلى طرف الاستديو صائحًا:

ـ كلا. كلا يا بازيل! هذا والقتل سواء!

قال الرسَّام ببرود بعد أن أفاق من دهشته:

ـ أشكرك يا دوريان على هذا التقدير، وإن جاء متأخرًا. ما كنت أظنك ستقدِّر الصورة.

ـ لا تتحدَّث عن التقدير يا بازيل بل تحدَّث عن التقديس فأنا أعبدها عبادة لأنها قطعة من نفسي. وهذا هو إحساسي الصادق.

ـ إذا كان الأمر كذلك فسأتركك حتى تجف أولًا، ثم أضع عليك الورنيش لتلمع، ثم أحبسك في إطار، ثم أرسلك أخيرًا إلى بيتك. وحين تصل إلى بيتك تستطيع أن تفعل بنفسك ما تشاء.

وبعد أن فرغ من كلامه مشى إلى الجانب الآخر من الغرفة ودق الجرس وقال:

ـ أتحب أن تتناول قليلًا من الشاي يا دوريان؟ وأنت يا هاري، هل لك في فنجان من الشاي، أم تراك تحتقر هذه المتع البسيطة؟

فأجاب اللورد هنري قائلًا:

ـ وكيف أحتقر المتع البسيطة يا بازيل وهي عزاؤنا الباقي كلما مللنا المتع الكبيرة! ولكن كفى مشاحنة، فأنا لا أحب أن أرى المناظر المؤثرة إلا على المسرح، ولم أرَ أسخف منكما إنسانًا. ما أبعدكما عن العقل،

فأي أحمق هذا الذي وصف الإنسان بأنه حيوان عاقل؟ إن هذا التعريف سابق لأوانه كثيرًا، فالإنسان قد يكون متعدد الملكات ولكن العقل ليس من مَلَكاته، وهذا ما يحببني فيه. إن احتدادكما بشأن الصورة قد ساءني، ومن الخير يا بازيل أن أحتفظ أنا بالصورة فهذا الولد الطائش ليس بحاجة حقيقية إليها.

فصاح دوريان جراي قائلًا:

ـ إسمع يا بازيل، لو أعطيتها لأحد سواي فلن أغفر لك ذلك، ثم إني لا أسمح لأحد بأن يصفني بأني ولد طائش.

ـ أنت تعلم يا دوريان أن الصورة ملك لك، أهديتك إياها قبل أن تخرج إلى الوجود.

ـ وأنت تعلم يا مستر جراي أن سلوكك لم يخلُ من الطيش وعهدي بك أنك لا تغضب إذا ذكَّرك أحد بحداثة سنك.

ـ لقد كان يجب أن أغضب هذا الصباح يا لورد هنري.

ـ آه من هذا الصباح! لقد فات هذا الصباح وانطوى من عمرك بعضه.

وطرق الخادم الباب مستأذنًا في الدخول ثم دخل حاملًا صينية عليها أطيب المأكولات ووضعها على مائدة صغيرة بها نقوش يابانية، وارتفع صوت الأطباق والفناجين، والماء المغلي يتصاعد بخاره المكتوم من الإناء القديم الذي يحتويه فيصفر صفيرًا مسموعًا. ودخل خادم آخر بالصحون الصينية، وتقدم دوريان جراي ليصب الشاي في الفناجين على حين سار الرجلان في تثاقل صوب المائدة وكشفا أغطية الأواني ليريا ما خُبئ تحتها من ألوان الطعام. وأخيرًا قال اللورد هنري:

ـ أقترح أن نذهب الليلة إلى مسرح وأعتقد أننا سنجد مسرحًا مفتوحًا لقد وعدت أن أتعشَّى هذا المساء في مطعم هوايت ولكني أستطيع أن أتغاضى عن هذا الموعد، فهو موعد مع صديق قديم لا أكثر، وسأرسل له برقية أعتذر فيها بأن صحتي منحرفة أو أقول فيها إني أرتبط بموعد آخر،

وهذا أفضل، لأنه سيجد في صراحتي مفاجأة لطيفة تنسيه الإساءة.

وقال هولوورد:

ـ أنا أمقت ملابس السهرة، فارتداؤها يضايقني ومنظرها لا يطاق.

أجاب اللورد هنري:

ـ هذا صحيح. إن ملابس السهرة في القرن التاسع عشر فظيعة، فلونها قاتم مقبض، ولم يبق لنا من الألوان الجذابة في الحياة الحديثة إلا لون الرذيلة.

ـ يحسن ألا تذكر هذه الأمور على مسمع من دوريان جراي.

ـ أي دوريان تقصد؟ دوريان الذي يصب الشاي لنا الآن. أم دوريان الذي نراه في الصورة؟

ـ كليهما.

قال الفتى:

ـ أود أن أصحبك إلى المسرح يا لورد هنري.

ـ فلنذهب معًا إذًا. وأنت يا بازيل، هلا أتيت معنا؟

ـ كلا، فعملي يمنعني.

ـ فلنذهب بمفردنا إذًا، أنت وأنا يا مستر جراي.

ـ ذلك يسرني جدًا.

عض الرسَّام شفته وسار نحو الصورة حاملًا فنجانه في يده وقال في أسى:

ـ أما أنا فسأبقى مع دوريان الحقيقي.

تقدَّم الفتى صوبه وقال:

ـ أهذا الذي نراه في الصورة دوريان الحقيقي؟ أهذه صورة صادقة مني؟

ـ نعم، هذه صورة صادقة منك.

ـ ما أجملها صورة يا بازيل!

فتنهد هولوورد وقال:

ـ أنت تشبهها في المظهر على الأقل، ولقد تتغير أنت ولكنها لن تتغير، وفي هذا بعض العزاء.

قال اللورد هنري:

ـ ما هذا اللغو الكثير الذي يردِّده الناس عن الوفاء! إن الحب نفسه مسألة فسيولوچية ولا دخل للإرادة فيها. أرى الشبان يحاولون الوفاء فيعجزون عنه، وأرى الشيوخ يحاولون الخيانة فيعجزون عنها. هذا كل ما نستطيع أن نقوله في الموضوع.

قال هولوورد:

ـ لا تذهب إلى المسرح الليلة يا دوريان، بل ابقَ معي للعشاء.

ـ لا أستطيع.

ـ لماذا؟

ـ لأني وعدت اللورد هنري أن أرافقه.

ـ ولكن اللورد هنري لن يقدِّر فيك الوفاء بوعودك، فهو يخلف وعوده باستمرار. أرجوك أن تبقى معي.

فضحك دوريان جراي وهز رأسه دلالة الرفض.

ـ أضرع إليك أن تبقى معي.

تردَّد الفتي قليلًا ونظر إلى اللورد هنري فألفاه واقفًا بجوار مائدة الشاي يتأملها وهو يبتسم. وأخيرًا قال:

ـ لا بد أن أذهب يا بازيل.

فأجاب هولوورد وهو يضع فنجان الشاي على الصينية:

-إذا كان الأمر كذلك وجب أن تسرع فالوقت متأخر ولا بد أن تستبدل ملابسك. إلى اللقاء يا هاري. إلى اللقاء يا دوريان، ولا تغب طويلًا. تعال غدًا.

ـ بالتأكيد.

ـ أرجوك ألا تنسى.

ـ لن أنسى بالطبع.
ـ إسمع يا هاري!
ـ نعم يا بازيل؟
ـ تذكر رجائي إليك حين كنا في الحديقة هذا الصباح.
ـ أي رجاء هذا؟ لقد نسيت.
ـ أنا أثق فيك.
ـ ولكني لا أثق في نفسي. هيا بنا يا مستر جراي فعربتي تنتظر في الخارج وفي إمكاني أن أصل بك إلى بيتك. إلى اللقاء يا بازيل. لقد كان يومنا حافلًا.

ولما أقفل الباب دونهما ارتمى الرسَّام على إحدى الأرائك وتملَّكه حزن شديد.

الفصل الثالث

خرج اللورد هنري وتون من منزله في شارع كيرزون في الساعة الثانية عشرة والنصف من ظهر اليوم التالي وسار إلى نادي أولباني ليزور عمه اللورد فيرمور، وهو شيخ أعزب، طيب القلب، خشن المعاملة، تناقضت في وصفه الآراء، فمن يجهلونه يصفونه بالخسة والأنانية لأنهم لا يستفيدون منه شيئًا. أما عارفوه من أبناء البيوتات فيصفونه بالسخاء لأنه يُطعم كل الذين يسلّونه. وقد كان أبوه سفيرنا في مدريد حين كانت إيزابيلا صغيرة وپريم لم يولد بعد، ولكنه استقال من السلك السياسي في لحظة من لحظات الضيق لأن وزارة الخارجية ضنَّت عليه بسفارة باريس، وهو منصب كان يعده حقًا من حقوقه الطبيعية، يؤهله له طيب منبته، وكسله، وجمال أسلوبه في الخطابات الرسمية، ونهمه الشديد لأطايب الحياة. أما الابن فقد كان يومئذ سكرتيرًا لأبيه واستقال باستقالة رئيسه مما عده الناس حماقة في في التصرف. فلما أن ورث اللقب بعد بضعة شهور وأصبح اللورد فيرمور، خصَّص كل ملكاته لدراسة فن الأرستقراطية العظيم، فن البطالة. وكان يملك منزلين فسيحين ولكنه آثر أن يستأجر شقة في لندن ليتجنب عناء الإشراف على منزل فسيح، وتعود أن يتناول وجباته في ناديه. وقد وجَّه اللورد فيرمور بعض التفاتة إلى إدارة مناجم الفحم التي يملكها في الميدلاندز وكان يعتذر عن اشتغاله بالصناعة،

وهو أمر مبتذل لا يُغتفر في جنتلمان، قائلًا إن للفحم مزية واحدة لا غناء عنها في أي مجتمع سليم، هي أنه يُمَكِّن الجنتلمان من استخدام الخشب في مدفأته، وهو ترف لا تعرفه السوقة مستهلكة الفحم. وكان في السياسة محافظًا حتى يصل المحافظون إلى الحكم فيخرج عليهم متهمًا إياهم بأنهم عصبة من المجدِّدين. أما عن أخلاقه الشخصية فقد كان بطلًا في نظر خادمه الخاص لأن خادمه كان يتجبر عليه، وكان كابوسًا في نظر أفراد أسرته لأنه كان بدوره يتجبر عليهم. وكان يقول في كل مناسبة إن البلاد تنحدر إلى الحضيض. أما مبادئه الرجعية فقد كانت بالية وأما حقده الموروث على كل جديد فلم يعدم من يدافع عنه.

ودخل اللورد هنري الغرفة فوجد عمه جالسًا يدخن سيجارًا ويطالع صحيفة التايمز متذمرًا. قال السيد العجوز:

ـ ماذا جاء بك يا هاري في هذا الوقت المبكر. لقد كنت أحسب أن أمثالك من الوجهاء لا يستيقظون قبل الساعة الثانية ولا يقابلون الناس قبل الساعة الخامسة.

ـ أؤكد لك يا عمي أن شوقي إليك هو الذي دفعني إلى المجيء. لقد جئت لأطلب منك شيئًا.

فقال اللورد فيرمور عابسًا:

ـ أظنك جئت تطلب مالًا. إجلس وارو لي القصة من أولها إلى آخرها. إن شباب هذا الجيل يرون أن المال هو كل شيء في الحياة.

قال اللورد وهو يصلح من عروته:

ـ هذا صحيح. وحين يتقدَّم بنا العمر ندرك صحة ذلك. ولكني ما جئت لأطلب منك مالًا، فما يطلب المال إلا شخص يسدِّد ديونه، وأنا لا أسدِّد ديوني مطلقًا. فالاستدانة رأس مال الابن الأصغر، والحياة جميلة برأسمال كهذا. ثم إني أتعامل مع تجار دارتمور ولهذا أسلم من المضايقة. إنما جئت لأطلب معلومات، أقصد معلومات تافهة لا

معلومات نافعة بطبيعة الحال.

ـ في استطاعتي أن أخبرك بكل ما ورد في الدليل العام يا هاري، وإن كان الدليل العام مشحونًا بالأكاذيب في هذه الأيام. لقد كانت الأمور خيرًا مما هي الآن حين كنت في السلك. ولكن بلغني أخيرًا أنهم يعقدون امتحانًا لطالبي الالتحاق في هذه الأيام، وهذا خطأ يا سيد. فالامتحانات من أولها إلى آخرها كذبة كبيرة، والچنتلمان يعرف ما فيه الكفاية، وإن لم يكن كذلك فكل ما يعرفه يضرّه.

فقال اللورد هنري في تراخٍ:

ـ جئت أسألك عن مستر دوريان جراي وهو لم يرد في الدليل العام يا عمي.

فقال اللورد فيرمور وهو يعقد حاجبيه الكثيفين:

ـ ومن يكون مستر دوريان جراي هذا؟

ـ هذا ما جئت أسألك عنه يا عمي. أنا أعرف من يكون، فهو حفيد آخر للورد كلسو وأمه سليلة ديڤيرو. أمه هي الليدي مرجريت ديڤيرو، وقد جئتك لأعرف شيئًا عنها، فحدثني عنها وعن زوجها. أنت عرفت أكثر أبناء جيلك، فلعلك عرفتها في من عرفت. وقد قابلت مستر دوريان جراي في الأيام الأخيرة فأثار اهتمامي.

قال اللورد فيرمور مسترجعًا الماضي البعيد:

ـ حفيد كلسو! حفيد كلسو! دعني أتذكَّر. حقًا ما أغباني! نعم، كنت أعرف أمه معرفة جيدة بطبيعة الحال، وأعتقد أني حضرت الاحتفال بتعميدها. لقد كانت مرجريت ديڤيرو آية من آيات الجمال، وأثارت غيرة الرجال حين فرَّت مع شاب مفلس لا يساوي شيئًا. نعم، يا سيدي، فرَّت مع جندي في فرقة المشاة أو ما يشبه ذلك. وأنا أذكر القصة كلها كأنها حدثت البارحة. نعم، أذكر كيف قُتل ذلك الشاب المسكين بعد زواجه ببضعة شهور في مبارزة مدَبَّرة. وقد سمعنا يومئذ بإشاعة مخزية تقول

إن كلسو قد كرى سفاحًا بلجيكيًا ليهين زوج ابنته أمام الناس. نعم، يا سيدي: كراه بالمال ليقتله فأجهز عليه كما تجهز على حمامة وديعة، وأُخفيت الحقيقة عن الناس. ولكن أقسم لك أن أصدقاء كلسو قاطعوه زمنًا طويلًا نتيجة لذلك الحادث. وقد بلغني أنه رد ابنته إلى كنفه ولكنها رفضت أن تبادله الحديث حتى ماتت، وقد ماتت بعد شهور قليلة. نعم، يا سيدي، لقد كانت قصة محزنة، ولم أكن أعرف أنها ماتت عن ولد فقد نسيت الآن هذه التفاصيل. ما حال هذا الغلام؟ إن كان قد ورث صورة أمه فلا بد أن يكون فتى وسيمًا.

فقال اللورد هنري مؤمنًا على كلامه:

ـ إنه آية من آيات الجمال.

واستأنف السيد العجوز كلامه قائلًا:

ـ أرجو أن يجد هذا الفتى من يعتني به، وإذا كان كلسو قد أحسن التصرف في ماله فسيجد هذا الغلام شيئًا كثيرًا في انتظاره. كذلك كانت أمه من أهل الثراء، فقد ورثت كل أملاك جدها في سلبي. وكان جدها يمقت كلسو ويحتقره لأنه كان كلبًا قذرًا. أذكر أنه هبط إلى مدريد حين كنت بها فكان مصدر خجل دائم لي. وقد سألتني الملكة مرارًا عن ذلك النبيل الإنجليزي الذي كان في شجار مستمر مع الحوذية بسبب أجورهم. وكانت فضيحة الموسم، فلم أجرؤ على الظهور في البلاط شهرًا كاملًا. أرجو أن يكون قد عامل حفيده خيرًا مما كان يعامل الحوذية.

فأجاب اللورد هنري:

ـ لا أعرف عن هذا الموضوع شيئًا. ولكني أظن أنه سيصبح من أهل الثراء حين يبلغ سن الرشد، وإن كنت أعلم أن سلبي تقع في أملاكه لأنه ذكر لي ذلك بنفسه. أكانت أمه جميلة حقًا؟

ـ نعم: لقد كانت مرجريت ديڤيرو تحفة في الجمال يا هاري، ولم أفهم قط ما الذي دفعها إلى ذلك المسلك الشاذ، فقد كان في وسعها أن تتزوج

من تشاء من الرجال. فكارلنجتون مثلًا كان مجنونًا بحبها ولكنها كانت فتاة تميل إلى الخيال شأن سائر نساء أسرتها، ويا لهنّ من نساء رائعات! أما رجال الأسرة فقد كانوا طغمة من الأوباش. يا لهن من نساء رائعات. لقد جثا كارلنجتون أمامها مرة كما أخبرني بنفسه. فضحكت منه. أقول حدث هذا وقت أن كانت جميع بنات لندن تطاردنه. وبمناسبة الكلام عن الزواج الشاذ يا هاري، ما هذا اللغط الذي أسمعه عن رغبة دارتمور في أن يتزوج بأمريكية. ألا يجد في إنجلترا كلها فتاة واحدة تصلح له؟

- إن الزواج بأمريكيات هو آخر تطور في الذوق الإنجليزي يا عمي.

فضرب اللورد فيرمور المائدة بقبضة يده وصاح:

- أنا أراهن بكل ثروتي على الفتاة الإنجليزية.

- لكن الناس يراهنون الآن على الأمريكيات.

فأجاب عمه:

- لقد بلغني أنهن متقلبات.

- أعتقد أن الخطوبة الطويلة تجهدهن، ولكنهن يجلّين في سباق الحواجز، فمفتاح قلوبهن السرعة، ولا أعتقد أن دارتمور سيصادف نجاحًا كبيرًا.

قال السيد العجوز ساخطًا:

- بنت من تكون هذه الفتاة؟ ما أسرتها؟ ألها أسرة؟

فأجاب اللورد هنري وهو يتأهَّب للانصراف:

- إن الأمريكيات يُجدن إخفاء نسبهن كما تجيد الإنجليزيات إخفاء ماضيهن.

- أغلب الظن أن أهلها يشتغلون بصنع الچامبون.

- من مصلحة دارتمور أن يكونوا كذلك، فقد قيل لي إن مهنة صنع الچامبون أربح مهنة في أمريكا بعد السياسة.

- أجميلة هي؟

ـ إنها تسلك سلوك فتاة جميلة كما تفعل أكثر الأمريكيات، وهذا سر فتنتهن.
ـ إذا كانت أمريكا حقًا جنة النساء كما نسمع دائمًا من الأمريكيات فلماذا يخرجن من هذه الجنة.

فقال اللورد هنري:

ـ ولكن أمريكا جنة النساء فعلًا، وهذا بالذات ما يحملهن على الهرب منها كما هربت أمهن حواء من جنتها. والآن لا بد لي من الانصراف وإلا وصلت متأخرًا للغداء فوداعًا يا عماه، وشكرًا على ما زوّدتني به من معلومات، فأنا أحب أن أعرف كل شيء عن أصحابي الجدد وأحب أن أجهل كل شيء عن أصحابي القدماء.

ـ وأين تتناول غداءك اليوم يا هاري؟

ـ عند عمتي أجاثا. فقد دعوت نفسي ومستر جراي إلى مائدتها، فمستر جراي آخر اكتشاف اكتشفته عمتي.

ـ إذًا فأرجوك أن تبلغ عمتك أن تعفيني من نداءات البر التي توجهها إليّ فقد ضاق بها صدري. إن هذه السيدة المباركة تخال أن عملي في الحياة هو كتابة الشيكات لأعمالها الخيرية.

ـ سأبلغها ذلك ياعمي وإن كنت أعرف أن كلامي لن يثمر، فأهل البر يفقدون كل شعور إنساني.

وصدرت من السيد العجوز أصوات غير واضحة معناها أنه يوافق اللورد هنري في الرأي. ودق الجرس ليستدعي خادمه، أما اللورد هنري فسار مخترقًا ممرًا سقفه مقبّب حتى بلغ شارع برلنجتون ثم سار في اتجاه ميدان باركلي.

هذه إذًا قصة دوريان جراي. إن اللورد فيرمور قد رواها له في غير تنسيق، ولكن أي قلب لا يضطرب لهذه الفاجعة العنيفة، وأي خيال لا يتحرك أمام هذه القصة الغريبة! لقد كان يحسب أن عصر الخيال قد مات،

ولكنه أدرك أن الخيال لا يزال حيًا، حتى في القرن التاسع عشر. فيالها من مأساة مروعة. هذه امرأة جميلة تغامر بكل شيء لترضي شهوة جامحة. ويا لها من أسابيع مشهودة تفيض بالسعادة وتنتهي بجريمة وحشية. ويالها من شهور طوال من العذاب الصامت تنتهي بميلاد طفل شقي بين الأحزان. هذه أم تموت في ريعان العمر فتترك وليدها في كنف رجل مسن منزو لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلًا ليسومه مُرّ العذاب. لقد كان لدوريان جراي ماض غير مألوف، ماض خليق به، فلا بد لهذا الجمال الفذ من قصة فذة تمهّد له، والجمال لا ينبت إلا في بيت الأحزان. إن الطبيعة عرفت آلام المخاض حين تفتحت فيها أول زهرة، فكيف بدوريان جراي ذي الجمال القهار! لقد جلس أمامه في الليلة السالفة يتناول معه العشاء في النادي، وكان فاغرًا فاه محملقًا عاجبًا، يغمره مزيج من الخوف والطرب، وسقط عليه من الشموع نور أحمر ضرّج خده الوردي بورد جديد، فبدا كإله فاتن مشدوه. لقد كان الحديث معه أشبه شيء بالعزف على كمان حنون، لأن أوتار قلبه كانت تهتز لكل كلمة تُقال. ما أشبه الخضوع لأفكار الغير بالعبودية، وما أشبه إخضاع الغير لأفكارنا بالاستعباد. إن التأثير في الغير يُكسب الإنسان إحساسًا بالقوة لا نظير له في الحياة. فما أجمل أن تمتد الروح إلى الخارج وتسكن جسدًا آخر، ولو للحظات معدودات. وما أجمل أن يسمع المرء آراءه ترتد إليه كرجع الصدى دافئة بنَفَس الشباب حلوة بإيقاعه الحنون. وما أجمل أن يمتزج الطبع بالطبع امتزاج السائل السحري بالسائل السحري أو امتزاج العطور. إنها لذة لاتعْدِلها لذَّة، ولعلها كل ما بقي لنا من مباهج الحياة في هذا العصر السوقي المحدود، هذا العصر الغليظ الذوق الرخيص الأهداف الساعي وراء أفراح الجسد وحدها. ولقد كان هذا الفتى الذي عرفه مصادفة في استديو بازيل هولوورد نموذجًا رفيعاً لشباب الجيل، ولو لم يكن لأمكن أن يصاغ منه نموذج رفيع لشباب الجيل على أية حال. فالفتنة ملك يديه وطهارة الصبا

والجمال الذي اقتبس منه رخام الأولين. إن دوريان جراي طينة لدنة في يد من يصوغها. ولقد يكون منه مارد شاهق أو دمية يلعب بها الأطفال، فواهاً لهذا الجمال يوم يزول. ثم إن هناك بازيل، وبازيل في ذاته دراسة نفسية ممتعة! لقد كان بازيل صاحب أسلوب في الفن جديد، وصاحب نظرة إلى الحياة جديدة، وتلك النظرة استوحاها من إنسان ملهم لا يدري أنه ملهم. ولقد كانت روحه فيما مضى روحًا صادقة نافرة تسكن الدغل المظلم وتمشي خفية بين الحقول، وها هي الآن تتجلى فجأة في وضح الضحى كأنها حورية من حور الغاب لا تجزع من شيء لأنها صحت على رؤيا عالم عجيب، عالم فيه كل شيء صافٍ وكل شيء يرمز لفكرة مثالية لا تتحقَّق إلا به. وما أعجب هذه الرؤيا! أو لم يصف لنا أفلاطون، فنان الفكر، هذه الرؤيا في القديم؟ أو لم يجسدها لنا بوناروتي في رخام ملون متماسك كأنه قريض شاعر عظيم؟ ولكن هذا كان ممكنًا في الماضي، أما في هذا العصر فهو المعجزة الكبرى. فليكن اللورد هنري لدوريان جراي إذًا ما كانه دوريان جراي لبازيل هولوورد، وليسيطر على نفسه سيطرته على نفس الفنان. ولقد أصاب في ذلك بعض النجاح ولسوف يتملك ذلك الروح البهي في قبضته كما يتملك الساحر الجان في قبضته. إنه ابن الحب والموت وهو نسب في طرفيه عظيم.

ثم توقَّف اللورد هنري فجأة عن المسير وأنشأ يتأمَّل المساكن فأدرك أنه قد تجاوز بيت عمته كثيرًا، فابتسم لشرود ذهنه وعاد. وحين دخل القاعة الموحشة أنبأه كبير الخدم أنهم يتناولون الغداء، فسلَّم قبعته وعصاه ودخل حجرة الطعام، فلما أن رأته عمته صاحت به وهي تهز رأسها مؤنبة:

ـ أراك قد جئت متأخرًا كعادتك.

فأسعفه خياله لعذر من الأعذار المألوفة، ثم احتل مكانه في المائدة إلى جوارها وأجال في المدعوين بصره فرأى دوريان في طرف المائدة

وشاهده ينحني في خجل محييًا إياه وقد بدا عليه السرور لمرآه. وكانت دوقة هارلي تجلس قبالته وهي سيدة محبوبة طيبة القلب حلوة الشمائل ولكنها كانت قطعة فخمة من العمارة الرازحة التي يراها مؤرخو هذا العصر في الدوقات فيسمونها صحة وعافية ويرونها في النساء العاديات فيسمونها بدانة واستكراشًا. وعن يمينها جلس السير توماس بيردون وهو عضو من أعضاء البرلمان راديكالي المذهب يتبع رئيس حزبه في الحياة العامة ويتبع أمهر الطهاة في الحياة الخاصة فتراه يأكل على موائد المحافظين ويشارك الأحرار نظرياتهم في الحياة تمشيًا مع المثل السائر المعروف. وعن يسار الدوقة جلس مستر إرسكين وهو سيد مسن من أهل تريدلي لطيف المعشر واسع الثقافة لا يعيبه إلا عادة خبيثة واحدة هي صمته المستمر، وقد اعتذر عن هذا الصمت مرة لليدي أجاثا بأنه استنفد كل ما في جعبته من الكلام قبل أن يبلغ الثلاثين. أما جارة اللورد هنري ذاته فكانت مسز ڤاندلور وهي صديقة من أقدم صديقات عمته أجاثا لها صفات ا لقديسات ولكنها زرية الهيئة تذكرك بكتاب من كتب التراتيل مهلهل الغلاف. وإلى جوار مسز ڤاندلور جلس اللورد فوديل وهو كهل فاشل في عمله رغم ذكائه المتقد، يذكرك رأسه الأصلع ببيان وزاري في مجلس العموم، خلا من كل تنميق. وكانت جارته تتحدث إليه في جد وحماسة وهي غلطة لا تغتفر يتورَّط فيها ذوو النوايا الطيبة ولا ينجو منها أحدهم مهما اجتهد.

قالت الدوقة وهي تحيي اللورد هنري بإشارة من رأسها:

ـ نحن نتحدَّث عن دارتمور المسكين يا لورد هنري، فهل تعتقد أنه سيتزوج من تلك الأمريكية الساحرة كما يُقال؟

ـ أنا يا سيدتي الدوقة أعتقد أنها عازمة على أن تخطبه.

فصاحت الليدي أجاثا:

ـ هذه نكبة؛ أليس هناك من يتدخل؟

قال السير توماس بيردون في صلف واضح:

ـ لقد بلغني من مصدر عليم أن أباها يملك متجرًا للبضائع الجافة.

ـ من رأي عمي أنه يتاجر في لحم الخنازير المحفوظ.

فسألت الدوقة رافعة يديها الكبيرتين في تعب:

ـ وماذا تكون هذه البضائع الجافة؟ نعم، ماذا تكون؟

فأجاب اللورد هنري وهو يتناول سمانة:

ـ البضائع الجافة هي القصص الأمريكية.

فبدت الحيرة على وجه الدوقة لأنها لم تفهم معنى النكتة. وهمست الليدي أجاثا في أذنها قائلة:

ـ لا تلقي بالًا يا صديقتي لما يقوله اللورد هنري فحديثه هزل متصل.

وقال عضو البرلمان الراديكالي:

ـ لمَّا استكشفت أمريكا...

واسترسل في سرد بعض التفاصيل المملة وأراد أن يستنفد الموضوع فاستنفد صبر سامعيه. وتنهَّدت الدوقة وباشرت حقها في المقاطعة فقالت:

ـ ليت أمريكا لم تُستكشف قط، فالأمريكيات لا زلن يزاحمن بناتنا في سوق الزواج حتى كسدت بضاعتهن، وهذا ليس من الإنصاف في شيء.

قال مستر إرسكين:

ـ ومن يدرينا أنها استكشفت؟ فأنا مثلًا أعتقد أننا لا نعرف عن أمريكا إلا أنها قارة موجودة.

فأجابت الدوقة قائلة:

ـ هذا غير صحيح، فقد رأيت نماذج من سكانها بنفسي، ولا بد أن أعترف بأنهن رائعات الجمال صاحبات أناقة يشترين كل ملابسهن من باريس، وكم تمنيت أن يكون لي المال الذي يعود عليَّ بكل هذا الترف.

كانت عند السير توماس تشكيلة كبيرة من الفكاهات القديمة فقذف

الحاضرين بواحدة منها. قال:

ـ يقولون إن أبرار الأمريكيين يذهبون إلى باريس بعد موتهم.

فسألته الدوقة قائلة:

ـ عجبًا! أين يذهب إذًا أشرار الأمريكيين.

قال اللورد هنري في صوت خافت:

ـ يذهبون إلى أمريكا.

فعبس السير توماس بيردون وقال لليدي أجاثا:

ـ أرى أن ابن أخيك يا سيدتي متحامل على هذا البلد العظيم. لقد زرت أمريكا بلدًا بلدًا في سيارات أعدها لي مديرو الشركات، فهم قوم يعرفون كيف تكون المجاملة. وأؤكد لك يا سيدتي أن في زيارة أمريكا ثقافة للزائرين.

فاعترض مستر إرسكين على ذلك بقوله:

ـ وهل من الضروري أن أرى شيكاغو لتتم ثقافتي؟ يا لها من رحلة مضنية.

قال السير توماس مشيرًا بيده:

ـ إن مستر إرسكين قد جمع العالم على رفوف مكتبته، أما أمثالنا من الرجال العمليين فنحن نفضِّل أن نرى الدنيا لا أن نقرأ عنها. وأعتقد أن الأمريكيين شعب جدير باهتمامنا، فهم أهل تفكير مستقيم، بل إن التفكير المستقيم أول صفاتهم. نعم، يا مستر إرسكين، إن الأمريكيين أهل منطق لا يخطئ وأؤكد لك أن الغفلة ليست من صفاتهم.

فصاح اللورد هنري قائلًا:

ـ هذه مأساة، فالقوة الصارمة يمكن احتمالها أما المنطق الصارم فلا سبيل إلى احتماله، وليس من العدل استخدامه.

قال السير توماس محتدًا:

ـ لست أفهم ما ترمي إليه يا لورد هنري.

قال مستر إرسكين مبتسمًا:

ـ أنا أفهم ما ترمي إليه يا لورد هنري.

قال السير توماس:

ـ إن التعبير عن الأشياء بنقائضها جميل في بابه ولكن..

فقاطعه مستر إرسكين قائلًا:

ـ لست أرى في ما قاله اللورد هنري تعبيرًا عن شيء بنقيضه، ولكن ربما كنت مخطئًا في فهمي. مهما يكن من شيء فالتناقض طريق الحقيقة. فإذا أردنا أن نتأكد من صدق شيء وجب أن نراه من جميع وجوهه. وجب أن نرى الحق يلعب أمامنا كالبهلوان الذي يسير على حبل مشدود.

قالت الليدي أجاثا:

ـ ويلنا منكم معشر الرجال، فكم تحبون الجدل! أقسم أني لا أفهم كلمة واحدة مما تقولون. أما أنت يا هاري فإني مستاءة منك أشد الاستياء لأنك تحاول أن تصرف مستر دوريان جراي عن الاهتمام بالفقراء، وأؤكد لك أن في امتناعه عن الاشتراك في أعمال البر خسارة لا تعوَّض، ففقراء الإيست إند سيسرُّون به إذا رفَّه عنهم بالمقطوعات الموسيقية.

فابتسم اللورد هنري ونظر إلى دوريان جراي فلقي في وجهه ما يشجعه فقال:

ـ لأني أريده أن يرفِّه عني أنا بالمقطوعات الموسيقية.

اعترضت الليدي أجاثا قائلة:

ـ ولكن الفقراء في هوايت تشاپل في شقاء لا يوصف.

فقال اللورد هنري وهو يهز كتفيه استخفافًا:

ـ إن صدري يتسع لكل شيء ولكنه يضيق بالشقاء. نعم، أنا لا أعطف على الشقاء، فالشقاء بشع، الشقاء كريه، الشقاء يكسر القلوب، وأنا أرى أن اهتمام أهل هذا الجيل بالألم نوع من المرض، فالواجب أن نهتم بألوان الحياة الزاهية، بجمالها، بأفراحها. فخير لنا أن ننسى أوجاع الحياة.

قال السير توماس وهو يهز رأسه كأنه يدلي بتصريح خطير:
- ولكن الإيست إند مشكلة رغم كل ما تقول.
فأجابه اللورد الشاب قائلًا:
- لست أشك في ذلك. إنها مشكلة العبودية ونحن نحاول حلها بتسلية العبيد.
فنظر السياسي إليه نظرة فاحصة وسأله:
- إذًا فأي تغيير تقترح إجراءه لحل هذه المشكلة؟
ضحك اللورد هنري وقال:
- أنا لا أقترح تغيير شيء في إنجلترا إلا جوَّها، ويكفيني من الإصلاح مجرد التفكير الفلسفي فيه. ولكن إذا كان القرن التاسع عشر قد استنفد كل ما يملكه من عطف على فقرائه حتى أفلس تمامًا فأنا أقترح أن نلجأ إلى العلم لعل العلم يقوِّم اعوجاجنا. إن مزية العواطف أنها تظللنا، ومزية العلم أنه خال من العواطف.
واجترأت مسز ڤاندلور على الاشتراك في المناقشة وقالت في حياء:
- ولكن مسؤولياتنا خطيرة.
وأيدتها الليدي أجاثا قائلة.
- بل جد خطيرة.
فنظر اللورد هنري إلى مستر إرسكين وقال:
- إن الإنسانية تهتم بنفسها أكثر مما ينبغي، ويبدو أن هذه هي خطيئتنا الأولى، فلو أن رجل الكهف تعلَّم كيف يضحك لتغير مجرى التاريخ.
قالت الدوقة في تنغيم مضحك:
- إن حديثك ينزل على قلبي بردًا وسلامًا يا لورد هنري، فكلما جئت لأعود عمتك عنفني ضميري لقلة اهتمامي بالإيست إند. أما وقد عرفت رأيك فلن أخجل منها بعد الآن.
فقال اللورد هنري:

ـ إن الخجل يناسب السيدات يا سيدتي الدوقة.

فأجابت:

ـ نعم، إذا كنَّ في مقتبل العمل، أما مثيلاتي من العجائز فالخجل فيهن دلالة سيئة. واها على الشباب يا لورد هنري! هلا علمتني كيف أستعيد شبابي!

ففكَّر لحظة ثم سألها:

ـ أتذكرين حماقة كبرى ارتكبتها في شبابك يا سيدتي الدوقة!

قالت:

ـ أجل. بل أذكر حماقات وحماقات.

قال في لهجة جادة:

ـ إرتكبيها إذًا من جديد، فلن يستعيد إنسان شبابه إلا إذا ارتكب حماقاته من جديد.

فصاحت الدوقة قائلة:

ـ هذه نظرية جميلة، وسأعمد إلى تطبيقها فورًا يا لورد هنري.

قال السير توماس:

ـ بل هذه نظرية خطرة!

وهزَّت الليدي أجاثا رأسها ولكن بدا عليها السرور. أما مستر إرسكين فأنشأ يستمع إلى اللورد هنري وهو يمضي في حديثه قائلًا:

ـ نعم هذا سر من أسرار الحياة الكبرى. فنحن اليوم يفتك بنا وباء نسميه التفكير السليم، وهو يدب في أعضائنا قليلًا قليلًا حتى يشلنا تمامًا فنموت، وعندما نفقد كل شيء ندرك أن أخطاءنا هي الأشياء الوحيدة التي لا نندم عليها في الحياة.

فضحك القوم.

فلما رأى أن الفكرة أعجبتهم أعطاهم المزيد منها. وطفق يلعب بها ويخرِّج منها شتى التخريجات ثم يستطرد، وما توشك أن تفلت من

يده الفكرة حتى يتلقفها من جديد. وهكذا اجتهد فيها حتى وضع عليها كل توابله. واجتهد حتى طلاها ببريق الخيال وزوَّدها بأجنحة التعبير السحري. وما أن فرغ من بيانه حتى أصبح تمجيد الحماقة بفضله فلسفة ناضجة، وأصبحت الفلسفة الناضجة بفضله عذراء بلقاء خضَّب النبيذ ثيابها وتوَّج الغار رأسها تشتاق إلى اللذة الحرام وترقص فوق تلال الحياة رقصة البنات الثمالى في أساطير اليونان وتعنف باخوس على صحوه واتزانه، ووطئت قدماها البيضاوان حان الخيَّام حكيم الزمان وخاضتا في عصر العنب الذي فاض من حولها أنهارًا، وبللت ضفائرها فقاقيع النبيذ الأرجواني حين طفح زبده الأحمر على جوانب الدِنّ السوداء وانحدر قطرة قطرة. وكان حديثه مرتجلًا لا أثر للتحضير فيه ولكنه ملك القلوب. وفيما هو يتكلم أحس بعيني دوريان جراي تحملقان فيه فذهب ذلك بجنانه وفتق ذكاءه وجعله ينمِّق ويجوِّد ويحسن التأويل لعله يوقظ وجدانه ويأسر فؤاده. وتتابعت عباراته زاهيةَ الألوان رخيمة الأنغام خطرة على السامعين. وفتن كلامه الحاضرين فنسي كل نفسه وراح يتبع هذا المزمار الطروب ويرقص على أنغامه الجذلة. كل هذا ودوريان جراي لا يحول عنه عينيه، بل ثبت في مكانه كالمسحور يبتسم الرضا على شفتيه وتحملق الأحلام في عينيه.

وأخيرًا أفاقوا على الحقيقة. وكانت الحقيقة التي قطعت عليهم هذا الجو المرح هي خادم الدوقة. دخلت الحقيقة من الباب ترتدي ثياب العصر وأعلنت أن عربة الدوقة تنتظرها ففركت الدوقة يديها تتكلف غصص اليأس وقالت:

ـ يا للنكد! لا بد أن أنصرف لألتقي بزوجي في النادي ومن ثم أصحبه إلى اجتماع سخيف في بيت واليس ليرأس الاجتماع، ولو تأخرت عنه لغضب غضبًا شديدًا، وأنا الآن في حالة لا أحتمل معها الشجار. فيجب أن أنصرف يا عزيزتي أجاثا. الوداع يا لورد هنري. إنك لرجل ساحر

ومفسد للأخلاق ولست أدري كيف أستقبل آراءك هذه. لا بد أن تأتي للعشاء معنا في أقرب فرصة، أيناسبك يوم الثلاثاء؟ ما رأيك في يوم الثلاثاء؟

فانحنى اللورد هنري بأدب جم وقال:

ـ إني لأبطل أي موعد في سبيل إرضائك يا سيدتي الدوقة.

فقالت:

ـ هذا كرم منك، ولكنه خطأ عظيم. مهما يكن من شيء فنحن في انتظارك. وخرجت الدوقة من الغرفة تتبعها الليدي أجاثا وسائر السيدات، ولمَّا استعاد اللورد هنري مكانه انتقل مستر إرسكين إلى جواره وأمسك بذراعه قائلًا:

ـ إن كلامك يملأ المجلدات يا لورد هنري، فلماذا لا تضع كتابًا.

فأجاب اللورد هنري قائلًا:

ـ إن شغفي بالقراءة يجعلني أزهد في الكتابة يا مستر إرسكين. لا شك أني أحب أن أضع قصة يومًا ما، قصة تشبه البساط العجمي في جمالها وغرابة تصميمها. ولكن الجمهور في إنجلترا لا يهتم إلا بالصحف وبالكتب المدرسية وبدوائر المعارف. إن الإنجليز أفسد أهل الأرض ذوقًا من الناحية الأدبية.

قال مستر إرسكين:

ـ أعتقد أن هذا صحيح لسوء الحظ، ولقد كانت لي أطماع أدبية منذ زمن طويل ولكني طلقتها. والآن يا صديقي الشاب، هل لي أن أسألك إذا كنت حقًا تعتقد في كل ما قلته لنا أثناء الغداء؟

فابتسم اللورد هنري وأجاب:

ـ لقد نسيت ما قلته تمامًا. أكان كلامي معيبًا حقًا؟

ـ نعم، كان معيبًا إلى حد كبير، وأنا أعدك رجلًا خطرًا على المجتمع، ولو أصاب الدوقة مكروه لحمَّلناك جميعًا تبعة ذلك. ولكني مع ذلك أتوق

إلى استطلاع آرائك في الحياة، فالجيل الذي انتمي إليه جيل مُمِلّ. وإنه ليسرني أن تزورني في تريدلي يوم تزهد في لندن. وفي تريدلي تستطيع أن تشرح لي فلسفة اللذة التي تبشر بها بين كؤوس النبيذ البورغوني النادر.

ـ ذلك يسعدني حقًا يا مستر إرسكين، ففي زيارة تريدلي شرف عظيم لي. وسوف أجد فيها مضيفًا كريمًا ومكتبة رائعة.

فانحنى مستر إرسكين بأدب وأجاب:

ـ إن مكتبتي لن تكمل إلا بك. والآن يجب أن أستأذن عمتك الفاضلة في الإنصراف، لأن عليَّ أن أكون في نادي الأثنيوم فقد حل موعد نوم الأعضاء.

ـ أتنامون جميعًا في النادي يا مستر إرسكين؟

ـ نعم. نحن أربعون عضوًا ننام في أربعين مقعدًا وثيرًا، ونحن بذلك نضع نواة أكاديمية أدبية.

ضحك اللورد هنري ونهض قائلًا:

ـ أما أنا فسأخرج للنزهة في هايد پارك.

وفيما هو خارج ضغط دوريان جراي على ذراعه وقال بصوت خافت:

ـ اسمح لي أن أرافقك.

فقال اللورد هنري:

ـ ألم تَعِدْ بازيل هولوورد بزيارته؟

ـ هذا صحيح، ولكني أفضِّل صحبتك، وشعوري يملي عليَّ أن أرافقك فاسمح لي بذلك، وعدني بأن تتحدَّث إليّ طوال الوقت فما من أحد يجيد الحديث كما تجيده أنت.

قال اللورد هنري مبتسمًا:

ـ لقد تحدَّثت اليوم بما فيه الكفاية، وكل ما أبغيه هو أن أستعرض موكب الحياة، فتعال لتستعرضه معي إذا أحببت.

الفصل الرابع

مر شهر من الزمان. وكان دوريان جراي جالسًا في استرخاء على مقعد كبير وثير بمكتبة اللورد هنري في بيته بحي مايفير. وكانت المكتبة حجرة صغيرة أنيقة على طريقتها الخاصة، تكسو جدرانها ألواح من البلوط عالية، طلاؤها أخضر. ويزدان سقفها السمني وكورنيشها السمني بنقوش من المصَّيص البارز ويغطِّي أرضها بساط من الجوخ الأحمر فوقه عدد من السجاجيد العجمية ذات الشراريب الحريرية الطويلة. وعلى مائدة صغيرة بالحجرة وقف تمثال صغير لكلوديون[1] وإلى جانب التمثال كانت هناك نسخة من كتاب «القصص المائة»[2] جلَّده كلوڤيس إيڤ في الأيام الغابرة للملكة مرجريت دي ڤالوا، وعلى الكتاب وشي من الأقاص[3] الذهبية التي اتخذتها الملكة شارة لها. وقد رُصَّت على رف المدفأة بعض الأواني الصينية الكبيرة الزرقاء. ونفذ الضوء في ذلك اليوم الصائف من النافذة فبدا لونه كلون البرتقال المنطفئ. ولم يكن اللورد

---

(1) كلود ميشيل (1738-1814) أو كلوديون: نحات فرنسي شهير.

(2) كتاب شهير، يحوي حكايات تم سردها على ألسنة رواد بلاط دوق برجاندي فيليب الطيب.

(3) gilt daisies: نوع من الزهور منتشر في أوربا، والملكة مارجريت دي ڤالوا هي ملكة فرنسا من سنة 1589 وحتى سنة 1599.

هنري قد عاد بعد إلى بيته، فقد كان من مبدئه أننا نضيّع العمر بالمواظبة، ولذا بدا على دوريان جراي شيء من العبوس وهو يقلّب صحائف نسخة من قصة «مانون ليسكو»[1] محلاة بأجمل الصور وجدها على أحد رفوف المكتبة. وكانت بالحجرة ساعة دقاقة من طراز لويس الرابع عشر ظلّت تدق دقًا منتظمًا أثار أعصابه، وخطر له مرة أو مرتين أن ينصرف، ولكنه سمع أخيرًا وقع أقدام في الخارج، وانفتح الباب فقال الفتى في صوت خافت:

ـ لقد تأخَّرت كثيرًا يا هاري!

ولكن صوتًا حادًا أجابه مصحِّحًا:

ـ إن هاري لم يصل بعدُ يا مستر جراي.

فالتفت دوريان جراي إلى الباب بسرعة، وحين أدرك خطأه بادر بالوقوف وقال:

ـ أطلب عفوك يا سيدتي، فقد حسبت...

ـ نعم، حسبت أن زوجي هو الداخل. اسمح لي أن أعرِّفك بنفسي فأنا زوجة هاري، وقد عرفتك من صورتك لأني رأيت صورًا منك كثيرة وأظن أن زوجي قد جمع سبع عشرة صورة من صورك.

ـ سبع عشرة صورة يا ليدي هنري؟

ـ هل أخطأت في العدد؟ لعله جمع ثمان عشرة. كذلك رأيتك معه ليلة أمس في دار الأوبرا.

وضحكت السيدة ضحكة عصبية ورنت إليه بعينين ناعستين وكانت الليدي هنري امرأة غريبة حقًا، فثيابها تدل على اضطراب صانعها واضطراب لابسها معًا. وكانت بلا انقطاع عاشقة بلا عشيق مما أبقى

---

(1) Manon Lescaut رواية قصيرة للمؤلف الفرنسي أنطوان فرانسوا بريفو. نُشرت سنة 1731.

على أوهامها عن الحب. ثم إنها كانت تتعمَّد الإهمال في ملبسها لتلفت الأنظار إلى جمالها فتلتفت الأنظار إلى إهمالها، وكان اسمها فكتوريا. وكانت تتردد على الكنيسة بكثرة تدل على الجنون.

- إذًا فقد رأيتني في دار الأوبرا؟ أظن أن ذلك كان ليلة «لوهنجرين» يا ليدي هنري.

- نعم، كان ذلك ليلة «لوهنجرين»، وأنا أحب ڤاجنر أكثر من أي موسيقي آخر، لأن ألحانه عالية الضجيج، وهذا يدع لي فرصة للكلام أثناءها من دون أن يسمع أحد شيئًا مما أقول، وهذه مزية كبرى. ألا توافقني على ذلك يا مستر جراي؟

وضحكت السيدة ضحكة عصبية ثانية، على حين أخذت أصابعها تعبث بنصل من النصال التي يقطع بها الورق صنع من ظهر السلحفاة، فابتسم دوريان وهز رأسه قائلًا:

- يؤسفني أن أختلف معك في هذا الموضوع يا ليدي هنري. فأنا لا أتكلَّم بتاتًا حين أسمع الموسيقى الجميلة. أما إذا كانت الموسيقى رخيصة فمن الواجب إسكاتها بالكلام.

- ولكن هذا رأي من آراء هاري يا مستر جراي، أليس كذلك؟ إن آراء هاري تصلني عن طريق أصدقائه، ولولا ذلك لما عرفت منها شيئًا. ولا تظن يا مستر جراي أني أكره الموسيقى الجميلة، فأنا أقدِّسها، بل أعبدها، ولكنها تخيفني. كذلك أقدِّس الموسيقيين بل أعبدهم، ولكن شغفت بعازفي البيانو حتى أن هاري كان ينبهني إلى أني أعشقهم أزواجًا أزواجًا في بعض الأحايين. ولست أعرف ما يحملني على حبهم، ولكن لعل منشأ حبي لهم أنهم أجانب، فعازفو البيانو جميعهم من الأجانب، أليس كذلك؟ حتى الإنجليز منهم يصبحون بعد قليل أجانب، أليس كذلك؟ وأعتقد أن هذه مهارة منهم كما أنها تحية للفن الذي يخدمونه، فهي تخرج به عن دائرة إنجلترا الضيقة وتصبغه بصبغة عالمية. أنت لم تحضر

أي حفلة من حفلاتي يا مستر جراي، ولا بد أن تشرِّفني مرة بزيارتك. وإذا حضرت حفلة من حفلاتي فلن تجد في بيتي أزهار الأوركيد، فهي غالية الثمن إلى حدٍّ لا يطاق، ولكنك ستجد فيه كثيرًا من الأجانب لأن الأجانب يزينون البيت، وأنا أدعوهم باستمرار مهما غلا ثمنهم. ها قد جاء هاري! اسمع يا هاري. لقد جئت لأستفسر عن شيء ولكني نسيت الآن ما جئت لأستفسر عنه، وقد وجدت مستر جراي هنا وتحدثنا عن الموسيقى حديثًا شهيًا، وأعتقد أن آراءنا متشابهة تمامًا. كلا. إن آراءنا ليست متشابهة تمامًا بل مختلفة تمامًا. ولكني سررت بلقياه على أية حال فقد كان مثال اللطف معي.

ـ أنا سعيد بذلك يا حبيبتي. نعم، سعيد. ولا تؤاخذني يا دوريان إذ اكنت قد تأخرت، فقد قصدت شارع واردور لأشتري قطعة من الدانتلّا الأثرية، وضاعت مني ساعات طويلة في المساومة. إن الناس في هذه الأيام لا يعرفون قيمة شيء، ويعرفون ثمن كل شيء.

ثم حل صمت ثقيل فقطعته الليدي هنري بضحكتها الصبيانية الفجائية وقالت:

ـ لا بد أن أنصرف الآن، فقد وعدت الدوقة أن أرافقها في نزهتها. إلى اللقاء يا مستر جراي، وأنت يا هاري، إلى اللقاء. أعتقد أنك ستتناول العشاء خارج المنزل، فإذا كان الأمر كذلك فقد أراك في بيت الليدي ثورنبري.

قال اللورد هنري:

ـ أرجِّح ذلك يا حبيبتي.

وخرجت الليدي هنري على عجل وتركت وراءها عطرًا خفيفًا في جو الغرفة، فبدت كعصفور من عصافير الجنة هجر عشه طول الليل وبلّله المطر. وأغلق اللورد هنري الباب وراءها ثم أشعل سيجارة وارتمى على إحدى الأرائك وقال وهو ينفخ الدخان في الهواء:

ـ أنصحك يا دوريان ألا تتزوَّج من شقراء.

ـ لماذا؟

ـ لأن النساء الشقراوات عاطفيات.

ـ ولكني أحب النساء العاطفيات.

ـ إذا فلا تتزوَّج أبدًا يا دوريان، فالرجال يتزوجون حين يقتلهم الملل، والنساء يتزوجن من باب الفضول، ولكنهم جميعًا يندمون على ذلك.

ـ لا أعتقد أني سأتزوَّج يا هنري، فأنا أحب، وحبي عاصف مدمر، ومن كان حبه عاصفًا مدمرًا لا يحق له أن يتزوَّج. هذه حكمة أخذتها عنك يا هنري، وها أنذا أطبقها تطبيقًا عمليًا كما أفعل بكل ما تقول.

وبعد صمت قليل سأله اللورد هنري قائلًا:

ـ ومن تكون هذه المحبوبة؟

فأجاب دوريان جراي في خجل:

ـ إنها ممثلة.

فهز اللورد هنري كتفيه استخفافًا وقال:

ـ هذه بداية مبتذلة، وقد كنت أحسب أنك ستأتي بجديد.

ـ لا شك أن حكمك كان يختلف لو أنك رأيتها يا هاري.

ـ وما اسمها؟

ـ سيبيل ڤين.

ـ ما سمعت هذا الاسم قط.

ـ إنها الآن نكرة من نكرات المسرح ولكنها ستصبح عَلَمًا من أعلامه يومًا ما، فهي فتاة نابغة.

ـ أنت تبالغ يا صديقي، فالنبوغ ليس من صفات النساء. إنما النساء تحفٌ تزيِّن الحياة، فأدمغتهن لا تشتمل على فكرة واحدة ولكن

حديثهن ساحر. المرأة تمثِّل انتصار المادة على العقل والرجل يمثِّل انتصار العقل على الضمير.

ـ ما أقسى أحكامك يا هنري!

ـ أنا أقدِّر ما أقول يا صديقي، فأنا أشتغل الآن بتحليل نفسية النساء وقد وجدت الموضوع أوضح مما كنت أتوقَّع، فتحليلي دلَّني على أن هناك نوعين لا ثالث لهما من النساء: المرأة الطبيعية والمرأة المزجَّجة. أما المرأة الطبيعية فلها فوائد جمة، ويكفي أن يراك الناس تتعشَّى مع امرأة طبيعية حتى يصفوك بالوقار. أما المرأة المزجَّجة فسحرها عظيم ولكن لها عيبًا واحدًا، وهو أنها تستعمل المساحيق لتغيِّر من سنها. لقد كانت جداتنا يستعملن المساحيق ليُجِدْن فن الحديث، لأن أحمر الشفاه يلهب الذكاء، وقد انتهى ذلك العصر. أما اليوم فالمرأة لا يرتاح لها بال حتى تبدو أصغر من بنتها بعشر سنوات على الأقل. أما عن فن الحديث فقد فقدته نساؤنا، ولن نجد الآن في لندن كلها أكثر من خمس سيدات حديثهن يُشوِّق، منهن اثنتان لا يسمح لهما بدخول الأوساط الشريفة. ولكن حدثني عن فتاتك النابغة هذه. متى عرفتها؟

ـ إن آراءك تخفيفني يا هاري.

ـ دعنا من هذا الآن. متى عرفتها؟

ـ منذ ثلاثة أسابيع تقريبًا.

ـ وأين عرفتها؟

ـ سأروي لك حكايتها كاملة يا هاري، ولكني أطلب منك أن تكون منصفًا، وتذكَّر أنك السبب في كل ما حدث لأن حياتي تبدَّلت منذ عرفتك لقد أثرت فيَّ رغبة جامحة لمعرفة كل شيء، وظللتُ أيامًا بعد لقائنا الأول يعذبني فضول شديد، فما من مرة جلست في هايدپارك أو مشيت متسكعًا في پيكاديلِّي إلا وكنت أتفحَّص الغادين والرائحين وأفكِّر في حياتهم الخاصة كيف تكون. وكنت أستريح إلى بعضهم وكان بعضهم

يملؤني جزعًا وهكذا انتشر في جو حياتي سم لذيذ وتفتَّحت حواسي لكل ما يرضيها. وحدث ذات مساء أن خرجت نحو الساعة الخامسة أنشد المغامرة، وأحسست أن لندن، مدينتنا البشعة الغبراء هذه بخلائقها الحاشدة وخطاياها الجميلة وخطاتها الأشقياء كما وصفتها أنت مرة يا هاري، أحسست أن هذه المدينة قد خبَّأت لي في مجاهلها شيئًا. جاء ببالي ألف خاطر وخاطر، وأحسست بالخطر يدنو فأذكى إحساسي بالخطر إحساسي بالحياة، وتذكرت قولك لي يوم تعشينا معًا أول مرة إن سر الحياة الحقيقي هو البحث عن الجمال. ولم أكن أطلب شيئًا بعينه بل مضيت أتجول شرقًا ثم ضللت طريقي في تيه معقد من الشوارع المظلمة والميادين السوداء الجرداء. فلما بلغت الساعة الثامنة والنصف وجدتني أمام مسرح مهمل صغير مصابيحه عالية وإعلاناته خالية من الذوق، ورأيت ببابه يهوديًا يلبس صدارًا لم أرَ مثله في حياتي ويدخن سيجارًا قذرًا، وعلى صدره تدلَّت سلسلة كستها المواد الدهنية ولمعت ماسة ضخمة وسط قميصه. وحين وقع بصره عليَّ رفع قبعته في تذلل عظيم وهتف بي قائلًا: «أترغب في مقصورة يا سيدي اللورد؟» فجذبني منظره لأنه بدا كالوحش الضاري، ونقدته جنيهًا كاملًا ثم وجدت طريقي إلى المقصورة الأمامية. ولعلك تسخر من مسلكي العجيب هذا، ولكني لا أعلم ماذا حملني على الدخول. ومع ذلك فلو لم أدخل يا صديقي لفاتتني أجمل تجربة مرت بي في حياتي. ها أنت تضحك سخرية مني فما أقساك يا هاري.

ـ لست أضحك، أقصد لست أضحك سخرية منك، ولكن لا تقل أجمل تجربة مرت بك بل قل أول تجربة. فسوف تجد دائمًا من تحبك، وسوف نطلب الحب لذاته دائمًا. فالعواطف الصاخبة حكر على أمثالنا من المتبطِّلين وهي المبرِّر الأوحد لوجود أرستقراطية خاملة. فلا تخشَ شيئًا يا دوريان لأن المستقبل يخبئ لك السعادة التي تنشدها، وما هذه إلا البداية.

فقال دوريان جراي غاضبًا:

ـ أتحسبني تافه العاطفة إلى هذا الحد؟

ـ كلا. بل أحسبك قوي العاطفة إلى حد كبير.

ـ ماذا تعني؟

ـ اسمع يا بنيّ إنما يؤمن بالتخصُّص أصحاب العقول التافهة. وما يسمونه بالوفاء أسميه أنا الكسل الناجم عن العادة أو أسميه فقرًا في الخيال، حسب الحالة. إن الإخلاص في الحياة العاطفية يشبه انتظام التفكير في الحياة العقلية، وكلاهما أمارة الفشل. ما هذا الوفاء الذي يتحدث عنه الناس! لا بد أن أحلله يومًا من الأيام. إنه يقوم على غريزة الملكية وكم من شيء لا نجد بأسًا من لفظه لولا خوفنا من أن يلتقطه الآخرون ولكن امضِ في روايتك فأنا لا أحبّ أن أقاطعك.

ـ أقول وجدتني جالسًا في مقصورة صغيرة قبيحة المنظر ووجدت أمامي على المسرح مباشرة ستارًا عليه نقوش مبتذلة، وأجلت بصري في جنبات الدار من وراء ستار مقصورتي فوجدتها دارًا حقيرة تزينها رسوم سخيفة لكوبيد وما شاكل ذلك. وكانت الصالة والشرفات ملأى بالنظارة ولكن المقاعد الأمامية كانت خالية تمامًا. وكنت ترى بائعات البرتقال، وشراب الليمون يجلن بين الحضور، وكنت تسمع الحضور يقشرون الفول في جلبة لا حد لها.

ـ ما أشبه هذا المسرح بمسرح شكسبير!

ـ أعتقد أنه يشبهه من كل الوجوه، ولكن نفسي ضاقت به، ولم أدرِ ما يجب عليَّ أن أفعله، ثم لمحت فجأة لوحة كُتب عليها اسم الرواية. فماذا تظنها كانت يا هاري؟

ـ لعلها كانت رواية «الأبله» أو رواية «المغفلة البريئة» فآباؤنا كانوا يحبون هذا النوع من المسرحيات، وأنا في كل يوم أزداد اقتناعًا بأن ما كان يصلح لآبائنا لم يعد يصلح لنا، سواء أكان ذلك في الفن أو في

السياسة. والمثل الفرنسي يقول «الأجداد دائمًا مخطئون».

ـ ولكن الرواية كانت «روميو وچولييت» وهي من الروايات التي تصلح لنا يا هاري. وأعترف لك بأن فكرة تمزيق شكسپير في ذلك الجحر القذر ضايقني كثيرًا، بيد أني قرَّرت أن أشاهد الفصل الأول. وسبق التمثيل قطع موسيقية عزفتها فرقة مزعجة على رأسها شاب يهودي ظل يدق على بيانو مهشَّم حتى كدت أنصرف من فرط غيظي. ولكن الستار ارتفع أخيرًا، وبدأ التمثيل، وخطر روميو على المسرح فأذا به كهل بدين يشبه برميل البيرة، له حاجبان مضحكان وصوت أجش يصلح فعلا لتمثيل المآسي. ولم يكن مركوشيو بأحسن حالًا من روميو، فقد كان يقوم بدور مركوشيو مضحك رخيص كثيرًا ما زجَّ بين سطور شكسپير فكاهات من عنده، كما أنه كان يعطِّل التمثيل أحيانًا ليتبادل الفكاهات مع الجمهور. نعم، كان روميو ومركوشيو جديرين بالسخرية، كما كان المنظر ذاته جديرًا بالسخرية، فقد بدا بيت السيد كاپيوليت بڤيرونا كأنه بيت من بيوت الفلاحين. ولكن چولييت كانت آية عجبًا يا هاري! كانت دون السابعة عشرة يشبه وجهها الصبوح المستدير الزهرة المتفتحة ويشبه رأسها الصغير الدقيق إلهة من آلهة اليونان ذات ضفائر لا هي بالسوداء ولا هي بالشقراء. أما عيناها فقد كانتا ينبوعين يفيضان بالعواطف السخية، بل كانت بنفسجتين يترجرج فيهما قطر الندى، وأما شفتاها فهما أوراق الورد. نعم، كانت چولييت آية عجبًا. وأنت القائل إن مشهد الأسى لا يحرِّك فيك ساكنًا، وإن مرأى الجمال وحده هو الذي يزلزل كيانك ويجمع في عينيك العبرات. فلتصدقني إذًا يا هاري حين أقول إني ما كدت أرى هذه الفتاة حتى استعبرت عيناي فحجبها عني ضباب المُقَل. كذلك كان صوتها آية عجبًا، بدأ خفيضًا حنونًا، رخيم النبرات يكاد كل من يسمعه يخال أنها تتكلَّم له وحده، ثم ارتفع قليلًا فحسبته صوت ناي شجي بعيد. فلما جاء مشهد الحديقة وما دار فيها من مناجيات الغرام

البرئ ارتعش صوتها من فرط السعادة فجاءني كأغاريد البلابل في مطلع الصباح. ولكنه علا واضطرب حتى بلغ طبقة الجنون. وأنت تعلم يا هاري ما للصوت من وقع في النفس، فصوتك وصوت سيبيل ڤين لا سبيل إلى نسيانهما، وكلما أغمضت جفني سمعتك تتكلم وسمعتها تتكلم ولكن شتَّان بين ما تقولان، ولست أدري أيَّ الصوتين أتبع! لست أرى ما يمنعني عن حبها، وإني لأحبها من أعماق قلبي فهي كل ما بقي لي في الحياة. وأنا أسعى لرؤيتها كل ليلة، فهي آنًا تلعب روزاليند وآنًا تلعب إيموچن، ولقد رأيتها تموت في قبر دامس بإيطاليا وترشف السم من شفتي حبيبها ولقد رأيتها تجوس خلال غابة آردين متخفّية في زي صبي جميل يلبس تزلكاً[1] وصدارًا وقبعة أنيقة. رأيتها وقد جثت في حضرة ملك فاجر تهديه إكليلًا من الأشواك يحز في جبينه وباقة من الأعشاب المرة تنغِّص عليه مذاق الحياة. كذلك رأيتها في ثياب ديدمونة الطاهرة وقد أطبقت على جيدها البض يد الغيرة السوداء. نعم، لقد رأيتها في كل زي وفي كل عصر. إن النساء التافهات لا يلهبن الخيال لأنهن مشدودات إلى جيلهن بوثاق من حديد. ومهما أضْفَيْتَ عليهن من السحر فلن يتبدل فيهن شيء لأن طبيعتهن خالية من الأسرار، لأن ابتسامتهن مدروسة ثابتة لا تتجدَّد، لأن حياتهن بركة ضحلة آسنة فصباحهن نزهة في هايد پارك وعصرهن لغو حول فناجين الشاي، لأنهنّ يتَّبعن أحاديث النماذج في الزي وفي قواعد السلوك، لأنهن دائمًا في انتظارك، فأي لغز في كل هذا يجذبنا ويثير فضولنا؟ أما الممثلات فهن من جبلَّة مختلفة. أي هاري! لماذا لم تعلِّمني أن حب الممثلات هو أقيَم ما في الحياة.

ـ لم أعلِّمك ذلك يا دوريان لأني أحببت منهن عددًا كبيرًا.

ـ أظنك أحببت ذلك النوع ذا الشعر المصبوغ والوجه المدهون.

---

(1) حذاء طويل الرقبة، ضيّق على الساق

ـ وما ضرر الشعر المصبوغ والوجه المدهون؟ إن سحرهما عظيم في بعض الأحيان.

ـ ليتني لم أحدِّثك في موضوع سيبيل ڤين.

ـ هذا مستحيل يا دوريان، فلن تستطيع أن تكتم عني شيئًا بعد الآن.

ـ هذا صحيح يا هاري، فسلطانك عليَّ عظيم، وهو يرغمني على الإفضاء لك بكل شيء. ولو أني ارتكبت جريمة لقصدتك واعترفت بها أمامك، لأنك تفهمني وتقدِّر عواطفي.

ـ إن أمثالك من الناس يا دوريان هم النور الذي يجلو ظلام الحياة، وأنتم لا ترتكبون الجرائم، ومع ذلك فأنا سعيد بهذه المجاملة. إليَّ بعلبة الكبريت. والآن إلى أي حد وصلت مع سيبيل ڤين؟

فنهض دوريان جراي غاضبًا وقال:

ـ هذا اجتراء منك يا هاري. إن سيبيل ڤين قُدسٌ حرام!

أجاب اللورد هنري في حنان غريب:

ـ وهل غير الأقداس المحرَّمة يستحق أن نلمسه؟ ثم إني لا أفهم معنى لغضبك، فسيبيل ڤين ستكون ملكًا لك عاجلًا أو آجلًا، وإن العاشق ليبدأ غرامه بخداع نفسه ويختمه بخداع الآخرين، وهذا هو ما يسمونه الحب. أعتقد أنك على الأقل تعرَّفت بها.

ـ طبعًا تعرَّفت بها، فبعد انتهاء التمثيل في الليلة الأولى جاءني اليهودي وعرض أن يستصحبني إلى غرف الممثلين ليعرفني بچوليت فثارت ثائرتي وزجرته قائلًا إن چولييت قد ماتت منذ قرون، وأن جثتها مدفونة في قبر من المرمر بڤيرونا. ولما أن سمع هذا الكلام بدت على وجهه أمارات الحيرة، ولعله حسب أني كنت ثملًا.

ـ هذا طبيعي.

ـ قال: «أتكتب في الصحف؟» قلت: «لا أكتب فيها ولا أقرؤها» فبدا عليه غَمّ شديد وأسرَّ إلي قائلًا إن جميع نقاد المسرح يتآمرون عليه وأنهم

بلا استثناء قوم مرتشون.

ـ أعتقد أن رأيه فيهم صحيحًا. ولكن مظهرهم الرث يدل على أن ثمنهم ليس كبيرًا.

فضحك دوريان جراي وقال:

ـ ولكني فهمت من كلامه أن ثمنهم أبهظه. مهما يكن من شيء فقد رأيت أنوار المسرح تنطفئ حين بلغنا هذه المرحلة من الحديث، وكان لا بد لي من الانصراف، فألح عليَّ في أن أدخن سيجارًا كان يعتقد في جودة نوعه ولكني أبيت. وفي الليلة التالية قصدت المسرح ثانية فلمًّا رآني انحنى حتى كاد أن يقبل الأرض بين يدي وأنشأ يؤكد لي أنني حامٍ من حماة الفنون كبير. وكنت أتأذّى من منظر هذا الرجل ولم يشفع له عندي إلا تفانيه في حب شكسبير. فقد قال لي ذات مرة في شيء من الزهو إن إفلاسه أُشْهِر خمس مرات وفي كل مرة كان شكسبير هو السبب، كأن في ذلك شرفًا له.

ـ نعم، إنه شرف مؤكد يا صديقي، بل شرف عظيم. فعامة الناس يفلسون طمعًا في نثر الحياة، ومن جر الشعر عليه الخراب فهو بطل كريم. ولكن متى كان أول لقاء بينك وبين الآنسة سيبيل ڤين؟

ـ كان ذلك في الليلة الثالثة، وكانت تلعب دور روزاليند فألقيت إليها بعض الأزهار لأظهر إعجابي بها واختصتني بنظرة أو خُيِّل إليَّ أنها اختصتني بنظرة. وأخيرًا لم يسعني إزاء إصرار اليهودي إلا أن أرافقه إلى غرف الممثلين. ألا ترى أن رغبتي عن لقائها كانت غريبة حقًا؟

ـ كلا، لست أرى ذلك؟

ـ وما السبب؟

ـ فلننس هذا الآن ولنؤجله إلى وقت آخر. إنما أحب أن أسمع بقية حديثك عن هذه الفتاة.

ـ كانت خجولًا لا حد لخجلها، رقيقة لا حد لرقتها، تشبه الأطفال في

براءتها، أما عيناها فقد استجابتا لإطرائي في دهشة ساحرة حين ذكرت لها رأيي في مواهبها الفنية، فعلمت أنها لم تكن تعرف قدر نفسها. وكنا كلانا مضطربين يرنو أحدنا إلى الآخر في سذاجة كأنه طفل غرير، على حين وقف اليهودي العجوز بباب الغرفة يتمدَّح بشمائلي ويتمدَّح بشمائلها، ولا ينفك يلقبني بسيده اللورد حتى اضطرني أن أوكد لسيبيل ڤين أني لست من أهل الألقاب، فقالت في سذاجة. «أنت عندي أشبه بأمير منك بلورد وسأسميك الأمير الساحر».

ـ أقسم لك يا دوريان أن الآنسة ڤين تحسن المجاملة.

ـ إنك تسيئ فهمها يا هاري، فما أنا في نظرها إلا بطل من أبطال المسرحيات. إنها تجهل الحياة جهلًا تامًا، فهي تعيش مع أمها وهي عجوز فانية رأيتها أول ليلة تلعب دور الليدي كاپيوليت في «روميو وچولييت» ويبدو لي أنها كانت أحسن حالًا فيما مضى من الأيام.

قال اللورد هنري وهو يعبث بخواتمه:

ـ نعم، هذا الطراز من النساء ليس غريبًا عني.

ـ لقد أراد اليهودي أن يقص عليَّ ماضيها ولكني أفهمته أن هذا لا يهمني.

ـ حسنًا فعلت، فمآسي الآخرين فيها دائمًا ما يثير في النفس الامتعاض.

ـ إن سيبيل ڤين هي كل يهمني في الموضوع، أما نشأتها فلا تعنيني. وهي عندي ملك هبط من السماء، وأنا أسعى إليها كل ليلة لأراها على المسرح فيزداد كل ليلة بهاؤها.

ـ وهذا بالطبع يفسِّر انقطاعك عن العشاء معي في هذه الأيام. لقد جال ببالي أنك تمر في اختبار جديد ولكني كنت أتصوّره مع نوع آخر.

ـ نحن نتغدَّى معًا كل يوم يا هاري فإن فاتنا ذلك جئتك في أعجاز الليل، وقد رافقتك مرارًا إلى دار الأوپرا.

ـ ولكنك تتأخَّر في المجيء كثيرًا.

ـ وما حيلتي في ذلك؟ إني أذهب كل ليلة لأراها تمثِّل، وقد انصرف بعد فصل واحد ولكني لا أتخلَّف، لأني أظمأ إلى رؤيتها كل مساء وكلما فكرت في الروح الصافية التي تسكن جسدها العاجي الجميل ارتجفت رهبة.

ـ أتستطيع أن تتعشَّى معي الليلة يا دوريان؟

هزّ دوريان رأسه وأجاب:

ـ كلا، فهي الليلة إيموچن، وهي غدًا چولييت.

ـ ومتى ستكون سيبيل ڤين؟

ـ هذا لا يحدث مطلقًا.

ـ إذًا فاقبل تهانئي.

ـ ما أقساك يا هاري! إنها ليست شخصًا واحدًا بل هي جميع بطلات الخيال تركَّزن في شخص واحد. إنك تسخر مني ولكني أؤكد لك أنها فتاة موهوبة، وأنا أحبها ولا بد أن أجعلها تبادلني حبي. وأنت يا من قرأت رموز الحياة وطالعت أسرارها لا تنهني عن حبها بل علِّمني رقية أستطيع أن اسرَ بها فؤاد سيبيل ڤين. أريد أن أثير الغيرة في قلب روميو. أريد أن أهنأ معها ليشقى شهداء الغرام بهنائنا. أريد أن أهنأ معها لتحرق أنفاسنا الملتهبة رميمهم البارد المتآكل. اللهم غفرانك! إن حبي لها قد بلغ مبلغ الوثنية.

وفيما هو يقول ذلك كان شديد الاضطراب يقطع أرض الغرفة جيئة وذهابًا وقد اشتعلت في خديه نار حامية.

وكان اللورد هنري يتأمَّله في سرور خفي فقد رأى الصبي الخجول المنكمش الذي عرفه في استديو بازيل هولوورد يتحوَّل إلى فتى ذي شخصية وإرادة. لقد نمت روحه كما تنمو الزهرة وتفتَّحت أوراقها حمراء كألسنة اللهيب. نعم. لقد أطلت روحه من مخبئها العميق حيث لا يراها أحد واندمجت في الجسد الملتهب بالأشواق، فأصلتها أشواق الجسد نارًا.

قال اللورد هنري أخيرًا:

ـ وعلام أزمعت؟

تعال معي إلى المسرح أنت وبازيل هولوورد، لتشاهدا تمثيلها، وأنا واثق من النتيجة تمامًا فما من شك في أنكما ستقنعان بأنها فتاة موهوبة. وبعد ذلك لا يبقى إلا أن ننتشلها من براثن اليهودي فهي مرتبطة معه بعقد مدته ثلاث سنوات بقيت منها سنتان وثمانية شهور، ولا بد أن أعوضه بالمال عن فسخ العقد. وحين يتم لي ذلك استأجر لها مسرحًا في الوست إند وأظهرها للناس بما يتناسب مع كفايتها، ولسوف يجن بها الناس جنوني بها.

ـ هذا محال يا دوريان.

ـ نعم. سوف يجن الناس بها، فهي تملك الشخصية الناجعة فضلًا عن استعدادها الفني وتَمَكّنها من أصول التمثيل. ولقد قلت لي في أكثر من مناسبة إن عصرنا تسيّره الشخصيات لا المبادئ.

ـ إذا كان الأمر كذلك فمتى نذهب.

ـ اليوم يوم الثلاثاء، فليكن موعدنا ليلة الغد فهي تمثل چولييت.

ـ اتفقنا إذًا، وليكن لقاؤنا بمطعم بريستول في الساعة الثامنة وسآتيك ببازيل.

ـ بل في السادسة والنصف يا هاري، فلا بد أن نكون هناك قبل رفع الستار. نعم، لا بد أن تراها في الفصل الأول حين تقابل روميو.

ـ ماذا دهاك يا هذا؟ إن شهود التمثيل في السادسة والنصف عمل لا تستسيغه النفس كأكل اللحم مع الشاي أو قراءة القصص الإنجليزية. فلنلتق في الساعة السابعة وإلا فلا، فما من چنتلمان يتعشّى قبل السابعة. أيُّنا يتصل ببازيل؟

ـ مسكين بازيل، فأنا أعامله أسوأ معاملة، وقد احتجبت عنه أسبوعًا كاملًا، وهذا جحود مني شديد لأنه أرسل إليَّ صورتي بعد أن وضعها

داخل إطار جميل صمَّمه بنفسه، وأنا جد سعيد بهذه الصورة رغم أني أغار منها، فهي تصغرني بشهر كامل. ولعله حانق عليَّ فمن الأصوب أن تكتب أنت إليه بهذا الموعد، وأنا أكره أن أواجهه وحدي وأضيق بكثير من حديثه لأنه لا ينفك يسدي إليَّ نصائحه الأخلاقية.

فابتسم اللورد هنري وقال:

ـ إن الناس يجودون للغير بماهم في أمسِّ الحاجة إليه، وهذا ما أسميه الكرم الذي زاد عن حده فانقلب إلى ضده.

ـ ولكن بازيل خير من عرفت من الرجال رغم أنه محدود الأفق بعض الشيء، وقد أدركت ذلك فيه منذ أن عرفتك يا هاري.

ـ إن بازيل يضع كل صفاته الجذَّابة في عمله، وبذلك لا يتبقَّى لنا منه إلا أحكامه الفاسدة ومبادئه القويمة ومنطقه السليم. وما عرفت فنانًا قط جذَّاب الشخصية إلا وكان تافه الفن، أما كبار الفنانين فأشخاصهم تفنى تمامًا في عملهم فلا يبقى للعالم من أشخاصهم ما يثير اهتمام أحد. والشاعر الفذ، أقصد الشاعر الفذ بمعنى الكلمة، رجل خلت حياته من الشاعرية. أما صغار الشعراء فيسحرون الدنيا بشخصياتهم العجيبة، وكلما انحطت قوافيهم ارتفعوا في عيون الناس، حتى لتجد أن مجرَّد نشر ديوان من الشعر الركيك يجعل من صاحبه شخصية تأسر القلوب. فصغار الشعراء يمارسون الشعر الذي عجزوا عن قوله، وكبارهم يقولون الشعر الذي خافوا من ممارسته في الحياة.

قال دوريان جراي وهو يصب شيئًا من العطر على منديله من زجاجة كبيرة على المائدة غطاؤها ذهب خالص.

ـ أصحيح ما تقوله يا هاري؟ لا بد أنه صحيح لأن كل ما تقوله صحيح. والآن يجب أن أنصرف. فإيموچين في انتظاري. وداعًا، ولا تنسَ موعد الغد.

ولما انصرف دوريان جراي أغمض اللورد هنري جفنيه الثقيلين

واسترسل في التفكير، وكانت الصلة بينهما موضوع تفكيره. وجد اللورد هنري أن اهتمامه بدوريان جراي أكيد لا شك فيه، ومع ذلك فإن اهتمام دوريان جراي بشخص آخر لم يثر في نفسه لواعج الغيرة كما أثار من قبل في نفس بازيل هولوورد، بل أثار فيها الغبطة والسرور. وكان يجد لذة في دراسته فازدادت بذلك لذته. لقد كان اللورد هنري شديد الاعجاب بمنهج التاريخ الطبيعي ولكنه كان يجد أن مادة هذا العلم مادة تافهة لا قيمة لها. لم يكفه تشريح الحشرات فبدأ بتشريح نفسه وأنتهى بتشريح الآخرين، وامتلأ إيمانًا بأن الحياة الإنسانية هي كل ما يستحق الدراسة على وجه الأرض، وأن كلٍ ما عداها ثانوي إذا قيس بها. ولكن دراسة الحياة الإنسانية لا ريب تؤثِّر في صاحبها، ولقد تعصف به عصفًا شديدًا. فمن يتأمَّل النفس الإنسانية تنصهر في البوتقة بنار الألم آنًا وبسعير اللذة آنًا لا يستطيع أن يحتفظ بهدوئه كأن على وجهه قناعًا من زجاج جامد، ولا يستطيع أن يمنع دخان العواطف المتأجِّجة من أن يملأ شعاب رأسه بالأحلام البشعة المزعجة والأوهام الكدرة السوداء. إن في الحياة سمومًا عجيبة لا سبيل إلى معرفة خواصها إلا أن تتسمَّم بها النفس، وإن في الحياة أمراضًا غريبة لن يفهمها بنو الإنسان إلا إذا نزلت بهم ثم خرجوا منها ناقهين. ولكن ثمرة الاختبار شهية، والحياة حلو مذاقها لمن عرف حقيقتها. وما ألذ أن يتأمَّل الإنسان العاطفة الرقيقة تقسو حتى تصير كالصارم المشحوذ والعقل الغليظ يرقّ وتضفي عليه العاطفة جميل الألوان، ويرى كيف يلتقيان وكيف يفترقان! إن الثمن الذي ندفعه لنظفر بهذه التجربة بخس مهما علا ولو جُدْنا بالحياة ذاتها. فالإحساس أثمن ما في الوجود، وفي سبيل الإحساس يهون كل شيء.

كان اللورد هنري يعلم أن كلماته المختارة ذات الجرس الجميل هي التي جعلت روح دوريان جراي تتجه إلى هذه الفتاة الصغيرة وتمثل أمامها في خشوع، وحين فكر في ذلك أضاء في عينيه بريق السرور. فكان

يحسّ بأنه خلق هذا الفتى خلقًا جديدًا بعد أن كان محض حلية أنيقة تكمل جمال الصالونات وأنه أنضجه قبل الأوان. إن عامة الناس ينتظرون حتى تكشف الحياة لهم عن خباياها، أما الأقلون، وهم الأصفياء، فيرون خبايا الحياة قبل أن يسقط عنها الحجاب. وما هذه وظيفة الفن بل وظيفة الأدب على وجه التخصيص لأنه يتصل رأسًا بالعقل وبالعاطفة. ولكن الحياة تجود من آن لآخر بشخصية فذة معقدة تؤدي وظيفة الفن، وهذه الشخصية الفذة المعقدة هي في ذاتها أثر فَنّي صاغته يد «الحياة»، وما الحياة بأقل قدرة على الخلق من الشعراء أو الرسَّامين أو المثّالين. فلا عجب أن تخلق الحياة النماذج البشرية الرائعة.

نعم، إن الفتى قد نضج قبل الأوان، وها هو ذا يجني الثمار وهو بعد في باكورة الربيع، تضطرم فيه حرارة الشباب ويجري دمه الدفَّاق. ولكن دوريان جراي قد بدأ يعي ما يحدث له. ولذا كان تطوره متعة كبرى لمن يتبعه عن كثب. فهو جميل المحيا، جميل الروح، وهو فتنة للناس، فسيَّان أن تطيب نهايته أو تسوء. فما كان أشبهه بشخص سحري في مسرحية سحرية نرى أبطالها يرفلون في حلل السعادة فلا نهتز لأفراحهم، ثم تنزل بهم الكروب فتشجينا أحزانهم وتبدو لنا جراحهم كالورود الحمراء.

عجبًا للروح وعجبًا للبدن! عجبًا للبدن وعجبًا للروح! إن الروح لا تخلو من المادية، والمادة تعرف لحظات الوجد الروحي. ولقد تسمو الحواس وتصفو، ولقد يظلم العقل ويكفهر! وهل منا من يعلم أين تنتهي نوازع الجسد وأين تبتدئ نوازع الروح؟ إن التعاريف التي يتفضَّل بها علينا علماء النفس تعاريف أولية لا تنهض على أسس مكينة، ونحن مع ذلك لا نستطيع أن ننتصر لفريق منهم على فريق. والسؤال الذي سأله الإنسان منذ القدم لا يزال بلا جواب. ترى هل الروح شبح يسكن الجسد، بيت

الخطيئة؟ ترى هل الجسد كائن في الروح كما قال چيوردانو برونو[1]؟ إن فصل الروح عن المادة لغز قد حيَّر ألبابنا كما أن زواج الروح بالمادة لغز بلبل أفهامنا.

ثم بدأ يتساءل عمَّا إذا كان في وسع الإنسانية حقًا أن تجعل من علم النفس علمًا بالمعنى الموضوعي الكامل، علمًا يفسِّر لنا كل نبضة من نبضات الكائن الحي. فنحن إلى هذه اللحظة نخطئ في فهم أنفسنا ولا نصيب في فهم الآخرين إلا قليلًا، وليس للاختبار أية قيمة أخلاقية بيننا، فهو لا يتجاوز أن يكون كلمة نطلقها على ما نرتكبه من أخطاء. أما علماء الأخلاق فقد دأبوا على تصوير الاختبار على أنه تحذير للمستقبل من أغلاط الماضي، وتقويم لا بد منه في تكوين الشخصية، وتنويه لنا بما يجب أن نتبعه وما يجب أن نتجنبه في الحياة. ولكن الاختبار ليست له قوة غائبة فهو عمل سلبي يوجد دون أن نسعى إليه كالضمير الذي يتكوّن فينا سواء بسواء، وكل ما تعلمناه من هذا الدرس هو أن مستقبلنا لا يختلف البتة عن ماضينا، وأن الخطيئة التي ارتكبناها مرة على مضض نرتكبها مرارًا في شوق وإقبال.

وكان اللورد هنري يؤمن بأن المنهج التجريبي هو المنهج الوحيد الذي نستطيع أن نحلل به العواطف تحليلًا علميًا. ولا شك أن دوريان جراي كان موضوعًا صالحًا للتجربة فهو رهن إشارته في كل وقت، وهو يتوقع من هذه التجربة التي يجريها عليه أغنى الثمار. فحب دوريان جراي لسيبيل ڤين كان ظاهرة نفسية لها خطرها، ولا جدال في أن دافع الفضول كان عنصرًا هامًا في هذا الغرام الغريب، وأن الشوق إلى اختبار

---

(1) چيوردانو برونو (1548-1600): فيلسوف إيطالي، كان راهبًا ودرس اللاهوت أولًا ثم تحول إلى الفلسفة، اعتنق نظرية كوبرنيكوس عن دوران الأرض، ورأى أن النظام الشمسي هو مجموعة من أنظمة عديدة تغطي الكون. سُجن لثماني سنوات ثم قُطع لسانه وأُحرق متهمًا بالهرطقة. نالت أبحاثه اهتمامًا كبيرًا بعد مقتله.

الحياة ساقه إليه سوقًا. ولكن الاكتفاء بهذا الوصف تبسيط لهذه العاطفة المركبة. لقد تحولت بفعل الخيال أشواق الجسد التي تعذب يفاعته إلى شيء لا أثر للجسد فيه فهو إذًا يتوهم هذه الروحانية توهمًا، وهذا يجعلها أبلغ خطرًا. كذلك تولدت فيه عواطف، عواطف كم استبدت بنا وكم خاتلنا أنفسنا في حقيقتها ومنشئها. فإن أتفه العوامل التي تحرِّكنا لَهي العوامل التي نعيها ونستقصيها، وما أكثر ما يحدث أننا نجري التجارب على أنفسنا حين نظن أننا نجريها على الآخرين.

وفيما كان اللورد هنري سابحًا في تأملاته هذه طرق خادمه الباب ثم دخل ليذكره بأن وقت العشاء قد أزفّ وأن عليه أن يستبدل ثيابه استعدادًا لحياة المساء. فنهض وأجال بصره في الشارع فوجد أن الشفق قد ضرّج النوافذ العليا في المنازل المقابلة بذهب أحمر، فتوهَّج زجاجها كأنه ألواح من معدن مصهور. وبدت السماء حمراء كالوردة الذابلة فتذكر الحياة الحمراء التي يحياها صديقه، وعجب للنهاية كيف تكون.

وحين عاد إلى بيته بعد منتصف الليل وجد برقية تنتظره على مائدة القاعة ففضَّها وقرأها، فإذا بها من دوريان جراي وإذا بها تنبئه بأن دوريان جراي قد عقد خطبته على سيبيل ڤين.

الفصل الخامس

دفنت سيبيل ڤين وجهها في حجر أمها العجوز الفانية، وكانت أمها العجوز الفانية تجلس في مقعد كبير لم يكن بالغرفة مقعد سواه، ظهرها لبصيص النور الذي تسلَّل كالمتطفِّل في تلك الغرفة الموحشة، وهمست الفتاة قائلة:

ـ ما أسعدني يا أماه! إني سعيدة وينبغي أن تقاسميني سعادتي.

فأفاقت مسز ڤين ومسحت بيدها البيضاء على رأس ابنتها وقالت:

ـ أنا لا أذوق السعادة يا سيبيل إلا حين أراك تمثلين، فلا تفكري في شيء خارج عملك، لأن مستر إيزاك رجل من أهل المروءة وقد أقرضنا مالًا كثيرًا.

فتجهَّم وجه الفتاة ورفعت رأسها قائلة:

ـ ولكن ما قيمة المال يا أماه؟ إن الحب أهم من المال.

ـ لا تنسي أن مستر إيزاك أقرضنا خمسين جنيهًا لنسدِّد بها ديوننا ولنشتري الكساء اللازم لأخيك چيمس، وهذا ليس بالمبلغ الهيِّن. إن مستر إيزاك شهم كريم.

فنهضت الفتاة ومشت نحو النافذة وقالت:

ـ لست أرى فيه صفات الچنتلمان، وهو يحدِّثني بأسلوب بغيض.

قالت العجوز في تذمُّر:

ـ وماذا يكون حالنا بدونه؟

فهزت سيبيل ڤين رأسها وقالت ضاحكة:

ـ لم تعد بنا حاجة إليه يا أماه، فالأمير الساحر سيدبِّر لنا أمرنا بعد اليوم.

ثم سكتت وتورَّد خداها واضطربت أنفاسها وارتعشت شفتاها وانفرجتا. لقد هبَّت عليها ريح الجنوب الساخنة فألهبتها وعبثت بطيات ثوبها الجميل. قالت في بساطة:

ـ أنا أهواه!

فأجابتها أمها في إصرار الببغاء:

ـ يا لك من طفلة حمقاء! يا لك من طفلة حمقاء!

وتحرَّكت أصابعها المعوجة الناحلة وتحرَّكت معها خواتمها ذات الفصوص الزائفة. وكانت إشارتها مضحكة لغرابتها فضحكت الفتاة ثانية، وكان صوتها الغرد يشبه صوت عصفور حبيس. وضحكت عيناها كذلك وعبَّرتا عن سعادتها ببريق، ثم غضَّت الفتاة طرفها كأنها تريد أن تخفي عن أمها سرًا. ثم فتحت عينيها فإذا هما مخضلتان بندى خفيف هو ندى حلم عبر.

وتكلَّمت أمها العجوز بشفتين باليتين من مكانها في المقعد البالي فجاء صوتها كصوت ربة الحكمة وذهبت تنصح ابنتها بألا تجازف بشيء وتُعدِّد لها الأقوال المأثورة التي تحض على طلب السلامة من كل ما نتعلمه في كتاب الجبن ويقرُّه المجتمع باسم التفكير السليم، فلم تلقَ الفتاة بالًا لشيء مما سمعت، فقد كانت في شغل بغرامها القوي وانطلقت روحها في كل مكان تبحث عن الأمير الساحر لتعود به وتسكنه أبراج خيالها، وقد عادت به، وقد سكن أبراج خيالها، وقد أحرقت قبلاته شفتيها، وقد أدفأت أنفاسه جفنيها.

ولكن ربة الحكمة لم تلبث أن غيَّرت نهجها في التفكير، وشرعت تتحدَّث عن وجوب التعرُّف على حقيقة هذا الفتى؛ فلئن كان من أهل

اليسار وجب تدبير الزواج. واستمعت سيبيل طويلًا إلى حديث المادية السافرة، ورأت المُثُل العليا تمزَّق في غير رحمة. ولكنها رغم ذلك ابتسمت وهي ترقب شفتي أمها الباليتين تتلوان عليها هذا الحديث.

وكان صمتها مزدحمًا بالخواطر فأحست فجأة بحاجة إلى الكلام، ولما ضاق صدرها بما يضطرب فيه من عواطف قالت:

ـ أماه! لِمَ يحبني كل هذا الحب يا أماه؟ أما أنا فأعلم لم أحبه، فهو إيروس، ربّ الغرام تجسد لي. فماذا يحمل فتى مثله على أن يحب فتاة مثلي؟ كلا يا أماه أنا لا أستحق أن أكون موضع حبه، ومع ذلك فأنا لا أحس بأني مخلوق تافه رغم رفعة مكانته في المجتمع وضعة مكانتي. وإني لفخورة بنفسي، جد فخورة. حدثيني يا أماه، هل أحببت أبي كما أحب أنا الأمير الساحر؟

فشحب وجه العجوز الذي لطخته المساحيق ونزل بها الألم فجأة وارتجفت شفتاها، فبادرت سيبيل إليها وطوقت جيدها بذراعيها وقبلتها قائلة:

ـ اصفحي عني يا أماه، فأنا أعلم كم يوجعك ذكر أبي، ولكنك تتعذّبين من فرط إعزازك لذكراه. لا تبتئسي فأنا اليوم سعيدة كما كنت أنت منذ عشرين سنة فليت سعادتي تدوم!

ـ أنتِ يا بنيتي ما زلتِ صغيرة ولا تفهمين معنى الحب. ثم إنكِ لا تعرفين عن هذا الفتى كثيرًا أو قليلًا، بل أنتِ لا تعرفين ما اسمه ومن يكون، فالمسألة من ألفها إلى يائها محزنة، وقد كان خليقًا بك أن تظهري بعض العطف لي فأخوك جيمس راحل إلى إستراليا ونفسي مثقلة بالهموم. ومع ذلك، إذا كان صاحبك هذا من أهل اليسار كما تزعمين...

ـ أناشدك ألا تحطِّمي سعادتي يا أمَّاه.

فنظرت إليها مسز ڤين وعانقتها عناقًا مسرحيًا، وهي عادة لازمتها في حياتها الخاصة كما تلازم عامة الممثلين. وفيما كانا على هذا النحو انفتح

الباب ودخل منه فتى ممتلئ البنية ذو شعر خشن أصفر ثقيل عيناه ويداه على شيء من الضخامة، وفي حركاته غلظة واضحة. ولم يكن هذا الفتى قد نال من التهذيب ما نالته أخته سيبيل، حتى أن المرء لا يتصوَّر أن بينهما صلة دم. وتفحَّصته مسز ڤين بنظراتها فازداد وجهها إشراقًا فقد تخيَّلت أنه يمثِّل جمهور النظارة، وارتاح فؤادها إلى المشهد. قال الفتى في مزيج من العطف والتذمر:

ـ هلَّا ادخرت بعض قبلاتك لي يا سيبيل؟

فأجابت الفتاة:

ـ ولكنك تكره أن يقبلك الناس يا چيم. ما أشبهك بدب عجوز! ثم أسرعت إليه وعانقته. فنظر چيمس ڤين في وجه أخته في حنان وقال:

ـ هيا بنا للنزهة معًا يا سيبيل، فلعل هذه آخر مرة أرى فيها هذه المدينة القبيحة لندن، ولست براغب في العودة إليها بعد رحيلي.

وتنهَّدت مسز ڤين وهي تمسك بثوب من أثواب المسرح مهلهل وبدأت ترقع الثوب. لقد ساءها أن ابنها لم ينضم إلى المشهد ليتمِّم ما له من طابع مسرحي.

ـ لا تقل مثل هذا الكلام المفزع يا ولدي.

ـ هذه هي الحقيقة وأنا أعني ما أقول.

ـ هذا الكلام يوجعني يا ولدي وأعتقد أنك سوف تعود من أستراليا بعد أن تجمع مالًا كثيرًا، فالمستعمرات ليس فيها حياة اجتماعية أو شيء يستحق أن يوصف بهذا الوصف على ما أعتقد. ولذا ستعود إلى لندن بعد أن تجمع المال الكثير وتجد لنفسك فيها مكانًا.

قال الفتى:

ـ وما قيمة الحياة الاجتماعية؟ أنا لا أحب أن أعرف عن هذه الحياة شيئًا، وكل ما أبغيه هو أن أجمع بعض المال حتى أبعدكما عن المسرح، فإني أبغضه بغضًا شديدًا.

فضحكت سيبيل وقالت:

ـ ويحنا منك يا چيم! ما أقساك علينا! ولكن أتحب حقًا أن نخرج معًا للنزهة؟ إن فعلت ذلك أدخلت السرور على قلبي. لقد كنت أحسبك تنوي توديع بعض أصدقائك كتوم هاردي الذي أهداك تلك البيبة[1] القبيحة وندلانجتون الذي يسخر منك كلما رآك تدخنها. وإني أشكر لك قضاءك آخر ساعاتك معي، فأين تحب أن تذهب؟ هيا بنا إلى هايد پارك.

ـ كلا يا سيبيل، فأنا زري المنظر ولا يتنزه في هايد پارك إلا الوجهاء.

قالت سيبيل وهي تمسح سترته:

ـ دعك من هذا الكلام الفارغ يا چيم.

فتردَّد لحظة ثم قال في النهاية:

ـ هيا بنا إذًا؛ ولكن عجِّلي بارتداء ملابسك.

فخرجت من الغرفة وهي ترقص وصعدت إلى الطابق العلوي وهي تغنِّي فملأ صوتها أرجاء البيت، وسمع چيم قدميها الصغيرتين تضربان سقف الغرفة. وطفق يمشي جيئة وذهابًا ثم التفت إلى أمه الجالسة في المقعد الكبير لا تبدي حراكًا وسألها قائلًا:

ـ هل أعددت أمتعتي يا أماه؟

كانت مسز ڤين تصلح الثوب فلم تتوقَّف عن العمل وأجابته بأنها قد هيئت كل شيء. وكانت الأم في الشهور الأخيرة تضطرب كلما وجدت نفسها وحيدة مع ولدها الحازم الخشن الطباع. وكلما تلاقت عيونهما اضطربت نفسها وجلًا لأنها كانت تشك أحيانًا في أنه يعرف شيئًا عن سرها. وكان چيمس ڤين كثير الصمت فزاد ذلك الموقف حرجًا، وبدأت تتذمَّر من صمته كعادة النساء اللائي يجدن في الهجوم خير وسيلة للدفاع ويجدن في الاستسلام أضمن وسيلة للانتصار. قالت الأم:

---

(1) pipe الغليون أو البايب.

ـ أرجو أن تجد السعادة التي تنشدها في حياتك الجديدة هذه، حياة الملاحة والأسفار، وتذكر دائمًا أنك اخترت لنفسك هذا المصير، فقد كان في إمكانك أن تلتحق بمكتب محام، والمحامون طبقة لها مكانة في المجتمع عالية، ومن كان منهم يعمل في الريف يختلط بأرقى الأسر.

فأجاب الفتى قائلًا:

ـ ولكني أمقت المكاتب وأمقت الكتبة ولقد أصبتِ فيما قلتِ من أنني اخترت هذا المصير بنفسي. وكل ما أرجوه منك أن تسهري على سيبيل ما استطعتِ إلى ذلك سبيلًا، وأن تدفعي عنها الشرور. نعم، يا أمَّاه، اسهري على سيبيل وادفعي عنها الشرور.

ـ هذا كلام عجيب يا ولدي، فأنا ساهرة على سيبيل فعلًا ولا محلّ لمخاوفك.

ـ بلغني أن سيدًا يزور المسرح كل ليلة ويقصد إلى غرف الممثلين ليراها. ألا ترين في هذا ضررًا؟

ـ هذه أشياء لا تفهمها يا چيمس، فقد جرت العادة في مهنة التمثيل أن تجد من الجمهور كل رعاية، ونحن نسرُّ بهذه الرعاية ونعدها مقياس النجاح. ولقد كنت في صباي أقبل باقات الزهر من المعجبين، ولكن تلك الأيام انقضت ولم يعد الناس يقدرون التمثيل حق قدره. أما سيبيل فأنا أجهل الآن إذا كانت جادة في صلتها بهذا الشاب أم غير جادة. ولكني لا أرتاب في أن هذا الشاب چنتلمان لا غبار على سلوكه، فهو جم الأدب معي، ومظهره يدل على أنه من أهل اليسار، والأزهار التي يرسلها إلى أختك جميلة حقًا.

قال الفتى في خشونة:

ـ ولكنك تجهلين اسمه.

فأجابت الأم في هدوء:

ـ هذا صحيح، فهو لم يبح باسمه الحقيقي لها، وأنا أرى أن هذا يضيف

إلى جمال الموقف، فلعله من أبناء الطبقة الأرستقراطية.

فعضَّ چيمس ڤين شفته وصاح بأمه قائلًا:

ـ اسهري على سيبيل يا أماه، اسهري على سيبيل.

ـ أنت تحزنني كثيرًا بهذا الكلام يا ولدي فما انقطعت قط عن العناية بسيبيل ولكني لا أرى ما يمنع أن ترتبط سيبيل بهذا السيد برباط الزواج إذا كان من أهل اليسار. وأغلب ظني أنه من أبناء البيوتات ومظهره يدل على ذلك، ولقد يكون في هذا الزواج فرصة ذهبية لسيبيل. وأرى أن زواجهما سيكون غاية في الانسجام فجمال هذا الفتى نادر حقًا، يَبْدَه كل من رآه.

أخذ الفتى يتحدث إلى نفسه بصوت خافت وينقر زجاج النافذة بأصابعه الغليظة. فلمَّا التفت ليقول لأمه شيئًا انفتح الباب ودخلت منه سيبيل وقالت:

ـ مالي أراكما واجمين؟ ماذا حدث؟

فأجاب الفتى قائلًا:

ـ لم يحدث شيء إطلاقًا، وسؤالك لا معنى له. فمن الطبيعي أن يعمد الإنسان إلى الجد من وقت إلى آخر. إلى اللقاء يا أماه، وسأعود للعشاء في الساعة الخامسة. لا تهتمي بأمتعتي فتلك ملابسي مرتبة ما عدا القمصان.

فانحنت الأم في وقار أنهكته الشيخوخة وقالت:

ـ إلى اللقاء يا ولدي.

ولكن لهجته أحنقتها، فما كان له أن يحدث أخته بهذا الجفاف، كما أن نظراته أخافتها. واقتربت شفتا الفتاة الورديتان من خدها الذابل وطبعتا عليه قبلة أرسلت فيه الدفء، فجالت الأم بنظرها في سقف الغرفة كأنها تبحث عن جمهور من النظارة وقالت في لهجة مسرحية مضطربة:

ـ بنتاه، يا بنتاه!

وكان الفتى يبغض الأسلوب المتكلِّف الذي تصطنعه أمه في الحديث

فنفد صبره وقال يستعجل أخته:

ـ هيا بنا يا سيبيل.

وخرجا إلى الشارع فوجدا النسيم يداعب ضوء الشمس، وسارا في طريق بوستون الموحش، وكان المارة يعجبون لمرأى هذا الفتى العابس الغليظ البنيان الرث الثياب الذي يرافق غادة رشيقة مهذبة رقيقة. وبدا چيمس ڤين لعيون المارة كبستاني جلف في يده باقة من أجمل الورود.

وكان وجه چيم يتجهَّم بين حين وآخر لفضول المارة فقد كان يكره أن يحملق الناس فيه كرهًا لا مزيد عليه، كرهًا كالكره الذي يتملَّك أوساط الناس لأنظار المتطفِّلين، كرهًا كالكره الذي يتملَّك العباقرة في نهاية حياتهم لأنظار المعجبين. على أن سيبيل لم تحس بالأثر الذي كانت تحدثه في نفوس العابرين لأن قلبها كان متيمًا معمودًا. وكان الحب الذي يملأ قلبها يشيع في شفتيها بشرًا وإشراقًا. لقد كانت تفكر في أميرها الساحر ولم تشأ أن تطرد عنها خياله الجميل فلم تجعله موضوع الحديث بل طفقت تلغو عن السفينة التي سيبحر عليها چيم، وعن الذهب الذي سيجده چيم في انتظاره حين يصل إلى أستراليا، وعن سيدة القصور الجميلة التي سينقذها چيم من براثن حرَّاس الأحراش. فچيمس لن يبقى بَحّارًا طول حياته. كلا! لن يبقى چيمس بحارًا طول حياته حبيسًا على ظهر سفينة قبيحة تتقاذفها الأمواج العاتية وتمزِّق قلوعها الرياح الممطرة السوداء وتهشِّم صواريها الأنواء! إن چيمس سوف يقصد ربان السفينة حين تبلغ السفينة ملبورن ويستودعه الله في أدب كثير ثم يترك السفينة وربانها ويقصد فورًا إلى مناجم الذهب، وقبل أن ينتهي الأسبوع سيعثر ولا شك على سبيكة ضخمة من الذهب الخالص، سبيكة لم يعثر إنسان على مثلها من قبل، ويحملها إلى الساحل في عربة يحرسها ستة من رجال الشرطة، ولسوف يهاجمهم حراس الأحراش ثلاث مرات فيردوا عنها ثلاث مرات بين قتيل وجريح ولائذ بالفرار. أو لعل چيمس لا يقصد إلى

مناجم الذهب أصلا، فهي بقاع مقفرة يسكنها السكارى ويقتل الناس فيها بعضهم بعضًا في الحانات، ويستخدمون أفحش الألفاظ. لعله يصبح راعيًا أنيسًا من رعاة الأغنام، وفيما هو عائد إلى بيته ذات مساء يرى رجلًا من قطاع الطرق يختطف سيدة جميلة من سيدات القصور ويطير بها على جواده الأسود فيطارده حتى ينقذ السيدة ويعود بها إلى أهلها سالمة. ولسوف تحبه سيدة القصور من أعماق قلبها، ولسوف يحبها هو من أعماق قلبه، ولسوف يتزوجان ثم يعودان إلى لندن حيث يقيمان في دار فخمة هي بهجة الناظرين. ولكن ينبغي عليه أن يكون حسن السلوك وألا يدع للغضب سلطانًا على نفسه أو يبدد ما جمعه من المال بحماقة. ولسوف تكون السيدة أكبر منه بعام واحد، ولكنها تعرف عن الحياة الكثير فتحميه بتجاربها وتقيه بحكمتها. كذلك سوف يكتب لها چيمس خطابًا مع كل عربة بريد، وسوف يتذكّر أن يتلو صلواته كل مساء قبل أن ينام. ولسوف يحرسه الله لأن الله يحب الناس. ولسوف تصلي هي من أجله كذلك ليحرسه بدل المرة مرتين. وبعد أن تنقضي سنوات قليلة سيعود إليها هنيء النفس واسع الثراء.

كان الفتى يستمع إلى حديثها في وجوم من دون أن يجيب عليها بشيء، فقد كان حزين النفس لفراق أهله.

ولم يكن هذا كل ما أحزن نفسه. لقد كان يحس رغم قلة تجاربه في الحياة بالخطر الذي يتهدَّد سيبيل. فهذا الوجيه الشاب الذي يناجي أخته بغرامه لا يمكن أن يكون سليم الطوية. لقد كان من طبقة السادة وهو لهذا يمقته. وهو يحقد عليه بالغريزة دون أن يجد مبرِّرًا لذلك، يحقد عليه حقدًا طبيعيًا متأصِّلًا قويًا. كذلك كان يعرف ما فُطِرت عليه أمه من الغرور وحب المظاهر، وهذا ما جسَّم خوفه على سيبيل ومستقبلها. إن الأطفال يبدأون حياتهم بإعزاز الوالدين ثم يكبرون فيزِنُوا فضائل الوالدين ورذائلهما، ولقد يغفرون لهم ذنوبهم أحيانًا.

لقد فكَّر في أمه كثيرًا! وكان يقلقه شيء أراد أن يسألها عنه. نعم، شيء أقضَّ مضجعه الليالي الطوال. لقد سمع قومًا ذات ليلة يتهامسون عنهما في سخرية وهو في انتظارهما بباب المسرح الخلفي فتلاطمت في رأسه الأفكار السوداء، وعادت تلك الهمسات الساخرة إلى ذاكرته فأوجعته كأنها السياط هوت على وجهه دون رحمة. وعبس من جديد وعضته البُرَحاء[1] فعضَّ شفته السفلى. قالت سيبيل:

ـ لقد كنت منصرفًا عني يا چيم، فلم تسمع كلمة واحدة مما قلت على حين كنت أنا أضع أجمل المشروعات لحياتك المستقبلة. تكلم يا فتى وقل شيئًا.

ـ وماذا تنتظرين مني أن أقول؟

فابتسمت وقالت:

ـ قل مثلًا إنك ستكون فتى بارًا وأنك لن تنسانا.

لكنه هز كتفيه استخفافًا وأجاب:

ـ بل نسيانك إياي أقوى احتمالًا من نسياني إياك.

فصعد الدم إلى وجهها وسألته قائلة:

ـ ماذا تعني يا چيم؟

ـ لقد بلغني أن لك صاحبًا جديدًا. من يكون هذا الرجل ولماذا أخفيت عليَّ أمره؟ أعتقد أنه لا يضمر لك خيرًا.

فصاحت به:

ـ كفى يا چيم! لا تقل فيه كلمة سوء فأنا أحبه.

قال الفتى:

ـ وكيف تحبين رجلًا تجهلين اسمه؟ من يكون هذا الفتى؟ إن من حقي أن أعرف.

(1) شدة الأذى من الحُمَّى.

ـ اسمه الأمير الساحر؛ ألا يعجبك هذا الاسم؟ أنت لا تعرفه أيها الولد الطائش، ولو أنك رأيته لوجدت فيه صورة الكمال، ولسوف تقابله يومًا ما بعد عودتك من أستراليا ولسوف تُولَع به. إن كل من يعرفه يولع به أمَّا أنا فأحبه. ليتك تأتي إلى المسرح هذا المساء، فلسوف يكون هناك، وأنا الليلة چولييت، ولسوف أجيد التمثيل إجادة ما بعدها إجادة. وكيف لا أجيده وأنا عاشقة ألعب دور چولييت! ولسوف يجلس قبالتي وأمثِّل لأرضيه وحده. لسوف أجيد حتى أسحر أعضاء الفرقة أو أخيفهم مني، فالحب سبيل الكمال ولسوف يصيح ذلك البائس إيزاك بصعاليكه ومتسكعيه في الحان قائلاً: «تعالوا واشهدوا! إن سيبيل ڤين ممثلة من ممثلات الجيل!» لقد آمن مستر إيزاك بمواهبي إيمانًا أعمى حتى اليوم، ولسوف يرى مواهبي تتكشف أمامه كرؤيا من رؤى الفردوس! إني لأحس بذلك من أعماقي، وكل ما أنا فيه قبس منه، فهو ضيائي، قبس من أميري الساحر، أميري وحبيبي وملهمي بمعاني الجمال، إنه غني بكل شيء، وأنا فقيرة في كل شيء. ولكن الفقر لن يغير من أمرنا شيئًا. يقولون إن الفقر إذا دخل من الباب خرج الحب من الشباك، أما أنا فأقول إن الفقر إذا دخل من الباب دخل الحب من الشباك. إن أمثالنا تحتاج إلى تنقيح يا چيم. إن أمثالنا وضعت في زمهرير الشتاء ونحن الآن في صيف الحياة، بل أنا الآن في الربيع ذي البراعم والعطور والسماء الضحوك.

قال الفتى في وجوم:

ـ إن صديقك هذا من طبقة الأشراف، أليس كذلك؟

فقالت بصوت عذب:

ـ بل هو أمير كريم.

ـ إنه يريد أن يستعبدك.

ـ وأنا أقبل هذه العبودية طائعة مختارة.

ـ احذريه يا سيبيل.

ـ كيف أحذره وأنا أثق فيه ثقة عمياء، وكيف أتخوف منه بعد أن اتخذت منه صنمي.

ـ هذا الحب جنون يا سيبيل.

فضحكت سيبيل وأمسكت بذراعه قائلة:

ـ چيم، يا حبيبي، إنك تتكلَّم كأنك شيخ طاعن في السن وما أنت إلا حدث صغير. وسوف يأتي يوم تذوق فيه الهوى بنفسك فتعرفه على حقيقته. فدع عنك هذا الوجوم يا چيم. ألا يسعدك وأنت راحل إلى أستراليا أن تعرف بأنك ستتركني أسعد نفسًا مني في أي زمن مضى؟ لقد قست الحياة علينا معًا، بل حطمتنا تحطيمًا. أما الآن فالأمور على خير ما يرام. فأنت نازح إلى عالم جديد، وأنا قد وجدت عالمًا جديدًا. هيا بنا نجلس على هذين المقعدين ونتأمل سراة الناس غادين رائحين.

وجلسا ترقبهما أنظار الناس، وكانت أزهار التوليب في الجانب الآخر من الطريق تهتز في الهواء وتضيء كالجمر الملتهب. واهتزت في الهواء كذلك سحابة معلقة بيضاء وبدت الشمسيات الزاهية الألوان التي يحملها السادة كأنها فراش جسيم.

وحملت سيبيل أخاها على أن يتحدَّث عن نفسه وعن آماله وأمانيه، وكان يتكلَّم في مشقة وأناة. وتبادل الأخ والأخت الكلام في عناية كأنهما لاعبان يتبادلان الكرة. أما سيبيل فقد اختنقت بأفراحها ولم تستطع الإفصاح عما بها، وكان كل ما ظفرت به من أخيها ابتسامة ارتسمت على فمه الحزين. ومرَّت بهما عربة مكشوفة. وفجأة لمحت سيبيل الأمير الساحر ذا الشعر الذهبي والفم البسَّام داخل العربة. لقد كان دوريان جراي يتنزه مع سيدتين.

ونهضت سيبيل من مكانها وصاحت قائلة:

ـ هو ذا! هو ذا!

قال چيم ڤين:

ـ من؟
أجابت وهي تتبع العربة ببصرها:
ـ الأمير الساحر.
فنهض الفتى وأمسك بذراعها في خشونة وقال:
ـ أين هو؟ أين هو؟ لا بد أن أراه!
ولكن مركبة الدوق بيرويك مرَّت أمامهما في تلك اللحظة وحجبته عنهما، فلما أخلت أمامهما الطريق كانت عربة دوريان قد انطلقت خارج هايد پارك.
قالت سيبيل في أسف:
ـ لقد خرج، فليتك رأيته يا چيم.
ـ نعم، ليتني رأيته، فإني أقسم أمام الله أني قاتله لو مسَّك بسوء.
فارتاعت الفتاة ولكن الفتى أعاد عليها كلماته فنفذت كالمدى إلى قلبها، وبدأ الناس يحملقون فيهما، وكانت على مقربة منهما سيدة أخذت تضحك منهما كالأطفال. قالت الفتاة:
ـ هيا بنا يا چيم. هيا بنا.
وشقَّت طريقها بين المتنزهين يتبعها أخوها، وأحسَّ چيم بالراحة بعد أن أسمعها وعيده، وحين بلغا تمثال أخيل التفتت إلى أخيها تكلمه وقد زخر قلبها بالعطف عليه فضحكت وهزَّت رأسها وقالت له:
ـ إنك لا زلت صبيًا أحمق يا چيم. إنك لا زلت صبيًا شرسًا أحمق لا أكثر ولا أقل، وأنت لا تفهم معنى ما تقوله. كل ما هنالك أنك تغار منه وهذا سر سخطك عليه. فليتك تجرِّب الحب يا چيم، إن الحب يهذِّب طبائع الناس، وما قلته الآن يدل على سواد قلبك.
فأجاب چيم:
ـ بل أنا أفهم معنى ما أقول فأنا في السادسة عشرة من عمري ولقد لاحظت أن أمنا لا تسهر على سلامتك. إنها لا تفهم كيف تكون التربية

الصالحة وإني لأفضل العدول عن السفر إلى أستراليا لأضع حدًا لهذا الخطر وأحميك من الغواية، ولولا أن أوراقي قد تم توقيعها فعلًا لبقيت معكما.

ـ لا تغتم كل هذا الاغتمام يا چيم، فالخطر الذي تتحدَّث عنه وهم من نسج خيالك، وأنت الآن تبدو كبطل من أبطال تلك المسرحيات العنيفة السخيفة التي كانت أمنا مولعة بتمثيلها، فلن أحاسبك على ما قلت ولن أفسد بالشجار هنائي الآن بعد أن رأيت الأمير الساحر. وأنا أعلم أنك لن تؤذي إنسانًا أعزه أنا، أليس كذلك يا چيم؟

فأجابها قائلًا:

ـ نعم، فلن أمسه بسوء طالما أنكِ تحبينه.

قالت:

ـ سأحبه حتى الموت.

ـ وإلى اي حدّ سيحبك هو؟

ـ سيحبني حتى الموت كذلك.

ـ من الخير له أن يخلص لك دائمًا.

فنفرت منه خوفًا، ولكنها عادت فضحكت وأمسكت بذراعه، فقد تذكَّرت أن چيم لم يكن سوى صبي غرير.

وبلغا ماربل آرتش في ركن هايد پارك ولوحا لأمنيبوس فوقف الأمنيبوس وحملهما إلى نقطة قريبة من بيتهما المتواضع في طريق يوستون. وكانت الساعة قد تجاوزت الخامسة، وكان على سيبيل أن تستريح نحو الساعتين قبل أن تبدأ التمثيل. وألح چيم عليها في أن تستريح وأراد أن يودعها قائلًا إن تلك اللحظة كانت أنسب لحظة للوداع فأمهما لم تكن حاضرة، ولو قد كانت لجعلت من الوداع مشهدًا مؤثرًا كعادتها في كل شيء وهو يمقت المشاهد المؤثِّرة مقتًا شديدًا. وتوادع الأخ والأخت في غرفة سيبيل، وكان قلب الفتى يلتهب بالغيرة، وكانت عيناه تومئان

بشر مستطير فقد توهَّم چيم أن هذا الدخيل ما جاء إلا ليفرِّق بينهما فثار في نفسه حقد قاتل. ولكنه ضعف أخيرًا حين عانقته أخته وراحت تعبث بأصابعها في شعره، ورق فؤاده فقبَّلها قبلة الحنان الصادق، وحين نزل على الدرج كانت الدموع تترقرق في عينيه.

وكانت أمه تنتظره في الطابق الأرضي فلما رأته بدأت تلومه على تأخره فلم يجبها بشيء بل جلس إلى المائدة ليتناول زاده القليل. وطنَّ الذباب حول المائدة ودبَّ على المفرش الملوَّث وكان يسمع عجيج الأمنيبوس وضجيج العربات الرائحات الغاديات في الخارج فيزداد إحساسه بفوات الزمن، وعلم أنه لا بد راحل بعد قليل.

وبعد لحظة دفع بالطبق بعيدًا عنه ووضع رأسه بين يديه، وأحسَّ أن من حقه أن يعرف الحقيقة. لقد كان الشك يأكله أكلًا، ولو أن شكه كان في موضعه لوجب على أمه أن تطلعه على الحقيقة من قبل. وكانت أمه ترقبه في خوف عظيم. كانت تتحدَّث إليه على نحو آلي دون أن تفقه كثيرًا مما تقول، وكانت أصابعها تعبث طيلة الوقت بمنديل ممزق حتى دقت الساعة السادسة فنهض ومشى إلى الباب، لكنه التفت إليها وأنشأ يتأملها وتلاقت عيونهما فقرأ في عينيها معاني الاستعطاف الشديد فغضب غضبًا شديدًا. قال:

ـ لدي سؤال أود أن أطرحه عليك يا أماه.

فتاهت عيناها في أنحاء الغرفة لا تستقران على شيء ولم تجب بكلمة. فاستأنف الفتى حديثه قائلًا:

ـ صارحيني بالحقيقة، فمن حقي أن أعرف كل شيء. أكنتِ متزوجة من أبي؟

فتنهّدتْ في ارتياح. ها قد جاءت اللحظة العصيبة التي كانت تخشاها طيلة الأيام والليالي. جاءت أخيرًا. ولكنها لم تشعر بالرعب القاتل الذي كانت تنتظره. حقًا لقد خاب أملها شيئًا ما، فقد كانت تتوقَّع موقفًا حرجًا

كمواقف المسرح، وهي وَلُوعٌ بمواقف المسرح. ولكن السؤال جاء بسيطًا لا تنميق فيه، بسيطًا إلى حدٍّ الابتذال، وكان لا بد من جواب بسيط كذلك. نعم، لقد كان السؤال خشنًا لا يدل على لباقة، جاء بلا تمهيد فذكرها ببروقة غير موفَّقة. أجابت في بساطة:

ـ كلا.

وعجبت لبساطة الحياة. وعجبت لما في هذه البساطة من غلظة. قال الفتى وهو يجمع قبضتيه:

ـ إذًا فقد كان أبي وغدًا.

فهزَّت رأسها وأجابت:

ـ لقد كان مقيَّدًا بامرأة أخرى، وكنت أعلم ذلك عنه، ولكننا تبادلنا الحب ولو أنه عاش لجعل لنا معاشًا منتظمًا. لا تقُل فيه سوءًا يا بني فهو أبوك على كل حال، ولقد كان فوق ذلك سيدًا كريمًا. نعم، لقد كان أبوك من أسرة كريمة.

فخرجت من فمه اللعنات وقال:

ـ أنا لا أفكر في أمري، ولكن أفكر في أمر سيبيل. فهذا الذي يحبها أو يزعم أنه يحبها سيد كريم كذلك، ولعله من أسرة كريمة. فما أشبه اليوم بالبارحة.

ومرَّت لحظات أحست فيها المرأة العجوز بذلّ عظيم، فطأطأت رأسها ومسحت دموعها بيد ترتجف وقالت:

ـ إن لسيبيل أمًا تحميها، أما أنا فلم تكن لي أم.

فتأثَّر الفتى أيما تأثر، واقترب منها وقبَّلها ثم قال:

ـ لقد آلمتكِ يا أماه بالكلام عن أبي فاصفحي عني، وأرجو أن تدركي أني اضطررت إلى ذلك اضطرارًا. والآن ينبغي أن أرحل فوداعًا، ولا تنسي أنه لم يعد لديك الآن إلا شخص واحد تسهرين عليه، وثقي أنه لو أصاب سيبيل مكروه بسبب هذا الرجل فإني لمطارده في أركان المعمورة

الأربع وإني لقاتله أشنع قتلة. أقسم بذلك أمام السماء.

وانتعش الجو حول مسز ڤين فقد كانت ترتاح إلى المواقف المسرحية وها هو ذا ولدها يرغي ويزبد ويهدِّد ويتوعَّد ويشير بيديه إشارات حانقة. لقد ألفت هذا الجو على المسرح وكانت تختنق كلما خرجت منه، فلما سمعت ولدها يتحدث على هذا المنوال عادت إلى حالتها الطبيعية وأحست نحوه بإعجاب شديد لم تحس به من قبل، ولقد كانت تود أن يستمر الموقف على هذه الدرجة من التوتر لولا أن ابنها وضع له حدًا. فالحقائب لا بد من حملها إلى الخارج، والكوفيات والمناديل وما أشبه ذلك لا بد من البحث عنها، والوقت ضيق، وقد تم كل ذلك فعلًا وأعقبته مساومة الحوذي على أجره. ولقد منيت مسز ڤين بخيبة أمل أخيرة. فقد كانت ترجو أن تكون لحظة الوداع عنيفة بدموعها، عنيفة بالحسرات. ولكنها وجدت نفسها تلوِّح لابنها في النافذة بمنديلها الممزَّق والعربة تبتعد به رويدًا رويدًا، نعم، لقد أفلتت منها فرصة كبرى كانت تستطيع أن تعرض فيها ملكاتها. ولكنها استعاضت عما فاتها بأن شرحت لسيبيل مبلغ وحشتها القادمة بعد أن رحل چيمس. فالآن لم يعد لها سوى شخص واحد تسهر عليه، ويا لوحشتها. وأعجبتها الفكرة، فاستظهرت العبارة استظهارًا، لعل الحاجة تدعو إليها في مناسبة أخرى. ولكنها لم تشر بكلمة إلى ما سمعته من وعيد. لقد كان الوعيد واضحًا لا ريب فيه، قويًا، أكيدًا، ولكنها لم تجد ما يبرره وأحسَّت بأنه سيكون موضع سمرهم في يوم من الأيام.

الفصل السادس

كان بين اللورد هنري وبازيل هوورلد ودوريان جراي موعد بمطعم بريستول في ذلك المساء. فلمَّا دخل هولوورد إلى الحجرة الصغيرة التي أعد فيها الطعام لثلالثتهم قال اللورد هنري:

ـ لعلك سمعت آخر الأنباء يا بازيل.

فأجاب الفنان وهو يسلِّم معطفه وقبعته لخادم المطعم الذي انحنى أدبًا:

ـ كلا، يا هاري، ما سمعت شيئًا، فما الخبر؟ أرجو ألا تروي عليَّ أخبار السياسة فأنا لا أهتم بها. ولست أجد بين أعضاء مجلس العموم شخصًا واحدًا يستحق أن أرسمه، وإن كانت كثرتهم المطلقة تحتاج إلى ترميم كثير.

قال اللورد هنري وهو يتأمَّل صاحبه ليرى فعل كلماته في نفسه:

ـ إن دوريان جراي قد عقد خطبته على فتاة.

ففزع هولوورد وأظلم وجهه وقال:

ـ هذا مستحيل!

ـ بل هذا صحيح.

ـ ومن تكون هذه الفتاة؟

ـ ممثلة.

ـ هذا كلام غير معقول، وعهدي بدوريان أنه أرشد من أن يرتكب حماقة كهذه.

ـ أليس من الرشد أن نرتكب الحماقات بين حين وآخر يا بازيل؟

ـ ولكن الزواج ليس من الحماقات التي نستطيع أن نركبها بين حين وآخر، يا هاري.

أجاب اللورد هنري في تراخ:

ـ هذا صحيح، ولكنه لا ينطبق على أمريكا. على أني لم أقل إنه قد تزوّج فعلًا. كل ما قلته إنه قد عقد خطبته على هذه الفتاة، والفرق عظيم بين أن تخطب الفتاة وأن تتزوج منها. فأنا لن أنسى أني متزوج مع أني نسيت أيام الخطبة. بل إنه ليخيل إليَّ أني لم أمر في دور الخطبة كسائر الناس.

ـ ولكن ألا يروِّعك أن يتزوج دوريان على نُبْلِ محتدّه وعلوّ مكانته وسِعَة جاهه من فتاة أقل منه في كل شيء؟

ـ إذا سمع دوريان منك هذا الكلام فهو لا بد ماض في عزمه. فالحماقة التي نرتكبها تأتي عادة من الدوافع النبيلة فينا.

ـ أرجو أن تكون هذه الفتاة طيبة القلب، ويسوءني أن أرى دوريان مشدودًا بوثاق من حديد إلى مخلوق بغيض يهوي به إلى الحضيض العقلي والخلقي.

فقال اللورد هنري وهو يشرب بعض الڤرموث[1] وعصير البرتقال:

ـ إنها جميلة، والجمال أعلى من طيبة القلب. نعم. لقد قال لي دوريان إنها جميلة، وهو قلما يخطئ في تقدير هذه الأمور إن الصورة التي رسمتها له كان لها أثر عجيب في تنمية إحساسه بالجمال لا يقل عن أثر تعاليمي. ونحن الليلة ذاهبون لرؤيتها، هذا إذا لم يخلف دوريان ميعاده.

---

(1) نوع من النبيذ، يستخدم كأساس لعمل الكوكتيلات.

ـ أأنت جاد في ما تقول؟

ـ طبعًا يا بازيل. لم أكن أكثر جدًا في أي وقت مني الآن.

وشرع الرسَّام يقطع الغرفة جيئة وذهابًا ثم عض شفته ألمًا وقال:

ـ ولكن أموافق أنت على هذا الزواج يا هاري؟ محال أن توافق فما هو إلا نزوة عارضة.

ـ لم أعد أوافق أو أعترض في هذه الأيام يا بازيل، فقد وجدت أن هذه فلسفة سخيفة نواجه بها الحياة. نحن لم نأتِ إلى هذا العالم لنطلع الآخرين على أحكامنا الأخلاقية، صحيحة كانت أم فاسدة. فأنا لا أكترث لما يقوله الدهماء وأنا لا أتدخَّل في ما يفعله الخاصة. فإن جذبتني شخصية إنسان ما وجدت ما يستهويني في كل عمل يعمله وفي كل كلمة يقولها، أيًا كانا. فمثلًا إذا أحب دوريان فتاة جميلة تمثل دور جولييت ورأى أن يخطبها إلى أهلها فلست أجد على ذلك اعتراضًا. ولو قد تزوَّج الإمبراطورة مسالينا[1] لما ارتفع في نظري عمَّا هو الآن. أنت تعرف أني لست من أنصار الزواج، فالنكبة الحقيقية في الزواج هو أنه يزيل أثرة الإنسان، والأثرة شيء لازم يضفي على الشخصية قوة وسحرًا، ومن خلوا منها خلوا من الشخصية المستقلة، ومع ذلك فإني أقول إن من الشخصيات ما يزداد بالزواج تعقدًا، فيستعيد أثرته المفقودة، بل تصبح الأثرة جملة أَنَوَات[2]، فلا يكتفي بحياة واحدة يحياها وإنما تتعدَّد فيه الشخصية وتصبح حياته منظَّمة متماسكة، وأحسب أن النظام والتماسك هما هدف الاختبار الإنساني. وأضيف إلى ذلك أن لكل اختبار قيمته في الحياة، ومهما ساء ظننا في الزواج فلن نستطيع أن ننكر أنه اختبار من اختبارات الحياة. وأرجو أن يتزوج دوريان جراي من هذه الفتاة ويحرق

---

(1) الزوجة الثالثة للامبراطور الروماني كلاوديوس، اشتهرت بتعدد علاقاتها الجنسية وقوتها وسلطتها، قيل إنها تآمرت على زوجها وتم إعدامها جراء ذلك.

(2) جمع «أنا» وفي الأصل الانجليزي Egos

لها الشموع ستة أشهر أو نحو ذلك ثم يزهد فيها ويتحوَّل عنها فجأة إلى غانية أخرى. فإن فعل ذلك كان موضوعًا للدراسة شائقًا.

ـ أنت لا تعني كلمة واحدة مما تقول يا هاري، وأنت أول من يعرف ذلك. ولو أن مكروهًا نزل بدوريان جراي لكنت أول من يأسف لحاله فأنت كريم النفس وإن تكلَّفت القسوة تكلفًا.

فضحك اللورد هنري وقال:

ـ إن منشأ احترامنا للآخرين هو خوفنا من ألا يحترمنا الآخرون، وأساس التفاؤل هو فزعنا من الكوارث لا أكثر ولا أقل. وإذا أحسنًا الظن بجارنا نسبنا إليه من الفضائل ما قد يعود بالفائدة علينا، فنحن نقرِّظ مدير البنك لعله يقرضنا بعض المال، ونصف قاطع الطريق بالبطولة لعله يتجاوز عما في جيوبنا. إنما قصدت كل كلمة قلتها يا بازيل، وأنا أحتقر التفاؤل احتقارًا لا مزيد عليه. أما ما تذكره من أن حياة دوريان قد تتحطَّم فيدخل في باب الهراء، لأن الحياة لا تتحطَّم إلا إذا توقَّفت عن النمو. وإذا أردت إفساد نفس فعليك بإصلاحها. أما الرباط المقدّس فغلطة حمقاء، وهو بديل سيئ لروابط أخرى بين الرجال والنساء أجدى عليهم وأعظم سلطانًا على نفوسهم، روابط أؤيدها أنا بكل ما بي من قوة، لأنها تعبِّر عن روح العصر الذي نعيش فيه. ولكن كفى لغوًا فها هو ذا دوريان قادم بنفسه علينا وسيزوِّدك بما أجهل من أخباره.

قال الفتى وهو يصافح صديقيه الواحد بعد الآخر:

ـ أمطِرا عليَّ التهاني يا عزيزي هاري وأنت يا عزيزي بازيل، فما أسعدني الآن. لقد تمَّت المسألة كلها فجأة ولكن هذه سُنّة الحياة فكل ما فيها من متع حقيقة تأتينا على حين غرَّة منَّا، ومع ذلك فإنها تبدو لي كأنها الشيء الوحيد الذي كنت أبحث عنه طوال حياتي.

وفيما كان يتكلَّم كان الدم يجري في وجنتيه من فرط السرور فزاده ذلك جمالًا على جمال.

قال هولوورد:

ـ أتمنَّى لك السعادة المتصلة يا دوريان، ولكني لا أغتفر لك إخفاء خطبتك عني مع أنك أطلعت هاري عليها.

ووضع اللورد هنري يده على كتف الفتى وقال:

ـ وأنا لا أغتفر لك تأخرك في العشاء. فلنجلس لنرى ماذا أعدّ لنا الطاهي الجديد، وفي هذه الأثناء تسرد أنت علينا كيف تم كل شيء.

قال دوريان وهم يجلسون إلى المائدة الصغيرة المستديرة:

ـ ليس عندي ما يستحق السرد. وكل ما حدث هو أني حين تركتك بالأمس يا هاري، عدت إلى منزلي وارتديت ملابس السهرة ثم تناولت عشائي في ذلك المطعم الإيطالي بشارع روبرت الذي دللتني عليه، ولمَّا بلغت الساعة الثامنة قصدت إلى المسرح. وكانت سيبيل تمثِّل روزاليند[1] وبطبيعة الحال كانت المناظر بشعة، بل كان كل شيء بشعًا ما خلا سيبيل، فقد تجلَّت في أبهى حال. ولما خطرت أمامي في زي صبي بدت آية من آيات الإبداع. كانت سترتها مخملًا أخضر ذا أكمام صفراء؛ وكانت تلبس تزلكًا رقيقًا داكن الصفرة وقبعة خضراء رشيقة عليها رياش مثبتة في جوهرة كريمة، وكان يغطِّي كتفيها معطف نصفي مخطَّط بالأحمر الداكن، فبدت لي أجمل ما تكون، وأشبهت في دقة تكوينها ذلك التمثال الإيطالي الصغير الذي يحلّي استوديو بازيل. وبدا وجهها وسط شعرها كوردة بيضاء وسط أوراق الشجر الكثيفة، ثم مثَّلت فأبدعت، ولسوف تريانها الليلة فيتحقَّق لكما ما أقول. إنها فنانة موهوبة ملكت عليَّ حواسي وأنا جالس في المقصورة الحقيرة، فأنستني أني كنت في لندن وأني أعيش في منتصف القرن التاسع عشر، وحملتني على جناح الخيال مع محبوبتي إلى غابة نائية لم ترها عين بشر. وبعد انتهاء التمثيل قصدت

(1) شخصية رئيسية في مسرحية شكسبير «كما تحبها».

إلى غرف الممثلين وتحدَّثت إليها. وفيما نحن جالسان رأيت في عينيها بريقًا جديدًا لم أعهده فيهما، واقتربت شفتاي من شفتيها وقبلتها. أما إحساسي في تلك اللحظة فلا سبيل إلى وصفه. لقد خيل إليَّ أن حياتي كلها قد تركزت في ذرة واحدة من السعادة التي ما بعدها سعادة، وأخذت تنتفض بين يدي كأنها نرجسة بيضاء تنتفض أمام ريح خفية، ثم جثت على ركبتيها وقبَّلت يدي. ما كان ينبغي أن أقول لكما ذلك ولكن قوة قاهرة تسوقني إلى أن أفضي بكل شيء. ومهما يكن من أمر فخطبتنا لا تزال سرًا لا يعرفه أحد، حتى أمها ذاتها، ولست أدري كيف يستقبل أوصيائي هذا النبأ، ولكن مما لا شك فيه أن اللورد رادلي سوف يغضب غضبًا شديدًا. فإن غضب فلست مقيمًا لغضبه وزنًا، لأني سأبلغ سن الرشد بعد عام واحد على كل حال. ألا ترى أني قد أحسنت صنعًا حين التمست فتاة أحلامي من عرائس الشعر واخترت شريكة حياتي من بين بطلات شكسبير؟ إن هاتين الشفتين اللتين علَّمهما شكسبير فن الحديث قد همستا في أذني أسرار قلبها العميق، ولقد طوّقتني روزاليند بذراعيها الجميلين ولقد قبلت ثغر چولييت فسكرت على الرحيق.

قال هولوورد في تؤدة:

ـ نعم يا دوريان أعتقد أنك أحسنت صنعًا.

وسأل اللورد هنري دوريان جراي قائلًا:

ـ أرأيتها اليوم يا دوريان؟

فأجاب الفتى وهو يهز رأسه دلالة النفي:

ـ كلا. فقد تركتها في غابة آردين وسأجدها في بستان ڤيرونا.

قال اللورد هنري وهو يشرب كأس الشمبانيا في تدبّر عميق:

ـ قل لي يا دوريان، متى أشرت إلى الزواج صراحة؛ وماذا أجابت حين عرضت عليها الزواج؟ أظنك قد نسيت كل ما جرى؟

ـ كلا يا صديقي هاري ولكني لم أبحث الزواج معها كما يبحث تاجر

صفقة، بل إني لم أطلب إليها الزواج بصورة رسمية. كل ما حدث هو أني ذكرت لها إني أحبها فأجابت بأنها لا تستحق أن تكون زوجًا لي، فما أشد تواضعها يا هاري! إن العالم كله لا يساوي عندي خردلة إذا قيس بها.

فقال اللورد هنري بصوت خافت:

ـ إن النساء عمليات إلى حد بعيد. نعم إن تفكيرهن أكثر عملية من تفكير الرجال. ففي مثل هذه المواقف كثيرًا ما ننسى أن نشير إلى الزواج ولكنهن يذكّرننا دائمًا به.

فأمسك هولوورد بذراعه قائلًا:

ـ كفى يا هاري. لا تحرِّض دوريان على الغدر فهو يختلف عن سائر الناس. إن طبيعته الصافية تأبى عليه أن يُنزل بأحد ضرًّا. وإنك لتغضبه بهذا الكلام.

فأجاب اللورد هنري بقوله:

ـ إن دوريان لا يغضب مني أبدًا. لقد سألته هذا السؤال بدافع الفضول، وهو الدافع الوحيد الذي يجيز لنا أن نسأل الأسئلة. ومن رأيي أن النساء هن اللاتي يخطبننا، اللهم إلا عند أبناء الطبقة المتوسطة، وتفسير ذلك أن الطبقة المتوسطة طبقة رجعية.

ـ فضحك دوريان جراي وهز رأسه قائلًا:

ـ لا سبيل إلى إصلاحك يا هاري، ولكن قل ما تشاء فلن يغضبني كلامك، ولو أني أردت أن أغضب منك لما استطعت ذلك. إن الرجل الذي يمس سيبيل ڤين بسوء جبان دنيء ولسوف تشاركني رأيي حين تراها. ثم إني لا أفهم كيف يلوِّث إنسان الشيء الذي يحبه. فأنا أحب سيبيل، ولذلك تراني أود أن أضعها على قاعدة من ذهب سبيك وأن أشاهد العالم يتعبَّد للمرأة التي أملكها. وما الزواج؟ أليس الزواج عهدًا لا ينقض؟ إنك تسخر من الزواج يا هاري، ولكن موقفك موقف خاطئ. أما أنا فأريد أن آخذ على نفسي عهدًا لا ينقض، ولسوف تجعلني ثقتها فيَّ

وفيًا على الميثاق، ولسوف يجعلني إيمانها بي أصفى نفسًا وأنقى ضميرًا. لقد بدَّلني حبها من حال إلى حال فإن مسَّت يدها يدي ألهتني عن كل ما في الدنيا، ألهتني عنك وعن نظرياتك الجميلة السامة.

قال اللورد هنري وهو يتناول قليلًا من السلطة:

ـ أي نظريات تعني؟

ـ أعني نظرياتك في الحياة وفي الحب وفي اللذة. بل أعني كل نظرياتك يا هاري.

فأجاب اللورد هنري بصوت عذب بطيء:

ـ اللذة هي الشيء الوحيد الذي يستحق أن توجد فيه النظريات. وعلى كلّ فأنا لا أدعي أن نظرياتي من عملي فهي من عمل الطبيعة. إن اللذة ،قياس الطبيعة ودليل رضاها، فالسعداء دائمًا أخيار ولكن الأخيار ليسو دائمًا سعداء.

قال بازيل هولوورد:

ـ ولكن ماذا تفهم من كلمة الخير.

وقال دوريان جراي وهو يغوص في مقعده وينظر إلى اللورد هنري من وراء الأزهار الحمراء التي تزين المائدة.

ـ نعم. ماذا تفهم من كلمة الخير يا هاري؟

فأجاب اللورد هنري وهو يقبض على كأسه بأصابعه الشاحبة النحيلة:

ـ الخير هو انسجام الإنسان مع نفسه. والفوضى هي اضطرار الإنسان للانسجام مع الغير. إن حياة الإنسان هي كل ما له في هذا الوجود، أمَّا حياة الجيران فليست من اختصاصنا وإن كنَّا نظهر الاهتمام بها من باب النفاق الاجتماعي أو من باب التدين الشديد. ثم إن للفردية غاية سامية هي ضمان التقدُّم، ولقد أصبح المقياس الحديث في الأخلاق قبول مقاييس العصر الذي نعيش فيه، أما أنا فأقول إن قبول مقاييس العصر الذي نعيش فيه عمل مناف للأخلاق وخطأ لا يغتفر لأي رجل مثقف.

قال الرسَّام:

ـ ولكن من عاش لنفسه فقط دفع الثمن غاليًا يا هاري.

ـ نعم، فنحن الآن ندفع ثمن كل شيء غاليًا حتى السلع التي نشتريها. وأني أعتقد أن المأساة الحقيقية في حياة الفقراء هي أنهم لا يملكون إلا تضحياتهم يجودون بها للمجتمع. أما الخطايا فهي ترف لا يملكه إلا الأغنياء.

ـ لم أقصد أننا ندفع الثمن نقدًا يا هاري.

ـ إذا فكيف ندفعه يا بازيل؟

ـ قصدت أن الثمن الذي ندفعه هو تأنيب الضمير والآلام والإحساس بالانحطاط.

فهز اللورد هنري كتفيه وقال:

ـ إن فن العصور الوسطى جميل حقًا ولكن أفكار العصور الوسطى أفكار بالية، وعواطف العصور الوسطى عواطف لا مجال لها في العصر الحديث. نحن بالطبع نستطيع أن نستفيد منها في القصص الذي نكتبه ولكن هذا من خصائص القصص، فكل ما ننبذه في الحياة نجد له مكانًا في القصص. أؤكد لك أنه ما من رجل متحضِّر يأسف على لذة جناها وما من رجل متبربر يعرف اللذة كيف تكون.

قال دوريان جراي:

ـ اللذة عندي هي أن أتعبَّد لكائن ما.

فقال اللورد هنري وهو يعبث ببعض الفواكه الموضوعة على المائدة.

ـ هذا أفضل من أن يتعبد الغير لك، لأن ذلك مدعاة الضجر. إن النساء يعاملننا كما نعامل نحن الآلهة، فهن يحرقن لنا البخور ويضايقننا بمطالبهن التي لا تنتهي.

وبدا الجد على وجه الفتى وقال:

ـ يخيل إليَّ أنهن يأخذن ما أعطين لا أكثر ولا أقل. لقد غرسن في

قلوبنا الحب، وأعتقد أن من حقهن أن يطلبن استرداد هذا الحب.

فقال هولوورد:

ـ أنا من رأيك يا دوريان. فهذا صحيح تمامًا.

قال اللورد هنري:

ـ ليس في الوجود ما هو صحيح تمامًا.

فقاطعه دوريان قائلًا:

ـ ولكن لا بد أن تعترف يا هاري بأن النساء يعطين الرجال أنفس شيء في حياتهن ألا وهو ذهب الشباب.

فأجاب اللورد هنري:

ـ هذا جائز، ولكنهن بلا استثناء يردن استرداد هذا الذهب منا مفكوكًا وهذا ما يحزن الإنسان. إن النساء كما وصفهن ذكي من أذكياء فرنسا يلهبن فينا الرغبة في القيام بروائع الأعمال ثم يمنعننا عن تنفيذ هذه الرغبة.

ـ أنت شخص لا يطاق يا هاري، ولست أدري فيم تعلقي بك.

فأجاب اللورد هنري:

ـ إنك ستتعلَّق بي دائمًا. أتريدان القليل من القهوة؟ هات لنا بعض القهوة وبعض الشمپانيا وبعض السجائر يا چون. كلا يا چون لا تأتِ بسجائر لأن معي منها ما يكفي. لن أسمح لك يا بازيل بأن تدخِّن السيجار فخذ سيجارة. إن السيجارة هي أحسن مثل لأحسن متعة، فهي لذيذة وهي لا تشبع حواسك تمامًا، وهل بين متع الحياة ما هو خير من ذلك؟ نعم يا دوريان، إن حبك لي لن يفتر أبدًا، فأنا أمثِّل لك جميع الرذائل التي لا تجرؤ على الانغماس فيها.

فقال الفتى وهو يشعل سيجارته من نار قدَّمها خادم المطعم له تخرج من فم تنين صُنع من الفضة:

ـ ما هذا الهراء يا هاري! هيا بنا إلى المسرح، ولسوف تتغيَّر أراؤك في الحياة حين تشاهد سيبيل تخطر أمامك على الخشبة، فهي تمثِّل جانبًا من

الوجود لم يصل بعد إلى علمك.

أجاب اللورد هنري:

ـ هذا مستحيل لأن علمي أحاط بكل شيء ولكني نهم إلى كل إحساس جديد، وإن كانت نفسي كذلك لا تتسع لإحساس جديد لأنها جرَّبت كل شيء. مهما يكن من شيء فمن الجائز أن تثيرني صديقتك الصغيرة الفاتنة، فأنا أحب التمثيل وأجده أقرب إلى الواقع من الحياة. هيا بنا. اركب معي يا دوريان في عربتي، أما أنت يا بازيل فيؤسفني أن أطلب إليك أن تستأجر عربة وتلحق بنا لأن عربتي لا تتسع إلا لشخصين.

ونهض ثلاثتهم وارتدوا معاطفهم وشربوا قهوتهم وقوفًا. أما الرسَّام فكان صامتًا منشغل الباب على وجهه وجوم. لقد كان يجد في هذا الزواج غلطة كبرى، ومع ذلك فقد أحس أنه أهون شرًا من سواه. وبعد دقائق كانو جميعًا خارج المطعم وسعت به العربة التي استأجرها تتبع عربة اللورد هنري فأنشأ يتأمل أنوارها الباهرة. وغمره شعور بأنه أضاع شيئًا ثمينًا. أحس بأن دوريان جراي قد خرج من حياته ولم يعد يلهمه بشيء كما كان يفعل في الماضي. لقد حالت بينهما الحياة. وأظلمت الدنيا في عينيه وسبحت أمامه المصابيح الثاقبة، ولم يعد يرى المارة في وضوح. فلمَّا أن بلغ باب المسرح أحس بأنه قد كبُر أعوامًا وأعوامًا.

الفصل السابع

كانت دار التمثيل في تلك الليلة تعج بالنظارة لسبب لا يعلمه أحد، ووقف اليهودي البدين بباب الدار يستقبلهم وهو منشرح الصدر طافح بالبشر، وقاد ثلاثتهم إلى المقصورة الخاصة بهم في احتشاد عظيم وفي خيلاء معًا، مشيرًا بيديه الغليظتين المرصعتين بالجواهر في كل اتجاه متحدثًا إليهم في صوت مرتفع كأنهم صُمٌّ لا يسمعون. فأحس دوريان جراي نحوه ببغض شديد. أحس بأنه قدم ليرى ميراندا فلم ير إلا كاليبان. أما اللورد هنري فقد ارتاح إليه، أو على الأقل زعم انه ارتاح إليه ولم ينسَ أن يصافحه بحرارة وأكّد له أنه فخور بمعرفة رجل مثله أفقره الشعر واستطاع أن يستكشف عبقرية مدفونة كسيبيل ڤين، على حين كان هولوورد يسلّي نفسه بتصفح وجوه الرعاع المحتشدين في المقاعد الرخيصة، وكان الحر قائظًا وتدفّق في المسرح شعاع عظيم بقي من الشمس الغائبة، شعاع بدا كزهرة جسيمة صفراء أوراقها لَهُب هائلة. وخلع الشبان الذين ملأوا شرفات الدار ستراتهم ووضعوها بجانبهم وأنشأ بعضهم في طرف المسرح يتحدَّث إلى بعضهم في الطرف الآخر، ويقتسمون ما معهم من البرتقال مع الفتيات ذوات الهيئة الرثة الجالسات إلى جوارهم. ورن ضحك النسوة من أسفل القاعة فجاء حادًا مزعجًا، ومن البار ارتفع صوت الفلين يخرج من زجاجات الشراب. قال اللورد هنري:

ـ يا لها من مباءة بخسة هذه التي وجدت فيها قدسك!

فأجاب دوريان جراي:

ـ نعم إنها لمباءة بخسة، ولقد وجدت فيها قدسي. أن سيبيل ڤين قبس منٍ الله لم يحل بعد في بشر. ولكنك ستنسى هذه المباءة حين تراها تمثِّل. ولسوف تبصر هذه الوحوش الآدمية الغليظة الملامح الخشنة الطباع تُستأنس حين تخطر سيبيل أمامها على المسرح، ولسوف تراها تجلس في صمت شاخصة العيون، تضحك وتبكي بإيماءة منها. إن قلوبهم تستجيب لها استجابة الكمان للقوس. إنها تبث فيهم من عندها روحًا وتسمو بهم عن صدأ المادة، وحين أراهم في هذه الحالة أحس بأنهم خلقوا حقًا من طينتنا، نحن النبلاء.

فقال اللورد هنري وهو يتفحَّص الأوباش في الشرفات بمنظاره المكبِّر:

ـ هذه قسوة منك يا دوريان، فكيف تقول إنهم خلقوا من طينتنا.

قال الرسَّام:

ـ لا تلقِ إليه بالًا يا دوريان، وأنا أفهم بالضبط معنى ما تقول وأشاركك إيمانك بهذه الفتاة. إن فتاة تختصها أنت بحبك لا بد أن تكون درَّة بين النساء، وإن فتاة تترك في نفسك كل هذا الأثر لا بد أن تكون مخلوقًا ساميًا نبيلًا. نعم، إن فتاة تنفخ الروح في هذه الجمادات المتحرِّكة، وتودع الإحساس بالجمال في نفوس ممسوخة مظلمة، وتنزع الأثرة من قلوبهم فتستدر دموعهم لفجائع لا تمسهم شخصيًا لخليقة بحبك العظيم، بل لخليقة بأن تقدسها الدنيا بأسرها. لقد عدلت عن رأيي السابق وأني لأوافق على هذا الزواج من كل قلبي. إن الآلهة خلقت سيبيل ڤين من أجلك يا دوريان، ولن تكتمل نفسك إلا بها.

فأمسك دوريان جراي بيده وضغط عليها في حرارة وقال:

ـ شكرًا لك يا بازيل. لقد كنت أعرف أنك ستفهمني، أما هاري

فهو يسخر بكل شيء، وهذا يرعبني، ولكن كفى حديثًا الآن فقد بدأت الموسيقى تمهِّد للتمثيل، وأرجو أن تحتملاها في صبر لأن هذه الألحان المزعجة ستنتهي في دقائق حين يرتفع الستار، وعندئذ ستريان الفتاة التي سأكرّس حياتي لإسعادها، نعم، ستريان الفتاة التي وهبتها خلاصة نفسي.

وبعد ربع ساعة ظهرت سيبيل ڤين على المسرح بين دوي من التصفيق يصم الآذان. وقد نجحت في الامتحان الأول نجاحًا باهرًا، فقد رأى الرجلان جمالها الرائع وأُخذا به. بل إن اللورد هنري رأى أنها نادرة بين النساء. وبدت كحورية خجول جفلى، وحين وقع بصرها على الحشد الحاشد المتحمِّس في جنبات الدار احمرًّ خدها حياءً فبدا كخيال وردة في صفحة فضية. وتراجعت خطوات وارتجفت شفتاها فنهض بازيل هولوورد وأنشأ يصفِّق تحية لها، واسترسل دوريان جراي في حلم طويل محملقًا فيها كالمحملق في رؤيا عجيبة، أما اللورد هنري فكان يتأملها بمنظاره ويردِّد قوله: «ما أبدعها حقًا! ما أبدعها!».

وكان المشهد صحن دار كاپيوليت، ودخل روميو مع مركشيو وأترابه في زي زائر الحرم وعزفت الفرقة بعض الألحان الإيقاعية. وبدأ الرقص، ومشت سيبيل ڤين بين جمهرة الممثلين ذوي الثياب البالية كأنها مخلوق علوي مُوفد من عالم الأحلام. وتثنَّى جسدها أثناء الرقص كعود الخيزان، ولاحت تجاعيد جيدها كطيات السوسن الأبيض، وبدت يداها الناعمتان كأنهما قُدتا من العاج الأملس المنعش.

ولكن فتورها كان ملحوظًا، وحين وقع بصرها على روميو لم يبدُ عليها الفرح لمرآه، وحين بدأت تقول: «أيها الزائر الحرم، إلا رفقًا بيدك...» وما أعقب ذلك من كلمات قليلة بدا حديثها متكلفًا للسامعين. كان صوتها جميلًا حقًا، ولكنه كان زائف التلوين لا إحساس فيه، فأفسد طعم الشعر الجميل، وجعل من عاطفة چولييت الصادقة عاطفة باردة مصطنعة.

وشحب وجه دوريان جراي وهو يتتبَّع كلماتها واستبد به القلق وحار

في أمرها. ولم يجسر صديقاه على مكاشفته بحقيقة الأمر، بأن سيبيل ڤين ممثلة ساقطة، بأن سيبيل ڤين خيَّبت ظنهما إلى أبعد حد.

ومع ذلك فقد أحسَّا بأن منظر الشرفة في الفصل الثاني هو المقياس الحقيقي لكل چولييت فأزمعا على الانتظار ليصدرا فيها حكمًا نهائيًا.

وجاء منظر الشرفة فأطلَّت منها وغمرها نور القمر فكانت آية في الفتنة، ولكن تمثيلها كان مفتعلًا إلى حدٍّ لا يُطاق، بل كان يزداد افتعالًا باطراد حتى أمست اشارتها مضحكة، وكانت تؤكِّد كل عبارة تقولها بلا داع فمسخت جمال الأبيات التالية:

وإنّ ما سمعت من كلامي
ألهب فيَّ خفر العذارى
لكن كفُّ الليل يا حبيبي
لثم بخمار نكس وجهي
فلم تعد ترى ضرام خدي

ورنَّت في آذان سامعيها كقطعة من المحفوظات تلقيها تلميذة تولى تدريبها مدرس في الإلقاء لا يتقن فنه، وحين اتكأت على الشرفة وقالت:

أنت ملكت القلب، بيد أني
أضرع لك لا تستعجلنِّي
باغتنا الغرام يا غرامي
كالسيل، أو كالبرق في الجوزاء،
تأكله الظلماء قبل قولي:
«انظر لقد أبرقت السماء!»
إلى الغد المأمول يا حبيبي
عسى براعم الهوى بقلبي
تزهر عند الصبح، فوداعا!

خرجت الكلمات من فمها ميتة كأنها لا تعني شيئًا، ولم يكن بها أدنى

اضطراب بل كانت تملك زمام نفسها بيدها مما زاد الموقف سوءًا. نعم، لم يكن هناك موضع للاعتذار لها، فلقد كانت تجهل أصول فنها وهذه خلاصة القول، ولقد كان فشلها ذريعًا. حتى السوقة الذين غصَّت بهم شرفات الدار ومقاعدها الرخيصة تململوا في أماكنهم، وبدأوا يتحدَّثون بأصوات مسموعة ويصفِّرون استنكارًا. كل ذلك واليهودي مدير الدار واقف في منتصف الدار يضرب الأرض بقدمه ويفوه بالألفاظ النابية. وكانت سيبيل ڤين الشخص الوحيد الذي لم يهتز لشيء مما يجري. ولما انتهى الفصل الثاني ارتفعت صيحات التهكُّم من كل جانب.

ونهض اللورد هنري وارتدى معطفه وقال:

ـ إنها فاتنة حقًا يا دوريان، ولكنها لا تعرف شيئًا عن فن التمثيل. لننصرف الآن، فهيا بنا.

فأجاب الفتى في مرارة شديدة:

ـ سأبقى أنا هنا لأشاهد الرواية حتى نهايتها ولكم يؤسفني أني أفسدت عليك المساء يا هنري. أرجو أن تقبلا اعتذاري.

فقاطعه هولوورد بقوله:

ـ لا جناح عليك يا صديقي دوريان، فلعل الآنسة ڤين مريضة، وسوف نأتي لمشاهدتها في ليلة أخرى.

قال دوريان جراي:

ـ ليتها كانت مريضة، ولكن الحقيقة تخالف ذلك، فقد بدت لي باردة خلت من كل شعور وأؤكد لك أنها لم تكن كذلك من قبل. لقد كانت بالأمس فنانة من الطراز الأول وهي اليوم ممثلة فاشلة لا تعرف عن صناعتها شيئًا.

قال هولوورد:

ـ لا تتكلَّم بهذه اللهجة عمن تحب يا دوريان، فالحب أسمى من الفن بدرجات.

فقال اللورد هنري:

ـ إنما الحب والفن أسلوبان في التقليد. ولكن هيا بنا يا بازيل. أمَّا أنت يا دوريان فلستُ أنصح لك بالبقاء لأن مشاهدة التمثيل الزائف تفسد الأخلاق. ثم إن المسألة ليست ذات بال فأعتقد أنك لن تسمح لزوجتك أن تظهر على المسرح. إنها جميلة حقًا ولو أن خبرتها بالحياة كانت قليلة كخبرتها بالتمثيل لكانت لك فيها دراسة ممتعة. ففي الناس نوعان يخلبان لبي، الناس الذين يعرفون كل شيء والناس الذين لا يعرفون شيئًا. إن من يراك الآن يا دوريان يحسب أنك فجعت في أعز عزيز لديك، فدع عنك هذا الوجوم لأن الأمر لا يستحق كل هذه اللوعة، ولأذكرك بأن سر الشباب هو المرح الدائم تعال معنا إلى النادي حيث نشرب نخب جمال سيبيل ڤين. هي جميلة ما في ذلك ريب، فماذا تطلب أكثر من هذا؟

قال الفتى:

ـ اتركاني وحيدًا، فإني أريد أن أخلو بنفسي. هيا انصرف يا هنري، وأنت يا بازيل انصرف. ألا تريان أن قلبي يتمزق.

واغرورقت عيناه بالدمع السخين وارتجفت شفتاه وعاد إلى مقصورته على عجل وهناك وقف مستندًا إلى الحائط وقد دفن وجهه في راحتيه.

قال اللورد هنري في حنان ليس من طبعه:

ـ هيا بنا يا بازيل.

وانصرف الرجلان.

وبعد لحظات أضاءت أنوار المسرح وارتفع الستار وبدأ الفصل الثالث. وأخذ دوريان جراي مكانه من المقصورة شاحب الوجه بادي الفتور وقد استعاد كبرياءه المجروح. ومرَّت الرواية ثقيلة كأنها بغير نهاية. وانصرف نصف الحاضرين وهم يضربون الأرض بأقدامهم الثقيلة ويضحكون ساخرين. وحين جاء الفصل الأخير كانت الدار خاوية فيما عدا رجل هنا ورجل هناك، وانسدل الستار فضحك قوم وتأوه آخرون.

لقد سقطت الرواية.

وما أن انتهى التمثيل حتى بادر دوريان جراي بالذهاب إلى غرف الممثلين وكانت الفتاة واقفة بمفردها هناك وعلى محياها أمارات الانتصار وفي عينيها بريق جميل، وكانت تشع نورًا كأنها ملك من السماء وقد انفرجت شفتاها الباسمتان فلاح أن لديها سرًا تخفيه. وحين دخل دوريان جراي تأملته فسرت في فؤادها نشوة عظمى. قالت:

ـ ما كان أقبح تمثيلي الليل يا دوريان!

فأجاب وهو يحملق فيها عاجبًا:

ـ لا حد لشناعته. لا حد لشناعته. أمريضة أنت؟ لا حد لشناعته، لقد أشقيتني شقاء لا مزيد عليه.

ابتسمت الفتاة وقالت وهي تترنم باسمه:

ـ لقد كان ينبغي أن تفهم يا دوريان، ولكنك تفهم الآن. أليس كذلك؟

فأجابها غاضبًا:

ـ أفهم ماذا؟

ـ تفهم السر في سقوطي الليلة، بل تفهم السر في سقوطي من الآن فصاعدًا. لن أستطيع الإجادة بعد اليوم يا دوريان.

هز كتفيه وقال في استخفاف:

ـ أعتقد أنك مريضة، وحين تكونين مريضة تجنَّبي التمثيل لأنك تضحكين الناس منك. لقد كان معي صديقان فقتلهما الملل. ولقد قتلني الملل كذلك.

وبدا عليها أنها منصرفة عنه. لقد غمرتها سعادة عظمى ألهتها عن كل شيء. قالت:

ـ لقد كان التمثيل عندي شغل الحياة قبل أن أعرفك يا دوريان بل لقدأصبحت الحياة عندي تمثيلًا وأصبح التمثيل الحياة. فأنا الليلة روزاليند وغدًا پورشيا وكانت أفراح بياتريس أفراحي وأحزان كورديليا

أحزاني، وكنت أرضى بكل شيء فهؤلاء الممثلون التافهون كانوا موضع إعجابي، وكانت مناظر المسرح هي الدنيا التي أعيش فيها. هذه الظلال ملأت حياتي فخلتها حقائق حتى جئت أنت يا حبيبي وأعتقت روحي من هذا الإسار وعلَّمتني ما تكون الحقيقة. وهذه أول ليلة في حياتي أحس فيها بأن هذا الموكب الذي أسير فيه زائف أجوف سقيم. هذه أول ليلة أحس فيها بأن روميو الذي يشخص على المسرح أمامي رجل قبيح مزوّق بالطلاء، وبأن نور القمر والحديقة زائفان جميعًا وأن الكلمات التي أتفوه بها زائفة كذلك، لأنها لم تكن كلماتي ولم تعبر عن الشعور الذي يخالجني. أما أنت فقد منحتني شيئًا لا زيف فيه، شيئًا أسمى من الفن، شيئًا ما وجد الفن إلا ليعبر عنه. لقد جعلتني أفهم معنى الحب الحقيقي. أنت حبيبي ومولاي وأميري الساحر، ولقد سئمتُ الظلال يا حبيبي، وإنك عندي لأثمن من فنون العالم جميعًا. فما بقائي بين هذه الدمى التي لا حياة فيها؟ لم أفهم في البدء كيف تبدَّل حالي وخِلتُ أني سأوفَّق الليلة توفيقًا عظيما فلمَّا بدأت أتكلم عرفت أن كل شيء قد ضاع مني وإني الآن مخلوق جديد. ثم أدركت فجأة أن هواك هو الذي بدل نفسي فطربت طربًا شديدًا. وحين سمعت الناس يتهكمون بي لم أغضب بل ابتسمت لأني أعرف ما لا يعرفون. وكيف يعرف هؤلاء السوقة معنى غرامنا العظيم؟ إني أمقت المسرح يا دوريان فخذني معك حيث تشاء، ولنعش في عزلة عن الناس. وكيف أمثِّل بعد اليوم؟ إني إن استطعت أن أصطنع عاطفة لا أحس بها فلن أستطيع أن أصطنع عاطفة تكوي قلبي وتفري كبدي. أنت تفهم الآن سر سقوطي الليلة يا دوريان. ولو أني استطعت أن أجيد بعد اليوم لكان تدنيسًا لحبنا أن أمثِّل دور المحبة وأنا محبة. لقد تعلمت هذا منك يا دوريان.

فارتمى على أريكة بالغرفة وأشاح بوجهه قائلًا:

ـ لقد قتلتِ حبي لك.

فنظرت إليه عاجبة وضحكت ولكنه لم يقل شيئًا فدنت منه وأنشأت تعبث بشعره ثم جثت إلى جواره وأمسكت بيديه وضمتهما إلى شفتيها فسرت في جسده رعشة قوية وجذب يديه بعيدًا. ثم نهض وسعى إلى الباب وقال:

ـ لقد قتلتِ حبي لك. فقد كنت تحركين خيالي أما الآن فأنت لا تحركين فيَّ شيئًا حتى فضولي. لقد ضاع أثرك في نفسي، ولم يعد لكِ عليها سلطان. لقد أحببتكِ لأنكِ كنتِ صاحبة فن عظيم، لأنك أوتيت الفطنة والنبوغ، لأنك حققتِ أحلام الشعراء وجسدتِ ظلال الفن. ولكنكِ تخليتِ عن كل هذه الأشياء فما أغباكِ وما أتفهكِ. يا إلهي! لقد كان حبي لكِ جنونًا مطبقًا فما كان أغباني، ولكنكِ خرجتِ من قلبي تمامًا، فلن أسعى لرؤيتك بعد اليوم، ولن أفكر فيكِ، ولن يرد اسمكِ على فمي. لقد كنتِ لي بهجة الحياة، بل كنتِ لي قوت الروح فما أشقاني الآن. لقد أفسدتِ عليَّ جمال الحياة فليتني لم أعرفكِ مطلقًا. فإن كنتِ تحسبين أن الحب يفسد الفن فما أجهلكِ بالحب! وأنتِ بغير الفن لا تساوين شيئًا، ولكنكِ اخترتِ سبيل الضلال ولو أنكِ آمنتِ بالفن لجعلتك قبلة الأنظار ورفعتكِ على سائر النساء ووهبتكِ اسمي وسموت بكِ حتى يراكِ كل من في الدنيا، ولكنكِ ركلتِ كل هذا بقدمكِ فماذا جنيتِ من ذلك؟ ما أنتِ الآن إلا ممثلة تافهة لها وجه صبوح.

فشحب لون الفتاة وارتعدت فرائصها وانطبقت يداها واحتبس الصوت في حلقها وقالت:

ـ أأنت جاد في ما تقول يا دوريان؟ إنك تمثِّل دور الحانق لتخيفني.

قال الفتى في مرارة:

ـ بل أترك التمثيل لكِ لأنكِ تحذقينه كل الحذق.

فنهضت الفتاة ومشت إليه في ألم بالغ وأمسكت بذراعه وأنشأت تقرأ ما تقوله عيناه، فدفعها بعيدًا عنه وقال:

ـ لا تمسيني.

وجثت الفتاة عند قدميه وانبعث منها أنين مكتوم فبدت كزهرة جميلة سحقتها الأقدام، وأخيرًا همست قائلة:

ـ لا تتركنِي يا دوريان، لا تتركنِي. لقد كنتُ أفكر فيك طول الوقت فألهاني ذلك عن إجادة عملي، فاغفر لي ذلك وإني لأعدك بأني سأجتهد في المستقبل أن أتقن دوري ما استطعت إلى ذلك سبيلًا. لقد ملأ حبك نفسي فجأة، ولولا أنك قبلتني لما عرفت الحب. أجل لولا تلك القبلة لما استيقظ حبي ولظل نائمًا في صدري، فقبلني يا حبيبي مرة أخرى لتطفئ شوقي إليك. أضرع إليك لا تتركني، إن أخي توعد بأن.. ولكنه لم يكن جادًا في وعيده. ألا تستطيع أن تغفر لي ما حدث الليلة؟لا تنسَ أن هذه أول مرة أقصِّر فيها وسوف أجتهد لأتقن عملي ما وسعني الاجتهاد. لا تقس في عقابي لأني أحمل لك كل هذا الحب، ولكني أرى الآن أنك على حق في ما تقول، فقد كان خسة فيّ أن أستخف بالفن لأني عرفت الحب أو أن أجد في الحب ما يصرفني عن الفن. أعترف لك بأن هذا كان حماقة مني، ولكني لم أكن مختارة في ما فعلت، فأرجو منك الصفح على ما مضى ولا تتركني، أواه! لا تتركني!

وخنقتها العبرات فلم تقو على الكلام، وظلَّت طريحة على الأرض كأنها حيوان جريح، فأخذ دوريان ينظر إليها في احتقار قاتل ارتسم على شفتيه الجميلتين واضحًا قويًا وسخر من فيض العاطفة الذي غمرها لأنه كف عن حبها، فبدت سيبيل ڤين له مسرحية تسرف في عرض حبها إلى درجة تدعو إلى السخرية، ولم يهتز لدموعها الجارية بل ضاق بها ذرعا. وأخيرًا قال بصوت هادئ واضح:

ـ سأنصرف الآن في غير رجعة، وما أقصد بهذا إيلامكِ ولكنكِ خيَّبتِ أملي فيك.

فبكت في صمت. ولم تجب بشيء، ولكنها زحفت نحوه وامتدت

يدها كأنها تريد أن تستوقفه ولكنه أولاها ظهره وخرج من الغرفة، وفي دقائق معدودات كان خارج الدار.

وسار على غير هدى لا يعرف لنفسه وجهة أو طريقًا. كل ما ذكره أنه جاب في شوارع قليلة الأنوار ومرَّ بأقبية متهاوية قاتمة الظلال وبمنازل مقبضة كأنها أوكار الغدر والجريمة.

كذلك ذكر أنه صادف في سيره نسوة استوقفنه بأصوات خشنة وأرسلن وراءه ضحكات خشنة، وأنه مرَّ بسكارى يترنحون في مشيتهم ويتفوَّهون بأقذع الألفاظ ويحدِّثون أنفسهم كأنهم قردة ممسوخة، وأنه رأى أطفالًا لا كالأطفال تحملهم أمهاتهم على عتبات المنازل، وسمع صرخات تنبعث من أفنية مظلمة يصاحبها سُباب شنيع.

وعندما انبلج الفجر وجد نفسه قرب كوفنت جاردن[1]. ورأى الظلام ينقشع والسماء تبدو كالدرة الصافية وقد خضبتها حمرة خفيفة. وسمع ضجيج العربات وهي تسير ببطء في الشارع النظيف الخاوي، وملأ الهواء أريج الأزهار فاسْتَنْشَقَت بجمالها نفسه المتعبة. وتبع العربات حتى بلغت السوق وشاهد الحَمّالين يفرغون حمولتها، وتقدم إليه أحدهم بقليل من الكرز فأخذه شاكرًا وهو يعجب لأن الرجل رفض أن يقبل ثمن ما أعطى. وأنشأ يأكل الفاكهة في غير شهية، وكانت الفاكهة قد قطفت عند منتصف الليل وكان ملمسها رطيبًا كأن نور القمر البارد قد نفذ فيها. ومر أمامه صف طويل من الصبيان يحملون صناديق بها شتى أنواع الأزهار وشقوا طريقهم بين أكداس الخضر على حين وقفت بباب دار الأوپرا ذي الأعمدة الشهباء التي لفحتها الشمس جماعة من البنات متسكعات عاريات الرؤوس ينتظرن انتهاء المزاد، ووقفت جماعة أخرى عند أبواب

(1) من أحياء لندن، كان مشهورًا بسوق الخضار والفاكهة وقت كتابة الرواية.

المقهى في البياتزا[1]. كل هذا والخيل الضخمة التي تجر العربات تضرب الأرض الخشنة بحوافرها وتهز الأجراس المعلقة في أعناقها، والحمائم ذات الرقاب البيضاء والأقدام الحمراء تسعى هنا وهناك تلتقط الحب.

وبعد قليل مرَّت عربة فاستوقفها وعاد بها إلى بيته. وحين بلغ البيت لم يدخل بل وقف ببابه قليلًا يتطلَّع إلى الميدان الساكن وما به من نوافذ خشبية جرداء وما به من نوافذ كستها الستائر. وبدت له السماء في تلك اللحظة كفيروزة كبرى نقية من كل وشب ولمعت تحتها سطوح المنازل كما تلمع الفضة، ورأى الدخان يتصاعد في ذوائب خفيفة من مدخنة بيت مقابل فيلوح لرائيه كالشرائط البنفسجية المتطايرة في الهواء الذي تألّق كالصدف المصقول.

ثم دخل الحجرة الأولى ذات الجدران المحلَّاة بخشب البلوط فوجد الأنوار لا تزال تضيء من ثلاث عيون مشتعلة داخل مصباح كبير مذهب جيء به قديمًا من البندقية حيث كان يزيّن جندول حاكم تلك المدينة وكان المصباح يتدلى من سقف الحجرة، فأطفأ العيون، وبعد أن قذف بقبعته وعباءته على المائدة دخل إلى مكتبته ووقف بباب حجرة النوم وهي حجرة مثمَّنة الأضلاع في الدور الأرضي زين جدرانها حين نما فيه حبه الجديد للبذخ ببسط من عصر النهضة غريبة التصميم وجدها بين مجموعة مهملة في غرفة مهملة بمتحف سلبي فابتاعها. وفيما هو يدير مقبض الباب وقعت عينه على الصورة التي رسمها له بازيل هولوورد فأخذه عجب شديد، ثم دخل حجرة النوم قلق الخاطر، وبعد أن فك أزرار سترته تردَّد قليلًا ثم رجع إلى الصورة وتأملها مليًا، فخيل إليه أن الوجه قد تغيَّر قليلًا، فقد كان التعبير المرتسم عليه مختلفًا عمَّا كان في الماضي. خُيِّل إليه وهو ينظر إلى الصورة في الضوء المكبوت الذي تسرَّب من بين

(1) بالإيطالية في الأصل وتعني الميدان الواسع.

الستائر الحريرية الصفراء أن شيئًا من القسوة قد ارتسم في موضع الفم فعجب لذلك أيما عجب.

ثم سعى إلى النافذة وأزاح عنها الستار فتدفَّق في الحجرة نور الفجر الوضَّاء ونسخ الظلال المديدة وجمعها في أركان الحجرة القاتمة، وهناك رقدت الظلال منكمشة ترتعش. ولكن الضوء الغامر الذي ملأ المكان لم يمح ذلك التعبير الغريب الذي شاهده في صورته بل أكّده وسقط ضوء الشمس على موضع الفم فأظهر له في وضوح أمارات القسوة وخيل إليه أنه يرى وجهه في مرآة بعد أن ارتكب إثمًا فاحشًا ترك آثاره في محياه.

فتجهَّم وجهه وكانت على المائدة مرآة بيضاوية الشكل ذات إطار عاجي زينتها نقوش لكوبيد كثيرة كان اللورد هنري قد أعطاه إياها بين ما أعطاه من هدايا كثيرة، فأمسك بها ونظر إلى خياله على عجل فلم يجد أثرًا لذلك الخط الذي شوّه جمال شفتيه في الصورة، فحارَ في الأمر.

وظن أنه ما به خداع حسي ففرك عينيه واقترب من الصورة ليدرسها من جديد فلم يجد بها أي تبدل، لكنه لم يشك في أن الوجه بأكمله يحمل معنى جديدًا. نعم. إن ما يراه حقيقة لا ريب فيها، وهي تنطق في معالم الوجه بجلاء تام أثار الرعب في قلبه.

وارتمى على مقعد وبدأ يفكِّر. وفجأة تذكَّر عبارة قالها وهو في استوديو بازيل هولوورد يوم أن فرغ الرسَّام من الصورة، وعادت تلك العبارة إلى ذهنه كأنه قالها بالأمس.

لقد صارح صديقيه يومها بأنه يتمنَّى لو أن شبابه يدوم له وتحمل الصورة عنه عبء السنين، لو أن جماله الناضر يظل ناضرًا ويتحمَّل الوجه المرسوم على اللوحة وزر آثامه وشهواته، لو أن آثار الهم والشقاء تنتقل من محيَّاه إلى الخطوط والألوان فتسكن فيها وتمزِّقها تمزيقًا، حتى يبقى لمحيَّاه غضارة النرجس في مطلع الربيع. فهل تحقَّقت له هذه الأمنية؟ هذا محال لأن مثل هذه الأماني محال أن تتحقَّق. بل إن مجرَّد التفكير في

هذه الأماني بدا له جرم رهيب. ومع ذلك، ها هي الصورة أمامه تحمل معاني القسوة بعد أن كانت آية في الصفاء.

ولكن كيف كان هجره لسيبيل ڤين قسوة منه عليها. إنها خيَّبت آماله فنالت ما تستحق من عقاب. لقد كان يحب فيها الفنانة الموهوبة لا الفتاة صاحبة الوجه المليح. إلا أن الندم عض قلبه حين تذكرها وهي جاثية عند قدميه تذرف العبرات، وتذكَّر بروده الشديد وهو يتأملها تستجدي عطفه. فبدأ يلوم نفسه على جموده تارة ويعتذر لنفسه بأنه قد ذاق مثل ما ذاقت من عذاب. لقد مرت به الساعات الثلاث التي استغرقتها الرواية كأنها ثلاثة قرون، وشقي أثناءها شقاء لا مزيد عليه. وإن حياته لأثمن من حياتها، فإذا كان قد أشقاها دهرًا فما ذلك إلا لأنها أشقته لحظات، وهذا عدل. ثم إن النساء أقدر من الرجال على تحمل الآلام. فالعواطف قوام حياتهن، والعواطف قوام تفكيرهن. ولقد قال له اللورد هنري إن النساء يعشقن الرجال ليتسنَّى لهن خلق المواقف المؤثِّرة، واللورد هنري عليم بأسرار النساء. ثم ما كل هذا التفكير في سيبيل ڤين؟ ألم ينتهِ كل شيء بينه وبينها؟

نعم، ولكن هناك الصورة. فما العمل في هذه الصورة التي تعلن مكنونات نفسه وتسرد قصة حياته دون حاجة إلى ألفاظ؟ لقد علَّمته الصورة أن يتعشَّق جمال تكوينه، أفتراها تعلمه الآن أن يمقت بشاعة روحه؟ وهل من الخير له أن يتتبع التغير الجاري فيها في مستقبل الأيام.

ما هذا إلا هَوَس انتابه فهو محطَّم الأعصاب تخدعه حواسه. ما هذا إلا أثر الليلة السالفة العصبية التي انقضت وتركت وراءها أشباحها. لقد كادت الخواطر المتضاربة أن تصرعه. لقد كادت الشكوك أن تذهب بلبه. كلا. إن الصورة لم تتغيَّر وجنون أن يظن أنها تغيَّرت. نعم. إن الصورة قد تغيرت، وها هو ذا الوجه الجميل قد أصابه كدر خفيف وها هو ذا الفم الباسم قد أفسدته قسوة واضحة. ها هو ذا الشعر الذهبي يلمع تحت

شمس الصباح الباكر. والتقت عيناه بعينيها فكاد يبكي رحمة بها ورثاء. فقد تغيَّرت معالمها فعلًا، ولسوف تتغيَّر كل يوم فالشعر الذهبي سوف ينطفئ مع الأيام ويتحوَّل إلى فضة شهباء. والورد الأحمر في شفتيها والورد الأبيض في خديها سوف يذبل ثم يموت. وكلما اقترف إثمًا من الآثام سجلته الأيام على صفحة وجهها غضونًا عميقة وخطوطًا ملتوية تشوّه جمالها. لسوف تكون هذه الصورة مرآة نفسه وصفحة ضميره، وهو لهذا سيقاوم الغواية ما أمكنه ذلك ويقتلع من نفسه جذور الخطيئة. ولسوف يتجنَّب رؤية اللورد هنري بعد اليوم، فإن رآه لم يستمع إلى نظرياته السامة التي تتسرب إلى عقله كالشراب السحري، تلك النظريات التي سمعها في حديقة بازيل هولوورد حرَّكت في نفسه لأول مرة رغبة مدمرة في أن يأتي بعجائب الأمور. ولسوف يرجع إلى سيبيل ڤين ويطلب رضاها ويتزوجها ويجتهد في أن يعيد حبها إلى قلبه. نعم إن هذا واجبه ولا مفر من أداء الواجب. لا بد أنها شقيت أكثر مما شقى فيا لها من فتاة تاعسة. لقد كان لا يفكر إلا في نفسه فيقسو في حكمه عليها وهذه منه أثرة لا تغتفر وهو لا بد مكفر عنها. ولا شك أن سلطانها عليه سيعود وأنهما سيعيشان في سعادة مثل سعادة الملائكة الأطهار.

ونهض من مقعده وأسدل على الصورة ستارًا كبيرًا أخضر، وفيما هو يفعل ذلك نظر إلى الصورة فسرت في جسده رعشة. فقال محدثًا نفسه «ياللشناعة» ثم مشى إلى النافذة وفتحها. وخرج إلى حديقة بيته وسار على الحشائش وملأ رئتيه بنسيم الصبح فطرد نسيم الصبح عنه هواجسه وبقيت في خياله صورة واحدة هي صورة سيبيل. وعاوده قليلٌ من حنانه القديم إليها، وسمع الأطيار تغرِّد في الحديقة المبلَّلة بالندى فخُيِّل إليه أن الأطيار تقص على الأزهار قصتها.

الفصل الثامن

وصحا من نومه بعد الظهر بوقت طويل، وقد دخل عليه خادمه الخاص ڤكتور أثناء نومه أكثر من مرة على أطراف أصابعه ليرى إن كان قد استيقظ أم لا، وعجب من أمر سيده الشاب الذي لم يعتد أن يأوي إلى فراشه في مطلع الفجر. وأخيرًا دق دوريان جراي الجرس فدخل ڤكتور يحمل الشاي وبعض الخطابات على صينية سيڤر[1] قديمة وأزاح عن النوافذ الثلاث العالية ستائرها الخضراء ذات الحوافي اللامعة الزرقاء. وقال ڤكتور مبتسمًا:

ـ أرجو أن يكون سيدي قد نام هذا الصباح نومًا هنيئًا.

فسأله دوريان جراي وهو نصف نائم:

ـ كم الساعة الآن يا ڤكتور.

أجابه الخادم بلكنة فرنسية:

ـ الواحدة والربع يا سيدي.

عرف أنه نام طويلًا فجلس في فراشه، وبعد أن شرب قليلًا من الشاي انصرف إلى خطاباته يقلبها فوجد بينها خطابًا من اللورد هنري جاء به رسول فتردَّد لحظة ثم وضعه جانبًا. وفتح الخطابات الأخرى في ضيق

(1) سيڤر: Sèvers مصنع أواني خزف في مدينة سيڤر في فرنسا، تديره اليوم وزارة الثقافة الفرنسية، مشهور بمنتجاته الخزفية المميزة.

واضح فوجدها كالعادة تحتوى على دعوات الغداء ودعوات لزيارة أماكن خاصة وبرامج الجمعيات الخيرية وبرامج الحفلات الموسيقية وما شابه ذلك من رقاع تصل الشباب من الوجهاء خلال الموسم. وكان بين بريده فاتورة ضخمة بمجموعة من أدوات الزينة من طراز لويس الرابع عشر لم يجرؤ بعد على إرسالها إلى أوصيائه لأنهم من أصحاب الآراء البالية الذين لا يفهمون أن ألزم الأشياء لنا هي الأشياء التي لا لزوم لها، كما كان بينهما بعض خطابات من مرابي چرمين ستريت صيغت في لباقة شديدة وأدب جم يعرضون فيها خدماتهم العاجلة مقابل فائدة معقولة.

وبعد عشر دقائق كان يرتدي الروب دي شامبر الصوفي المطرَّز بالحرير ويدخل الحمام المرصوف بالفسيفساء. وأنعشه الماء البارد فأحس كأن تباريج الأمس لم تكن. وبين وقت وآخر جاءه هاتف بأنه كان بطل مأساة غريبة ولكنها أشبه ذكرى حلم بعيد. وحين فرغ من ارتداء ثيابه دخل المكتبة وهناك وجد فطوره الخفيف معدًا له على مائدة مستديرة بالقرب من النافذة فجلس يتناوله. وأحس بجمال الصباح وبدا له أن الهواء الدافئ محمَّل بروائح الطيوب ودخلت من النافذة نحلة طنَّت حول إناء أمامه وضعت فيه أزهار صفراء بلون الكبريت فغمرته السعادة.

ووقعت عينه فجأة على الستار الذي حجب به الصورة فتملَّكه الاضطراب. ولاحظ خادمه اضطرابه فقال وهو يضع أمامه طبقًا من العجَّه:

ـ أيشعر سيدي بالبرد؟

قال دوريان جراي وهو يهز رأسه:

ـ كلا، لستُ أشعر بالبرد.

وعادت إليه شكوكه الأولى فحار في أمر الصورة ولم يدرِ أتغيَّرت حقًا أم تغيرت في خياله وحده. لقد كان وجهه في الصورة ينطق بأفراح الحياة، وها هو الآن ينطق بشرٍّ دفين. ولكن من قال إن القماش يتغيَّر

والألوان تتبدَّل؟ إن هذه لسفاهة في التفكير، وهي أشبه بالأساطير التي ينسجها الخيال. نعم. إنها لأسطورة سوف يقصها على بازيل هولوورد يومًا من الأيام ليدخل على فؤاده السرور. ولكن كيف تكون أسطورة وهو قد رآها بعينه؟ إنه تذكَّر بجلاء أمارات القسوة التي أبصرها تشوه جمال الشفتين عندما تمعَّن في الصورة قبل مطلع الفجر وبعد مطلع الفجر. واستبد به الخوف حتى لقد أحب أن يستبقي خادمه معه في المكتبة، فلو أنه وجد نفسه وحيدًا لما تردد في كشف الغطاء عن الصورة. ودخل ڤكتور بالقهوة والسجائر ثم همَّ بالانصراف فأحس دوريان جراي برغبة شديدة في أن يأمره بالبقاء، ولكنه ضبط شعوره، فما أن خرج الخادم من الحجرة وأغلق الباب وراءه استدعاه فوقف الرجل ينتظر أوامره ولكن دوريان رمقه بنظرة طويلة ثم تنهد وقال:

ـ اصرف كل زائر يجيئني اليوم يا ڤكتور.

فانحنى الرجل وانسحب من الحجرة.

ثم ترك دوريان جراي المائدة وأشعل سيجارة وألقى بنفسه على أريكة فاخرة أمام الستار. وكان الستار ستارًا قديمًا صنع من الجلد الإسپاني المذهب عليه رسوم من طراز لويس الرابع عشر فيها شيء من الإسراف، فأنشأ يتأمل ويسأل نفسه كم من الأسرار حجبها ذلك الستار قبل أن يصل إلى يديه.

وبدأ يفكِّر جديًا في إزاحة الستار عن الصورة، ولكنه لم يرَ فائدة يجنيها من وراء ذلك. فلو أن الصورة قد تغيَّرت حقيقة لكان ذلك كارثة عظمى، ولو أنها لم تتغيَّر لما كان هناك ما يدعوه إلى القلق. ولكن للمسألة وجهًا آخر، فماذا يكون الأمر لو أن شخصًا آخر استطاع أن يصل إلى الصورة ويطلع على ما جرى فيها من تغير شنيع؟ بل كيف يكون الأمر لو أن بازيل هولوورد طلب أن يرى الصورة التي رسمها؟ ما من شك في أن بازيل سيفعل ذلك يومًا من الأيام. وعلى ذلك فالواجب يقضي بفحص الصورة

دون تردُّد كيفما تكون النتيجة، فالنتيجة مهما كانت خير من هذا الشك المضني.

ونهض وأقفل بابَيْ الحجرة بالمفتاح، فليس من الخير أن يطلع سواه على سجل آثامه. ثم أزاح الستار ووقف يتأمَّل صورته فلم يعد لديه أدنى ريب في أن الصورة قد تغيَّرت.

كان موقفًا رهيبًا حقًا انطبع في ذاكرته فلم ينسه زمنًا طويلًا. فقد بدأ يفحص الصورة أولًا كما يفحص عالم أثرًا من الآثار كأن الأمر لا يخصه، فعجب لنفسه أشد العجب. لقد كان التغيُّر مستحيلًا في نظره ولكن لا جدال في أنه موجود فعلًا. وذهب يفترض الفروض لتعليل ما رأى فزعم أن هناك صلة جائزة لا نعرفها بين روح الإنسان وبين دقائق الذرات التي تتألَّف منها الألوان والأشكال على اللوحة، وبذلك تسجل دقائق الذرات خوالج النفس وتحقِّق للنفس أحلامها. فإذا لم تكن هذه الصلة جائزة فقد يكون هناك تعليل آخر أشفق دوريان جراي أن يفكر فيه. وارتعدت لذلك فرائصه وتملَّكه فزع شديد وعاد إلى الأريكة واستلقى عليها وعيناه لا تتحولان عن الصورة.

ولكنه خرج من كل هذا بمغزى واحد، إلا وهو أن الصورة التي رسمها بازيل هولوورد له ستكون نبراسًا يهتدي به في ظلام الحياة. وها هي قد علَّمته أن سلوكه مع سيبيل ڤين كان سلوكا قاسيًا وشائنًا. ولعل في إمكانه إصلاح ما أفسده فهو لا يزال يستطيع أن يتزوجها فتصفو بذلك روحه ويتجرَّد من أنانيته ويتحوَّل غرامه الزائف تحت تأثيرها الصالح إلى عاطفة نبيلة. نعم. سوف يستهدي الصورة إلى الطريق المستقيم، فهي ضميره الحي وهي مقياس الخير والشر وهي تذكرة له من عند الله. إن الضمائر قد تنام ومقاييس الخير والشر قد تختل والتذكرة قد تغيب عن عقل الإنسان. أما هذه الصورة فهي الشاهد القائم على دنس الخطاة وهي الرمز الأبدي للدمار الذي ينزله الإنسان بروحه كلما مال عن نهج

الصالحين. وأين يجد دوريان عذرًا بعد هذا النذير؟

ودقَّت الساعة الثالثة ثم الرابعة والنصف ولكن دوريان جراي ظل ثابتًا في مكانه من الأريكة. وكان يسترجع ماضيه وما ملأه من أحداث عنيفة وعواطف هوجاء ويحاول أن يخرج من هذه الأحداث والعواطف بمغزى فلم يهتدِ إلى شيء، وأخيرًا قصد إلى المائدة وكتب لسيبيل ڤين خطابًا طويلًا ملتهب العبارات يفيض بالحزن والوجيعة يسألها فيه الغفران عمَّا بدر منه ويتهم فيه نفسه بالجنون. فنحن نجد لتأنيب النفس لذة عظمى، وحين نؤنب أنفسنا نحس بأن الغير لا يملك حق تأنيبنا، فالاعتراف هو الذي يغسل خطايانا وليس الكاهن الذي نعترف أمامه. وحين أتم دوريان الخطاب أحس بأن زلته قد غفرت له فعلًا.

وسمع بالباب طرقًا وجاءه صوت اللورد هنري في الخارج يقول:

ـ لا بد أن أراك يا دوريان فافتح لي الباب فورًا، فأنا لا أحتمل أن أراك تعتزل العالم على هذا النحو.

فلم يجب بادئ الأمر ولبث صامتًا في مكانه فلمَّا توالى الطرق واشتد نهض مسرعًا ليفتح الباب فقد وجد أن من الخير له أن يرى اللورد هنري ويشرح له أسلوب حياته الجديدة، وأن يختصم معه إذا لزم الأمر، بل أن يخاصمه إذا اقتضت الضرورة. وغطَّى الصورة بالستار ثم فتح الباب فدخل اللورد هنري وهو يقول:

ـ لقد تألَّمتُ لما حدث أشد الألم يا دوريان ولكني أوصيك بأن تصرف نفسك عن التفكير فيه.

وقال الفتى:

ـ أتقصد ما فعلته سيبيل ڤين؟

فجلس اللورد هنري على مقعد وأجاب وهو يخلع قفازه الأصفر:

ـ بالطبع. إنه لشيء مؤلم إلى حد بعيد ولكنك لست مسؤولًا عمَّا جرى. هل ذهبت لرؤيتها في غرف الممثلين بعد انتهاء الرواية؟

نعم.
ـ لقد كنت واثقًا من ذلك. وهل تشاجرتما؟
ـ لقد عاملتها بوحشية لا مزيد عليها، ولكن نفسي الآن قد هدأت ولست آسفًا على شيء مما حدث لأن هذا الاختبار علمني الكثير عن نفسي.
ـ أحيي فيك هذه الشجاعة يا دوريان، وقد كنت أخشى أن أجدك مهمومًا تعنف نفسك تعنيفًا وتمزِّق شعرك الذهبي الجميل هذا.
قال دوريان وهو يبتسم ويهز رأسه:
ـ لقد فرغت من كل ذلك وأنا الآن أسعد ما أكون فلقد عرفت كيف يكون عذاب الضمير وأرجوك يا هاري ألا تسخر من الضمير بعد اليوم، فإن كان لا بد لك من أن تسخر منه فلا تسخر منه أمامي، لأني أريد أن أحيا حياة صالحة، وأنا لا أحتمل أن تتلوَّث روحي.
ـ أهنئك يا دوريان على اهتدائك إلى هذا المقياس الجميل. ولكن كيف ستبدأ حياتك الجديدة؟
ـ سأبدأها بأن أتزوج من سيبيل ڤين.
فنهض اللورد هنري ونظر إليه في حيرة بالغة وصاح:
ـ تتزوج من سيبيل ڤين؟ ألم تعرف يا دوريان...
ـ نعم يا هاري، أعرف ما ستقوله لي. أعرف آراءك القاسية في الزواج فاحتفظ بها لنفسك. ورجائي إليك هو أن تحتفظ لنفسك بجميع آرائك الشاذة فلست أحب أن أسمع شيئًا منها بعد الآن. لقد طلبت إلى سيبيل منذ يومين أن تتزوجني ولن أحنث بوعدي. نعم إن سيبيل سوف تصبح زوجتي.
ـ ولكن كيف تكون سيبيل زوجتك؟ أما وصلك خطابي. لقد كتبت لك صباح اليوم رسالة حملها إليك خادمي الخاص.
ـ نعم أذكر أني تسلمت رسالة منك، ولكني لم أقرأها بعد يا هاري فقد

خفت أن أجد فيها كلامًا يسوءني، فأنت تمزق الحياة إربًا إربًا بأقوالك الغريبة.

ـ إذًا فأنت تجهل ما حدث؟

ـ ماذا تعني؟

فتقدم إليه اللورد هنري وجلس إلى جواره وأمسك بيديه وشد عليها في قوة قائلًا:

ـ لا تنزعج يا دوريان. كتبت لك أقول إن سيبيل ڤين قد ماتت.

فتأوه الفتى تأوه المطعون فنزع يديه من يدي اللورد هنري وقال:

ـ أتقول إن سيبيل ماتت؟ هذا غير صحيح، بل هذه فرية دنيئة. كيف تجرؤ على هذا الإفتراء؟

قال اللورد هنري مكتئبًا:

ـ بل ما قلت غير الحقية يا دوريان. لقد نشرت النبأ صحف الصباح جميعًا وقد كتبت لك لأطلب إليك ألا تقابل أحدًا حتى أجيئك، فأنت تعرف أن التحقيق سيجري في الحادث ومن المصلحة أن تظل أنت بعيدًا عن كل شيء. إن مثل هذه الأشياء تجعلك قبلة الأنظار في باريس، أمَّا في لندن فالأمر يختلف. من الخطأ أن يبدأ الإنسان هنا حياته الاجتماعية بفضيحة، الأنسب أن يؤجلها لأيام شيخوخته حتى يظل اسمه على ألسنة الناس بعد أن يتوارى من الحياة العامة. أظن أنهم لا يعرفون اسمك في المسرح، فإذا كان الأمر كذلك فليس هناك ما يدعو إلى الانزعاج. هل رآك أحد تدخل غرفتها؟ اجتهد أن تتذكر فهذه نقطة مهمة.

مرت لحظات عجز فيها دوريان عن الكلام لأن الرعب قد عقد لسانه، وأخيرًا قال في صوت متقطِّع يشبه الهمس:

ـ أتقول إن هناك تحقيقًا يجري يا هاري؟ ماذا تقصد بذلك؟ أتراها .. أواه! لم أعد أحتمل يا هاري، فعجِّل وقصّ عليَّ كل ما حدث.

ـ أنا لا أشك في أن وفاتها لم تكن نتيجة خطأ يا دوريان ولكن يجب

أن تخفي الحقيقة عن الجمهور والمعروف أنها خرجت من المسرح في صحبة أمها نحو الساعة الثانية عشر والنصف ثم احتجت بأنها نسيت في غرفتها شيئًا ما ولما طال انتظارها صعدوا إلى غرفتها فوجدوها مسجاة على أرض الغرفة وقد فارقتها الحياة بعد أن شربت مادة سامة من تلك المواد التي يستعملونها في المسرح لا علم لي بها على التحقيق ولكني أعرف أنها تحتوي إما على حامض البراسيك أو الرصاص الأبيض، والأرجح أنه الأول لأنها ماتت فورًا.

فصاح الفتى قائلًا:

ـ يا للفجيعة! يا للفجيعة!

ـ نعم يا دوريان إنها لمأساة أليمة ولكن يجب ألا يدخل اسمك في الحادث. إن صحيفة الاستاندارد تقول إنها في السابعة عشر من عمرها، وقد كنت أظنها أصغر من ذلك سنًا. لقد كانت تبدو كطفلة غريرة ويظهر أن علمها بأصول التمثيل ضئيل. اسمع يا دوريان: يجب عليك أن تحتفظ برباطة جأشك وهدوء أعصابك. تعال لنتعشَّى سويًا ثم نذهب إلى الأوپرا بعد ذلك. إني أدعوك إلى مقصورة أختي، وستجد هناك بعض مليحات لندن.

قال دوريان جراي وكأنه يحدث نفسه:

ـ إذا فقد قتلتُ سيبيل ڤين، ذبحتها بيدي ذبحًا، ومع ذلك فورود الحديقة الجميلة لا تزال جميلة والأطيار تغرِّد فيها ألحانها الطروب كما كانت من قبل تغرِّد وأنا الليلة أتعشَّى معك، ثم أذهب إلى دار الأوپرا. ما أشبه الحياة بمأساة عنيفة! فلو أني قرأت كل هذا في كتاب لبللت الكتاب بدموعي. أما وقد وقعت هذه الحوادث لي فعلًا فها أنت تراني عصي الدمع من فرط الذهول. وهذا أول خطاب غرامي أكتبه بشعور صادق. أفليس عجيبًا أن أكتب أول رسائل غرامي إلى فتاة ميتة؟ ترى أيحس سكان القبور بما يجري في عالم الأحياء؟ ويلي عليك يا سيبيل! أتراها

تحس بدخيلة نفسي أو تسمع صوتي المتهدِّج هذا أو تعرف ما أنا فيه من اضطراب؟

كم أحببتها يا هاري قبل تلك الليلة المشؤومة، ولكن هذا كله قد فات وهو الآن جزء من تراث الماضي السحيق؟ لقد ملأت أفق حياتي حتى كانت تلك الليلة المشؤومة فكسرت قلبي بفظاعة تمثيلها. ما بالي أقول تلك الليلة المشؤومة كأنها ليلة من الليالي الخوالي، وما هي إلا ليلة الأمس! ولقد شرحت لي سر سقوطها بعبارات تفتت الحجر الأصم، ولكني لم أرقّ لنحيبها بل ظننتها امرأة تافهة لا تحسن شيئًا في الحياة، ثم حدث لي شيء جعلني أحاسب نفسي وأخاف المستقبل فعلمت أني قد أسأت إليها وعزمت أن أعود إليها طالبًا الصفح. ولكن ها هي ذي قد ماتت فماذا أفعل يا هاري، ماذا أفعل؟ الرحمة يا إلهي! الرحمة من عندك يا إلهي! إني لأسير على شفا هوة عميقة ولا أجد في الدنيا ما أستهديه سبيل الرشاد. ولو أنها عاشت لكانت لي النجم الهادي والمرفأ الحنون. إن حياتها لم تكن ملكًا لها فمن الخسة أن تقتل نفسها وتتركني هنا أضرب في الأرض بغير رائد.

فقال اللورد هنري وهو يُخْرِج سيجارة من علبته وعلبة كبريت مذهَّبة:

ـ إن الطريقة الوحيدة التي تستطيع بها امرأة أن تهدي رجلًا هي أن تدخل الضيق في نفسه حتى يفقد كل رغبة في مباهج الحياة. ولو أنك تزوَّجت من هذه الفتاة لشقيت طوال عمرك. أنا لا أشك في أنك كنت ستعاملها معاملة حسنة، ولكن هذا موضوع آخر فنحن نستطيع أن نحسن معاملة من لا نكترث بهم. وقد كان من المحقَّق أن تستكشف هي هذا بعد فترة وجيزة، وحين يتبيَّن للمرأة أن زوجها لا يكترث بها تراها إما تهمل في مظهرها إلى حدٍّ مزر، وإما تسرف في ارتداء الثياب الفاخرة التي يدفع ثمنها زوج امرأة أخرى، كذلك لا تنسَ أن التفاوت الاجتماعي الهائل بين مكانتك ومكانتها كان كفيلًا بتعقيد الأمور، ولقد كنت عازمًا على

تجنيبك هذا الخطأ مهما كلفني هذا الأمر. نعم، لا شك في أن مثل هذا الزواج كان خليقًا بالفشل.

قال الفتى وهو يقطع أرض الغرفة جيئة وذهابًا، وقد بدا عليه شحوب مخيف.

ـ أرجِّح أن هذا صحيح، ولكن الواجب كان يقضي عليَّ بالوفاء بوعدي وأنا لا ألام إذا كانت هذه المأساة الأليمة قد منعتني عن أداء الواجب. إني لأذكر ما قلته لي ذات مرة من أن القدر يكيد لنا كلما عزمنا على فعل شيء جميل، فالنوايا الطيبة تأتي دائمًا بعد فوات الوقت، وهذا يصف حالتي أحسن وصف.

ـ إن النوايا الطيبة تَدَخُّل لا جدوى منه في سير القوانين العلمية، ومنشؤها الغرور لا سواه، أما نتيجتها فصفر لا أكثر ولا أقل، ونحن نستمد منها بين وقت وآخر بعض اللذة العقيمة التي تستهوي قلوب الضعفاء، وهذا كل ما لها من مسوِّغ. إن النوايا الطيبة لتشبه شيكات يسحبها الناس على بنوك ليس لهم فيها رصيد.

فقال دوريان جراي وهو يجلس إلى جواره:

ـ ما السر في أني لم أفجع لهذه المأساة إلى الحد الذي أريد؟ لست أظن أني شخص ميت الشعور. أتعتقد ذلك فيَّ يا هاري؟

أجاب اللورد هنري بصوته العذب الحنون:

ـ كلا، فإن تاريخك الحافل بالحماقات في الأيام القليلة الماضية لا يؤهلك لمثل هذا الوصف.

فعبس الفتى وقال:

ـ أنا لا أرضى بتفسيرك هذا يا هاري، ولكني مغتبط لأنك لا تراني شخصًا ميِّت الشعور، فما أنا كذلك، وإني لواثق من هذا. ولكني رغم ذلك أعترف بأني لم أحزن لفقدان سيبيل كما كان ينبغي أن أحزن. فهو يبدو لي الآن كنهاية رائعة لا أكثر، نعم لقد كانت قصتنا مأساة لها ما

لمآسي الأغريق من جمال مدمِّر، مأساة كنت أنا فيها البطل الأول.

ـ إنها لمسألة تستحق الاهتمام. بل إنها لمسألة تستحق كل الاهتمام وأظن أن تفسيرها الحقيقي هو أن مآسي الحياة الحقيقية تحل بالناس خالية من كل تصميم فنّي فتؤذينا وحشيتها الساذجة وتناقضها المطلق وقلة مدلولها وافتقارها التام لكل أسلوب. فهي تؤثِّر فينا تأثير الأشياء المبتذلة فينا أي أنها تسحقنا سحقًا بما لها من قوة غشوم، ونحن نمقت القوة الغشوم. ولكن بيْن آن وآخر تقع في حياتنا مأساة لها طابع فني، فإذا كانت عناصر الجمال التي نجدها في هذه المأساة عناصر صحيحة لا زيف فيها، تركت فينا أثرًا يشبه الأثر الذي تتركه فينا مسرحية من المسرحيات، وعندئذ يزايلنا الإحساس بأننا ممثلون في هذه المسرحية ونعتقد أننا من النظارة، أو على الأصح نشعر بأننا من الممثلين ومن النظارة في وقت واحد. بذلك نشاهد أنفسنا كل يقوم بدوره فيسحرنا هذا المشهد. وفي حالتك أنت بالذات كل ما حدث هو أن فتاة انتحرت لأنها تحبك، وهو اختبار ممتع، أودّ لو أنه حدث لي، فهو كفيل بأن يجعلني من أنصار الحب بقية حياتي. إن كل من عشقنني من النساء وهن قليلات قد حرصن كل الحرص على الحياة بعد أن نضب حبي لهن أو حبهن لي بل لقد زاد وزنهن وأصبحن مصدر ملل دائم لي: فكلما قابلت إحداهن اختلت بي وذهبت تبادلني الذكريات. إن قوة ذاكرة المرأة لشيء مزعج، وهي إن دلّت على شيء فهو أن عقولهن لا تشتغل أبدًا! إن جمال الحياة في ألوانها الخاطفة، أما التفاصيل فجديرة بالنسيان، فالتفاصيل أشياء مبتذلة.

قال دوريان جراي متنهدًا:

ـ لا بد أن أزرع الخشخاش في حديقتي تحية لذكراها.

فقال اللورد هنري:

ـ لا داعي لذلك فالحياة تحمل أزهار الخشخاش في يديها دائمًا.

ولقد تخلو منها يداها بين الحين والحين فأنا أذكر أني وضعت البنفسج في عروتي موسمًا بأكمله حدادًا على غرام لا يريد أن يموت، ولكنه مات ولله الحمد آخر الأمر، وإن كنت لا أذكر ماذا قتله. أعتقد أنها قالت لي مرة إنها على استعداد لتضحي بكل ما في الدنيا من أجلي، فأجهز هذا على ما بقي في قلبي من الحب. إن عبارات الوفاء تنشر الرهبة في نفوسنا فنحن نخاف من الإخلاص الدائم خوفنا من الأبدية. ولعلك لا تصدقني إذا قلت لك إني التقيت منذ أسبوع بهذه السيدة التي حدَّثتك عنها في مأدبة عشاء أقامتها الليدي هامپشير وكان من نكد طالعي أن جلست بجوارها إلى المائدة، فما كان منها إلا أن نبشت الماضي ونبشت المستقبل كذلك، وأنشأت تذكّرني بكل ما حدث بيني وبينها وأكدت لي أني قد أفسدت حياتها. لقد دفنت غرامي في نعش من أوراق السوسن فاستخرجته من جديد. أجل، زعمت أني قد أفسدت حياتها، فلما رأيتها تتناول عشاءها بشهية عظيمة زال القلق الذي ساورني بشأنها. أقول هذا لأنه دليل على فساد ذوقها. إن أجمل ما في الماضي أنه مضى، ولكن النساء لا يعرفن متى ينسدل الستار على كوميديا الحياة، وهن دائمًا يرغبن في إطالتها بإضافة فصل سادس لها، بعد أن تكون بهجتها قد نضبت، ولو أننا تركنا الأمر لهن لانتهت كل كوميديا نهاية محزنة ولاستحالت كل مأساة في النهاية إلى مهزلة. إن النساء يتكلَّفن في كل شيء وهذا ما يحبّبهن إلينا، ولكنهن خلون من كل ذوق فني. ولقد كنت أسعد حظًا مني في سوق الغرام يا دوريان. فأنا أؤكد لك أنه ما من امرأة ممن عرفت من النساء كانت لتقتل نفسها بسببي كما قتلت سيبيل ڤين نفسها بسببك، فالنساء العاديات يجدن دائمًا ما يعزيهن عن الغرام الضائع. ومنهن من يلتمس العزاء في ارتداء الثياب ذات الألوان المؤثرة، وأنا أحذِّرك يا دوريان من كل امرأة تلبس ثيابًا بنفسجية أيًا كان عمرها. وإذا صادفت امرأة تخطَّت الثلاثين تتزين بالشرائط الوردية فاجتنبها كذلك، فمثل هؤلاء لهن ماض.

ومن النساء من يتعزين عن غرامهن باكتشاف محاسن أزواجهن فجأة، وتراهن يثرثرن في كل مكان عن سعادتهن الزوجية كأن السعادة الزوجية ثمرة محرَّمة شهية قطفنها وحدهن من دون خلق الله. ومن النساء من يلتمسن العزاء في الدين، ولقد قالت إحداهن لي إن ألغاز الدين لها ما للغزل من سحر في النفوس، وأنا أصدقها: ثم إن الناس يجدون في الخطيئة مصدرًا للفخر، ومنشأ الأثرة هو ضمير الإنسان. من هذا ترى أنه لا حد لأسباب العزاء التي تجدها النساء في هذه الأيام، وما ذكرت منها أهمها.

فسأله الفتى في فتور:

ـ وماذا يكون هذا يا هاري؟

ـ إن أول ما تفعله المرأة حين تفقد عشيقها هوأن تسلب امرأة أخرى عشيقها، وهذا كاف في المجتمع الراقي لأن يرد للمرأة اعتبارها. ولكن لا بد أن سيبيل ڤين كانت تختلف عن سائر النساء اللاتي نعرفهن يا دوريان. إن موتها لفاجعة جميلة وإني لسعيد بأني أعيش في عصر تحدث فيه مثل هذه العجائب، فمثل هذه العجائب تثبت إيماننا بحقيقة الحب والعاطفة والخيال وسائر الأشياء التي نلهو بها في هذه الحياة.

ـ ولكنك تنسى أني قسوت عليها قسوة مُرَّة.

ـ إن النساء يستطبن القسوة، بل يستطبن القسوة التي تصل إلى حد الهمجية، لأن غرائزهن لا تزال في دور الفطرة وهذا ما يفتنني فيهن. لقد منحناهن الحرية ولكنهن بقين كما كن عبيدًا يبحثن عن سادة. وهن يطلبن من الرجل أن يفرض سلطانه عليهن ولست أشك في أنك قمت بهذا الواجب خير قيام، وإني وإن كنت لم أرَك قط غاضبًا جارفًا فإني لأتصور منظرك الجميل حين ثرت على سيبيل ڤين كالبركان. ثم إنك قلت لي منذ يومين شيئًا ظننته إسرافًا منك في الأوهام ولكني أدرك الآن أنه حقيقة لا جدال فيها وهو يفسِّر كل ما حدث.

ـ ماذا تعني يا هاري؟

ـ قلت لي إنك تجد في سيبيل ڤين جميع بطلات الخيال، فهي يومًا ديدمونة ويومًا أوفيليا وأنك تشيعها إلى مقرها الأخير في صورة چولييت فإذا بها تعود إلى الحياة في شخص إيموچن.

قال الفتى وهو يدفن وجهه في راحتيه:

ـ ولكنها لن تعود إلى الحياة بعد الآن.

ـ بلى، لن تعود إلى الحياة بعد الآن فقد لعبت دورها الأخير، ولكن يجب عليك يا دوريان أن تتصور ميتتها الموحشة في غرفتها بالمسرح منظرًا غريبًا عاصفًا من مسرحية جميلة لوبستر أو فورد أو سيريل تيرنر أو أترابهم من كتاب عصر چيمس الأول الذين كلفوا بالعنف والإغراب. ڤسيبيل لم تنتمِ يومًا إلى عالم الأحياء ولهذا كان خطأ منك أن تحسب أنها ماتت. فقدَ كنت تراها في وادي الأحلام فتخالها طيفًا يخطر بين مسرحيات شكسپير ويشيع فيها من سحره سحرًا وتسمعها فتحسبها نايًا شجيًا يبثك ألحان شكسپير فتزداد به الألحان حلاوة وحين أرادت أن تحيا في الحقيقة أفسدت الحياة وأفسدتها الحياة فكانت بذلك نهايتها. فابك شباب أوفيليا إذا أحببت، ولطِّخ خديك بالتراب حزنًا على كورديليا الأمينة، والعن السموات بأعلى صوتك لأن ديدمونة الطاهرة قد أسلمت روحها، ولكن لا تُرِقْ دمعة واحدة على سيبيل ڤين لأنها طيف من نسج الأحلام أما هن فمن بنات الحقيقة.

ثم أعقب هذا صمت وانتشر الظلام في الحجرة بمجيء المساء، ومن الباب دخلت أشباح الحديقة في هدوء فلم يسمع أحد لأقدامها وقعًا. أما الألوان فتقاربت وتداخلت فلم يعد أحد يميز من بينها لونها.

وبعد قليل رفع دوريان جراي رأسه وقد عاد إليه هدوءه. قال:

ـ لقد شرحت لي دخيلة نفسي يا هاري، ولقد كنت أحس بكل شيء ذكرته لي ولكني لم أجد الشجاعة الكافية لأصارح نفسي به. فما أصدق

معرفتك بي! ولكن دعنا من الماضي ولنسدل عليه ستارًا وكل ما أقوله فيه أنه كان اختبارًا رائعًا. أتظن أن الحياة تخبِّئ لي الكثير من هذا القبيل؟

ـ نعم يا دوريان، فالحياة تخبِّئ لك كل شيء، فليس هناك ما يستعصي على وجهك الجميل هذا.

ـ ولكن ماذا يكون الحال يا هاري إذا ما ضاع شبابي وشحب لوني وتغضَّن وجهي؟

قال اللورد هنري وهو يتأهب للانصراف:

ـ عندما يحدث ذلك يا عزيزي دوريان لن يأتيك نصر إلا بكفاحك، أما الآن فأسباب المجد تُساق إليك سوقًا. نعم، يا دوريان، لا بد لك من الاحتفاظ بجمالك، فنحن نعيش في جيل أسرف في الاطلاع حتى فقد الحكمة، وأسرف في التفكير حتى أضاع الجمال، ولن نجد ما يغنينا عنك فابقَ لنا كما أنت الآن. ولكن يجدر بك أن تسرع بارتداء ملابسك وتأتي معي إلى النادي، فقد تأخرنا.

ـ سألحق بك في الأوبرا يا هاري لأن التعب قد قتل شهيتي للأكل. فما رقم مقصورة أختك.

ـ سبعة وعشرون، وستجد اسمها على باب المقصوره فلن يطول بحثك ولكن يؤسفني أنك ترفض دعوتي للعشاء.

قال دوريان جراي في فتور:

ـ اعفني هذه المرة، فلن أستطيع أن آكل شيئًا. ولكن يجب أن أقول لك قبل أن تنصرف أني مدين لك بالكثير؛ فكلماتك قد طيَّبت نفسي، ولن أجد بين الناس صديقًا مثلك يخفِّف عني الأحمال، فما من أحد نفذ إلى سريرتي نفاذك أنت إليها.

فأجاب اللورد هنري وهو يصافحه:

ـ ما نحن إلا في بداية الطريق يا دوريان وأرجو أن تقوى صداقتنا على الأيام. آمل أن أراك قبل منتصف الساعة التاسعة، ولا تنس أن پاتي يغني

الليلة في الأوبرا، فإلى اللقاء.

وبعد أن أغلق الباب وراءه دق دوريان جراي الجرس يطلب خادمه فدخل عليه ڤكتور يحمل المصابيح وأسدل على النوافذ ستائرها، وبدا لدوريان جراي أنه يتلكَّأ في عمله فنفد صبره. ولكن ڤكتور خرج أخيرًا فأسرع إلى الصورة وأزاح عنها الغطاء ليستطلع مدى التغيير الذي حل بها في الفترة الأخيرة فوجدها كما كانت قبل أن يزوره اللورد هنري، فعرف أنها علمت بموت سيبيل ڤين قبل أن يعلم هو، وعرف أنها تستجيب لكل ما يحدث في الحياة وقت حدوثه. فإذا كان الأمر كذلك فأمارات القسوة التي طالعها في موضع الفم لا بد ظهرت لحظة أن قتلت سيبيل ڤين نفسها. ثم خطر له أن الصورة إن هي إلا مرآة روحه، فهي لا تتأثر بما ينجم عن مسلكه من نتائج وإنما تسجل كل تغير ينتاب روحه ولم يجد جوابًا شافيًا على مزاعمه المضطربة ولكنه تمنَّى أن يرى بعينيه التغيُّر يجري في الصورة يومًا من الأيام، وفيما هو يفكر في هذا الأمر اقشعرّ بدنه من هول الفكرة.

يا لسيبيل من فتاة تعسة ويا له من غرام فاجع! كم ذاقت على المسرح كأس المنية حتى قبضت المنية روحها وخطف الموت السر من بين جنبيها. أتراها أتقنت آخر منظر في مأساة حياتها؟ أتراها لعنته وهي تموت؟ ولكن كيف تلعنه وهي قد ماتت في هواه؟ كلا. لقد أصبح الحب طريقة للخلاص فلقد مسحت عنه بموتها آثامه. فلينسَ إذًا ما أنزلت به من عذاب في ليلة الفراق، وليذكرها كعذراء أرسلتها المقادير إلى مسرح الحياة لتثبت للناس حقيقة الحب، ويالها من عذراء تبهر الناظرين! وترقرقت الدموع في عينيه حين استحضر في خياله محياها البريء وحياءها الخلاب، وطباعها العجيبة، فجفف عينيه لفوره وعاد يتطلَّع إلى الصورة من جديد.

وأحسَّ بأنه يقف في مفترق الطرق ليختار من السبل ما يشاء، ولكن

كيف يختار من السبل ما يشاء وقد اختارت له الحياة السبيل الذي يسلكه؟ أجل إن الحياة قد فصلت له في أمره نيابة عنه لأن به شغفًا بالحياة لا يحد بحدود. فالشباب الدائم النضرة ملك يديه والعواطف الجارفات كالسيول، واللذات الخفية واللذات التي لم تعرفها نفس أبدًا، والأفراح المجنونة والخطايا المجنونة، كل هذه من نصيبه، وما على الصورة إلا أن تحمل وزر حياته النكراء.

وعندما تصوَّر المسخ الذي سيصيب وجهه الجميل على اللوحة اقشعر بدنه مرة أخرى. لقد أراد ذات مرَّة أن يقلِّد الإله الذي عشق نفسه في أسطورة النرجس فقبَّل تلكما الشفتين اللتين تكايدانه في اللوحة بما تحملان من قسوة، ولكم جلس يومًا بعد يوم قبالة الصورة يتغزَّل بجمالها. أتراها الآن تسجل عليه كل ما يجري في دخيلة نفسه؟ أتراها تزداد كل يوم بشاعة حتى تصبح في النهاية مسخًا رجيمًا يجب إخفاؤه عن العيون وإقصاؤه إلى حجرة محكمة الإيصاد بعد أن كانت تغتسل كل يوم في ضوء الشمس ويبرق شعرها المتموج فيه كسبائك النضار؟ واهًا ثم واهًا.

وأراد أن يسجد ضارعًا للسماء أن تضع حدًّا لهذا التجاوب المقيت بينه وبين الصورة. وبعد، ألم تتغيَّر الصورة إجابة لصلاته الأولى! فليس مستحيلًا إذا أن تثبت على حالها إجابة لصلاة ثانية. ولكنه لم يقوَ على ذلك لأن الإغراء كان عظيمًا. فهل بين الأحياء الذين ذاقوا طعم الحياة من يرفض أن يشتري الشباب الدائم مهما غلا ثمنه؟ ثم من يدريه أن الصورة رهينة برغباته؟ من يدريه أنها تغيَّرت لأن صلاته قد أستُجيبت؟ أليس جائزًا أن هناك تفسيرًا علميًا لكل ما يحدث؟ أليس جائزًا أن الفكر الذي يؤثر في الكائنات الحية يستطيع كذلك أن يؤثر في الكائنات الجامدة؟ ثم أليس جائزًا كذلك أن أشياء العالم الخارجي تستجيب لخواطرنا وأهوائنا دون فكر أو وعي فتجذب ذرة فيها ذرة بقانون الحب المخبوء

في كل شيء. ولكن كيفما كان التعليل فهو لا يغير من الأمر شيئًا، وهو لن يثير بعد اليوم بصلواته القوى الرهيبة في هذا الوجود. وكفاه ما كان. فتتغير الصورة إذا كان مقدرًا لها أن تتغير. فما له في ذلك حيلة، ولا داعي للتفكير في العللٍ والنتائج.

لسوف يجد لذّة في مشاهدة التطور الذي ينزل بها، ولسوف يقف على مكنونات عقله التي لا يعرف عنها شيئًا يومًا بعد يوم. لسوف تكون الصورة مرآته السحرية التي تعكس له تلافيف نفسه كما عكست له ثنايا جسمه. وحين يحل عليها الشتاء فيذويها يختال هو بين الربيع الناضر والصيف القوي. وحين يغيض الدم في وجنتيها ويترك وراءه صفحة شاحبة بيضاء ومقلة أطفأتها السنون يبقى له سحر الصبا. أجل. لن تذوي زهرة واحدة في بستانه اليانع ولن يهمد فيه عرق ينبض الآن بالحياة. ولسوف تبقى له فتوّته أبدًا وخفته أبدًا ومرحه أبدًا كأنه إله من آلهة الإغريق. فماذا يهم لو تبدلت الصورة أو شاهت أو تهشّمت؟ إنه في حصن حصين لا تصل إليه يد الزمن، وهذا كل ما يصبو إليه.

وغطى الصورة بالستار مرة أخرى وابتسم في رضا ثم دخل حجرة النوم حيث كان خادمه ينتظره، وبعد ساعة كان دوريان جراي في الأوپرا وكان اللورد هنري يتحدَّث إليه بصوت مهموس.

الفصل التاسع

وفي الصباح التالي جلس دوريان جراي ليتناول فطوره، وفيما هو كذلك دخل عليه بازيل هولوورد وقال مكتئبًا:

ـ أنا سعيد الحظ لأني وجدتك أخيرًا يا دوريان، وقد مررت بك ليلة الأمس فقيل لي إنك في دار الأوپرا، فلم أصدق ذلك. ولقد كنت أودُّ لو أنك بعثت إليَّ ببرقية عقب علمك بالحادث مباشرة أما أنا فقد طالعت النبأ في طبعة متأخِّرة من صحيفة الجلوب عثرت عليها في النادي بمحض المصادفة، فجئتك فورًا وأحزنني أني لم أجدك، فقد أشفقت أن تردف أنت هذه المأساة بمأساة أخرى، وأقضَّت هذه الفكرة مضجعي طول الليل فلم أذق للنوم طعمًا. كان يجدر بك يا دوريان أن تترك كلمة تعيِّن فيها المكان الذي قصدته، فقد أشقاني القلق عليك شقاء ما بعده من شقاء كما أحزنني موت سيبيل حزنًا ما بعده من حزن، وإني لأحسّ بأثر الفجيعة فيك فتجمّل بالصبر. ولكن أين كنت ليلة الأمس؟ أذهبت لتواسي أمّ الفتاة؟ لقد خطر ذلك ببالي وكدت أن أتبعك إلى بيتها ببوستون رود الذي قرأت عنوانه في الصحيفة، ولكني خفت أن تكون زيارتي لهذا البيت الحزين فضولًا يضر أكثر مما ينفع، فهذه فجيعة فريدة لا يفيد فيها عزاء وكيف تتعزّى من رزئت في وحيدتها، فيا لأمها الثكلى من امرأة منكودة الطالع. ما من ريب في أن قلبها قد مزَّقته الأحزان. قل

لي، كيف تراها استقبلت الحادث يا دوريان؟

قال الفتى وهو يرشف بعض النبيذ الأصفر من كأس دقيقة التكوين مزخرفة بالذهب صنعت من زجاج البندقية وقد بدا عليه الملل الشديد:

ـ كيف أعلم ذلك وقد كنت في الأوپرا؟ ليتك جئت معنا، فقد كانت ليلة ممتعة تعرَّفت فيها لأول مرة على الليدي جوندولين، أخت هاري، وقد كنَّا في مقصورتها فوجدتها امرأة فاتنة حقًا، وكان پاتي يغنِّي فأجاد الغناء. لا تتحدَّث يا بازيل عن الموضوعات المحزنة، فالشيء الذي لا نتحدث عنه لم يحدث البتة، لأن التعبير كما قال هاري هو الذي يكسب الأشياء صفة الحقيقة. ولكني أحب أن أذكر لك عرضًا أنه لمسز ڤين ابنًا لا يشتغل بالتمثيل بل يعمل كبحَّار وأعتقد أنه فتى لطيف. والآن فلتحدثني عن نفسك وما ترسمه في هذه الأيام.

قال هولوورد في بطء وكان صوته ينمّ عن ألم بالغ:

ـ أتقولك إنك ذهبت إلى الأوپرا؟ أتقول إنك ذهبت إلى الأوپرا حين كانت سيبيل ڤين مسجاة في بيتها المقبض؟ أتتحدَّث بجمال غيرها من النساء وبروعة غناء پاتي قبل أن تجد حبيبتك القبر الذي تستريح فيه. أنسيت أن الدود ينتظر جسدها البض الصغير في شوق ولهفة؟

فنهض دوريان من مكانه وصاح به قائلًا:

ـ كفى يا بازيل، ولا تذكر هذه الأشياء أمامي مرة أخرى، وانسَ ما فات فليس لأحد سلطان على الماضي.

ـ أتسمِّي الأمس بالماضي؟

ـ وما دخل الزمن في كل هذا؟ إنما يحتاج السذَّج إلى أعوام طويلة ليبرأوا من عاطفة ما، أما من تعوَّد أن يكون سيد نفسه فأحزانه تخضع لإرادته يصرفها حين يشاء، ولَذّاته طوع بنانه يخلقها متى أحب، وأنا لا أريد أن أدع عواطفي تستبد بي بل أريد أن أستخدمها وأنعم بها وأسيطر عليها.

ـ هذه قسوة منك يا دوريان، ولا بد أن شيئًا قد بدَّل من طباعك تمامًا. أنت لا زلت كما كنت دائمًا ذلك الفتى الصبوح المحيا الذي كان يجيئني في الاستوديو يومًا بعد يوم لأرسمه، ولكنك كنت في الماضي ساذجًا طيب القلب تسير على سجيتك، بل كنت أنقى من عرفت من الناس، أما الآن فأنت تتحدث حديث شخص ميت الإحساس وهذا لا ريب أثر هنري فيك.

فاحمرّ وجه الفتى ومشى إلى النافذة وأنشأ يتأمَّل حشائش الحديقة الخضراء التي تلمع في ضوء الشمس لحظات ثم قال:

ـ إن دَيْني لهنري أثقل من ديني لك يا بازيل، فأنت لم تعلّمني إلا أن أغترَّ بنفسي.

ـ إذا كان الأمر كذلك فقد حَلّ بي غضب السماء أو سيحل يومًا من الأيام.

التفت الفتى إليه وقال:

ـ لست أفهم ما تقول يا بازيل. ماذا تريد مني. أجب.

فأجاب الفنان بنفس حزينة:

ـ أريد منك أن أرى فيك دوريان جراي الذي اعتدت أن أرسمه.

فسعى الفتى إليه ووضع يده على منكبه قائلًا:

ـ لقد جئت متأخرًا يا بازيل، فحين سمعت البارحة أن سيبيل ڤين قد انتحرت...

حملق هولوورد فيه فزعًا وصاح مقاطعاً:

ـ انتحرت! يا إلهي! أهذا مقطوع به؟

ـ بالطبع انتحرت. هل انطلى على ذكائك الوقَّاد يا عزيزي بازيل أن موتها كان نتيجة حادثة عادية.

فدفن الرسَّام وجهه في كَفّيه وقال وهو يرتجف:

ـ يا للفظاعة!

قال دوريان جراي:

ـ ليس في الأمر فظاعة فلقد كان مصرعها مأساة من أجمل مآسي العصر. فأنت تلاحظ أن المشتغلين بالتمثيل يعيشون كعامة الناس عيشة مملة لا خيال فيها رغم أنهم يتجرون بالخيال ويبيعون الأحلام فتجد منهم الأزواج الأفاضل والزوجات الوفيات وما شاكل ذلك من الفضائل التي تتميَّز بها الطبقة المتوسِّطة. أما سيبيل فقد كانت تختلف كل الاختلاف. فقد كانت تلعب دور البطلة في مآسي المسرح وفي مآسي الحياة. وفي آخر ليلة مثَّلت فيها، وهي ليلة أن رأيتها، سقطت في التمثيل لأنها لمست حقيقة الحب فكشفت لها حقية الحب عن زيف الفن. فلما أدركت زيف الفن ماتت، ولكنها لم تمت كما تموت بنات الحياة بل ماتت كما تموت بنات الخيال، ماتت ميتة چولييت، فدخلت حرم الفن من جديد بعد أن خرجت منه. وهي في عداد الشهداء لأن لموتها كل ما للاستشهاد من جمال ضائع وتضحية لا طائل وراءها. ولا تحسبني لم أحزن لوفاتها، فلو قد جئتني بالأمس نحو منتصف الساعة السابعة لوجدتني أبكي. وهنري ذاته الذي حمل إليَّ نبأ وفاتها لم يعرف مبلغ شقائي ساعتها. نعم، لقد حزنت عليها حزنًا كثيرًا ثم زال الحزن عني ولن أستطيع أن أسترجعه فما تعوَّدت أن أكرِّر عواطفي، لأن هذا خليق بأصحاب العواطف الزائفة، ولستُ منهم. فأنت كما ترى يا بازيل تظلمني ظلمًا فاحشًا إذا تقول بأني ميِّت الإحساس. لقد جئتني لتعزيني وهذا جميل منك، فتجدني متعزيًا فيغضبك أن أكون كذلك. فهل أنت من أصحاب العواطف الزائفة؟ أنت تذكرني بقصة رواها لي هنري عن رجل من أولئك الرجال الذين أتعبهم حب البشر أضاع من عمره عشرين عامًا في إصلاح قانون ظالم فلما وفق أخيرًا إلى ذلك وارتفع الظلم أصيب بخيبة أمل شديدة، فقد وجد نفسه عاطلًا تمامًا لا يجد ما يعمله حتى كاد الملل أن يقتله فانقلب من محب للبشر إلى ناقم على البشر. ثم إنك لو أردت أن تواسيني يا

عزيزي بازيل فلخير أن تعلمني كيف أنسى ما حدث من أن تذكِّرني به، لخير أن تعلمني كيف أستقبل هذه المحنة استقبال الفنان من أن تطلب إليَّ أن أستقبلها استقبال الإنسان العادي. أليس جوتييه[1] هو القائل بأن الفن يواسي النفس؟ هذه عبارة قرأتها في كتاب له وجدته مصادفة أيام كنت أزورك في الاستوديو. ولست كذلك الشاب الذي ذكرت لي عنه حين كنا معًا في مارلو أنه يقول إن ملمس الأطلس الناعم ينسيه كل ما في العالم من أحزان، فأنا أتعشق الأشياء الجميلة ولا أقنع منها بالقليل. أنا أحب التماثيل البرونزية والتماثيل العاجية والقماش المزخرف القديم وأدوات الترف وأسباب البذخ، وبالجملة أحب أن يكون كل ما تقع عليه حواسي جميلًا فيه أثر الفن. مثل هذه الأشياء تجعل الحياة بهيجة ولكن قيمتها الأولى عندي هي أن تلهمني بالخواطر الفنية أو تعرض عليّ ما فيها من فن على أقل تقدير. فاجتناب آلام الحياة لا يكون إلا بعلو الذات ووقوف الإنسان موقف المشاهد من نفسه كما قال هنري. أعلم أن حديثي هذا يذهلك لأنك لم تتعوده مني، ولكنك تنسى أني قد أموت. لقد عرفتني حين كنت تلميذًا لا خبرة لي بالحياة، أما الآن فأنا رجل كامل النمو وأفكاري اليوم غير أفكاري بالأمس وعواطفي اليوم غير عواطفي بالأمس، وإذا كنت قد تغيَّرت فهذا لا يستتبع أن تخفف من حبك لي بل ينبغي عليك أن تظل كما كنت دائمًا صديقي الوفي رغم أني قد تغيَّرت. وأنا أحب هنري حبًا لا شك فيه ولكني أعتقد أنك أطيب منه نفسًا. نعم أنت أطيب منه نفسًا رغم أنه أقوى منك شخصية وأقل خوفًا من الحياة. تذكر يا بازيل كيف كنا سعيدين معًا في الماضي فأرجوك ألا تقاطعني أو تتشاجر معي. وإذا كنت ترجو مني أن أعود كما كنت فأنت مخطئ، وواجبك أن تقبلني على علاتي. هذه وجهة نظري قد بسطتها لك وليس

(1) ثيوفيل جوتييه (1811–1872) شاعر فرنسي، كتب المسرحية والرواية والنقد الأدبي.

لدي ما أضيفه إليها.

وتأثَّر الرسَّام لهذا الكلام فقد كان يحب الفتى أيَّما حب ويعلم أن شخصيته قد ألهمته بأسلوب في فنه جديد. ولهذا لم يحتمل أن يسترسل في لومه. وقد كان يعرف فيه النبل وكرم النفس فظن أن فتوره في الأيام الأخيرة ليس إلا نوبة عارضة.

فقال أخيرًا وهو يبتسم ابتسامة حزينة:

ـ لن أحدّثك مرة أخرى في هذا الموضوع الفظيع يا دوريان، وكل ما أرجوه ألا يرتبط اسمك بالحادث على صورة ما. إن التحقيق سيجري عصر اليوم فهل استدعتك النيابة؟

فهزَّ دوريان رأسه دلالة النفي وبدا عليه الاستياء من ذكر التحقيق، فقد كان يرى في أشباه هذه الأشياء أنها تصلح للرعاع لا للسادة. قال:

ـ إنهم يجهلون اسمي.

ـ ولكن الفتاة كانت تعرفه بلا شك.

ـ كلا. إنما كانت تعرف اسمي الأول فقط، وأنا واثق من أنها لم تبح به لمخلوق، فقد ذكرت لي مرة أنهم كلما سألوها عني أجابتهم بأن اسمي الأمير الساحر، فأحسنت بذلك صنعًا. أرجوك يا بازيل أن ترسم لي صورة من سيبيل لأني أحب أن يبقى لي منها شيء يذكّرني بها غير القبلات القليلة التي تبادلناها والكلمات الحزينة التي سمعتها منها.

ـ إذا كان هذا يرضيك يا دوريان فسأحاول أن أرسم صورة منها. ولكني أطلب إليك أن تعود إليَّ لأرسمك من جديد فقد انقطع عني الوحي منذ أن غبت عني.

فجفل الفتى وأجاب:

ـ هذا مستحيل يا بازيل. فلن أستطيع أن أقف أمامك مرة أخرى لترسمني.

فحملق الرسَّام فيه وقال:

ـ ما هذا الهراء يا عزيزي؟ أأفهم من هذا أن الصورة التي رسمتها لك لم تعجبك؟ ولماذا تحجبها بهذا الستار؟ دعني أرها فهي خير ما أنتجت في حياتي أرجوك أن تنزع عنها الستار يا دوريان، واعلم أن خادمك قد تجاوز حدود الذوق حين حجب هذه الصورة عن الأنظار. لقد لاحظت أن منظر الحجرة غير مألوف لديَّ لحظة أن دخلتها.

ـ إن خادمي لا صلة له بهذا الأمر يا بازيل. أتحسب أني أسمح له بأن يتصرَّف في حجرتي كما يشاء؟ إن كل ما أسمح به لڤكتور هنا هو ترتيب الأزهار من وقت إلى آخر. لقد غطيت الصورة بنفسي لأن الضوء الساقط عليها قوي فخفت أن يفسدها.

ـ من أين جئت بهذه النظريات يا عزيزي؟ إن هذا أنسب مكان لها. دعني أرها.

وسار هولوورد إلى ركن الحجرة قاصدًا الصورة، فشحب وجه دوريان جراي وانبعثت منه صيحة فزع وأسرع ليعترض سبيله قائلًا:

ـ أنا أمنعك عن رؤية هذه الصورة يا بازيل.

فقال هولوورد ضاحكًا:

ـ وكيف تمنعني عن رؤية عمل من أعمالي؟ إنك لا ريب تهزل.

ـ كلا، فأنا جاد في ما أقول تمامًا. وإذا أنت حاولت رؤيتها يا بازيل فإني أقسم بشرفي أني لن أكلمك ما حييت. لا تطلب إلى إبداء أسباب فإن فعلت فلن تظفر مني بشيء، ولكن تذكر أنك لو جذبت هذا الستار فإن كل صلة بيننا تنتهي.

نزلت هذه الكلمات على هولوورد نزول الصاعقة ونظر إلى دوريان جراي في عجب شديد، فرأى الدم قد غاض من وجهه غضبًا، ورأى قبضتيه معقودتين وفي عينيه اشتعلت نيران زرقاء، وأبصر كل جارحة فيه تنتفض انتفاضًا. قال:

ـ ما لك يا دوريان!

ـ صه.

فتركه الرسَّام ومضى إلى النافذة وقال ببرود:

ـ ماذا انتابك يادوريان؟ إذا كنت تكره أن أرى الصورة فلن أراها بطبيعة الحال، ولكن من السخف أن يُحال بيني وبين عملي على هذا النحو وخاصة لأني أنوي عرضها في باريس في الخريف القادم، وأحسب أنها ستحتاج إلى طبقة جديدة من الورنيش قبل عرضها، فإذا كنت سأراها في يوم من الأيام فما الفرق بين رؤيتها الآن ورؤيتها غدًا؟

فتملَّك الفزع دوريان جراي وصاح به:

ـ أتريد أن تعرضها؟ أتريد أن تعرضها؟

إذا فسيقف العالم كله على سره ويعجب الناس لهذا اللغز العظيم. ولكن هذا مستحيل، لأن دوريان جراي لن يسمح بذلك. نعم لا بد من عمل شيء أيًا كان ليحول دوريان جراي دون ذلك. قال الرسَّام:

ـ نعم، أريد أن أعرضها، وأحسب أنك لا تمانع في ذلك. إن چورچ پتي سوف يجمع أجوَد صوري ويرسلها إلى معرض خاص بشارع سيز بباريس وهذا المعرض سيفتح أبوابه في الأسبوع الأول من أكتوبر، ولن تغيب عنك الصورة أكثر من شهر واحد، ولن تخسر بذلك شيئًا كثيرًا لأنك ستغادر لندن إبان ذلك الشهر على أية حال، وإذا كنت تحجب الصورة دائمًا بهذا الستار فيستوي لديك وجودها وعدم وجودها.

ومر دوريان بيده فوق جبينه ليمسح العرق المتصبب منه، وأحس بخطر هائل يحدق به. قال:

ـ أما قلت لي منذ شهر إنك لن تعرض الصورة قط؟ فلم عدلت عن قرارك هذا؟ إني لأرى أن أمثالك من الناس الذين يتمسكون بالمعقولية لا يقلّون تقلبًا في أهوائهم عن غيرهم، وكل ما هنالك أن نزواتكم سفيهة لا معنى لها. أنسيت أنك أكدت لي بكل ما تملك من قوة أنه لن يحملك على عرضها شيء في الوجود. ألم تقل لهنري نفسه هذا الكلام؟

ثم توقَّف فجأة عن الحديث ولمع في عينيه بريق. فلقد تذكَّر أن اللورد هنري قال له ذات مرة بين الجد والدعابة، «إذا أردت أن تقضي ربع ساعة من أعجب ما مرَّ بك فاجعلْ بازيل يدلي إليك بالأسباب التي تمنعه من عرض الصورة، ولقد أدلى إليَّ بهذه الأسباب فعلَّمتني عنه شيئًا لم أكن أعرفه فيه». نعم. من الجائز أن لبازيل كذلك سرًا يريد أن يحتفظ به لنفسه، فليحاول إذا أن ينزع منه هذا السر.

ومشى الفتى إليه ثم نظر إليه نظرة ثابتة وقال:

ـ اسمع يا بازيل، إن لكل منَّا سرًا يود أن يحتفظ لنفسه به، فلو بحت لي بسرك بحت لك بسري. لماذا كنت ترفض عرض الصورة في بادئ الأمر؟

فارتجف الرسَّام رغم أنه حاول أن يضبط شعوره وأجاب:

ـ لو أنني ذكرت لك السبب يا دوريان لجاز أن ينقص ذلك من حبك لي ولسخرت مني بغير شك، وأنا حريص على حبك حريص على احترامك. وإني لراضٍ بما يرضيك، فإذا كان يرضيك ألا أرى الصورة أبدًا فإني بذلك راضٍ. ويكفيني أن أراك دائمًا أمامي فلا حاجة لي إذًا بالصورة. وإذا كان يرضيك أن تحجب أجمل صورة رسمتها عن أنظار العالم. فهذا يرضيني كذلك لأن صداقتك أعزّ عندي من كل شهرة أو صيت.

فقال دوريان ملحفًا في سؤاله:

ـ بل يجب أن تذكر لي السبب فمن حقي أن أعرفه.

وزال عن دوريان جراي إحساسه بالفزع وحل محلَّه الفضول، وصحّ عزمه على انتزاع هذا السر من بازيل هولوورد مهما كلَّفه ذلك. وبدا على الرسَّام القلق وهو يقول:

ـ فلنجلس يا دوريان، فلنجلس. ولكن قبل أن أعترف لك بشيء أجبني على هذا السؤال: هل لاحظت في الصورة شيئًا غريبًا، شيئًا لم تره

فيها أولًا. ثم ظهر فيها فجأة؟

فحملق الفتى فيه في رعب وذهول وارتجفت يداه وقبضتا على ذراعي مقعده وصاح:

ـ وكيف عرفت يا بازيل؟

ـ أرى أنك لاحظت في الصورة شيئًا غريبًا كما قلت، فلا تقاطعني يا دوريان وتريث حتى تسمع أقوالي كلها. لقد كان لشخصيتك سلطان عظيم على نفسي منذ أن تقابلنا يا دوريان فامتلكت روحي وعقلي وسائر ملكاتي وصرت أرى فيك صورة المثل الأعلى الذي يأتينا معشر الفنانين من وادي الذكريات ولا يفتأ يلم بنا إلمام الحلم الجميل. ولقد عبدت هذا المثل الأعلى في شخصك حتى بت أغار من كل من تتحدَّث إليه وأحسب أنه سيصرفك عني وأردت أن أستحوذ على كل ما فيك وحدي وكانت السعادة تجيئني بمجيئك وتغيب عني بغيبتك، ولكنك كنت حاضرًا في فني دائمًا أبدًا كلَّما غاب شخصك عني. ولم يكن في استطاعتي بطبيعة الحال أن أبوح لك بهذا السر فما كنت لتفهم معناه فأنا صاحبه لم أكن أفهم معناه، وكل ما فهمت منه أني رأيت الكمال رؤية العين وأني أحسست ببهجة الحياة بعد أن كنت شقيًا. ولعلي أسرفت في ابتهاجي بالحياة فقد لازمني الإحساس بخطر محدِّق، فقد كنت أخاف من فقدانك وكنت أخاف من إبقائك، وهذا من خصائص الحب المدمِّر، وكلما مرَّت الأيام زاد اندماجي فيك. ولقد رسمتك في صورة أدونيس حاملًا رمحًا مصقولًا لابسًا بزَّة الصيادين، ورسمتك في زورق هادريان توَّجت رأسك أزهار اللوتس الثقيلة وامتد بصرك وراء مياه النيل المضطربة الخضراء، ورسمتك في صورة إله النرجس تتأمَّل وجهك الجميل في غديرٍ صافٍ ساكن بين أدغال اليونان. وقد لزمت حدود الفن الصحيح في كل ذلك فكان عملي مثاليًا بعيدًا عن الحياة لا دخل للوعي فيه. ثم جاءت نقطة تحول. عزمت ذات يوم على أن أرسم صورة منك عظيمة، بل صورة لك

كما أنت في الواقع وفي ملابس العصر الذي تعيش فيه. ولست أدري ماذا دفعني إلى ذلك أهو جمال الأسلوب الواقعي أم جمالك أنت يا دوريان وقد ظهر شخصك لي مجرَّدًا عن أساطير الفن. ولكني أحسست وأنا أرسمك بأن كل خط أمده وكل طبقة من اللون أضعها على اللوحة تفضح سري، وأشفقت أن يرى الناس هذه الوثنية الجديدة في عملي. أحسست يا دوريان بأني قد بحت للناس بأكثر مما ينبغي لي أن أبوح به، وإني قد وضعت في الصورة من نفسي أكثر مما ينبغي أن أضع. وهذا ما جعلني أقرِّر ألا أعرض الصورة، وقد أحنقتك كلماتي قليلًا ولكنك لم تفهم وقتئذ معنى الصورة عندي. أما هنري فقد صارحته بهذه الحقيقة فضحك مني ساخرًا، ولكني لم أكترث لسخريته لأني أفهم أسلوب تفكيره. فلما أن تمَّت الصورة وجدت نفسي على انفراد معها فتبيَّنت صدق إحساسي. ولكن الصورة انتقلت من الاستوديو إلى بيتك بعد بضعة أيام فزال سحرها في نفسي وخلت أني تركت نفسي فريسة للأوهام حين رأيت في الصورة شيئًا غير عادي ولم أعد أرى فيها إلا أنها صورة شاب جميل رُسمت بيد رسّام ماهر. بل أنا الآن أحس أن من الغباوة أن يحسب إنسان أن العواطف التي تصاحب عملية الخلق عند الفنان تتجلَّى في الأثر الذي يخلقه. فالفن شيء مجرَّد على عكس ما نعتقد. والقالب واللون لا يدلان إلا على القالب واللون، وكل ما خرج عن هذا هو من نسج الخيال. وكثيراً ما يجول ببالي أن الفن يطمس شخصية الفنان ولا يظهر منها إلا القليل. وهذا ما جعلني أقرر أن أجعل من صورتك اللوحة الأساسية في معرضي حين وصلتني هذه الدعوة من باريس، ولم يخطر ببالي قط أنك سترفض، ولكني أرى الآن أنك على صواب والصورة لا يمكن أن تعرض وأرجو ألا تغضب لما قلت يا دوريان، فأنت لم تخلق إلا لتُعبد. هذا رأيي، وقد صارحت به هنري ذات مرة.

تنفَّس دوريان جراي الصعداء، وتورَّدت وجنتاه من جديد وهَمَّ بأن

يبتسم. فلقد زال عنه الخطر وأحس أنه بمأمن في تلك الساعة، واختلج فؤاده بالرثاء للرسَّام الذي فزغ منذ لحظة من هذا الاعتراف الغريب، ثم انصرف إلى التفكير في نفسه واستبعد أن يحدث له ما حدث لبازيل هولوورد استبعد أن يكون لأحد عليه كل هذا السلطان مهما بلغ حبه له. إن اللورد هنري كان يفتنه لأنه رجل خطر، ولكن هذا كل ما في الأمر. إن ذكاء اللورد هنري شديد إلى الحد الذي يخيفه وسخريته من كل شيء في الحياة تقف سدًّا حائلًا بينهما، ولهذا كان مستحيلًا أن يحب دوريان جراي اللورد هنري كل هذا الحب العميق. أهناك شخص تخبئه له المقادير سيفعل به ما فعله هو بالرسَّام ويملؤه بهذه الوثنية العجيبة؟ قال هولوورد.

ـ عجيب أن ترى هذا في الصورة يا دوريان. أصحيح أنك رأيته؟

فأجاب الفتى:

ـ لقد رأيت في الصورة شيئًا، شيئًا بدا لي عجيبًا.

ـ والآن وقد عرفت كل شيء أتسمح لي برؤية الصورة.

فهز دوريان رأسه قائلًا:

ـ كلا يا بازيل، وأرجوك ألا تسألني ذلك مرَّة أخرى فلن أسمح لك بأن ترى الصورة.

ـ ولكنك ستسمح لي بذلك في المستقبل، أليس كذلك؟

ـ كلا لن أسمح لك بذلك أبدًا.

ـ ربما كنت مصيبًا في هذا يا دوريان. والآن لا بد لي من الانصراف فإلى اللقاء. لقد كنت الشخص الوحيد الذي ترك في فَنّي أثرًا دائمًا، وإني لمدين لك بكل ما في إنتاجي من جمال. ولكنك لا تعرف كم كلّفني الإفضاء إليك بهذا الكلام.

فقال دوريان:

ـ ولكنك لم تفضِ إليَّ بشيء يا عزيزي بازيل سوى أن إعجابك بي قد استبد بك، وهذا ليس شيئًا مذكورًا فهو لا يصلح حتى أن يكون مجاملة.

ـ أنا لم أقصد به أن يكون مجاملة، وإنما قصدت به أن يكون اعترافًا. والآن وقد اعترفت على يديك أراني أحس بأني قد فقدت شيئًا. لعل الصلوات تفسد العبادات.

ـ إذا كان ذلك اعترافًا فقد خاب أملي فيه.

ـ وكيف كان ذلك يا دوريان، أكنت تتوقَّع شيئًا آخر؟ أرأيت في الصورة شيئًا آخر؟ أجبني. أجبني.

ـ كلا، ولكن لِم تسأل هذا السؤال؟ لا تتحدَّث عن العبادة بعد الآن يا بازيل، فما نحن إلا صديقان وصداقتنا يجب أن تدوم.

فقال الرسَّام بقلب حزين:

ـ ولكن ماذا يهمك من أمري؟ إن لك في هنري ما يؤنس وحشتك.

فأجاب الفتى ضاحكاً:

ـ إن هنري يقضي أيامه في قول الغرائب، ويقضي لياليه في فعل العجائب، وهذا ما يحببني فيه، ولكني لا أعتقد أني ألتجىء إلى هنري إذا أصابني مكروه، فأنت أدنى إليَّ منه.

ـ أنا أنتظر منك أن تأتيني لأرسمك مرة أخرى.

ـ هذا محال.

ـ أنت تفسد حياتي الفنية برفضك هذا يا دوريان بعد أن عثرت فيك على مَثَلي الأعلى فقليل من الناس من يجد المثل الأعلى. أما أنا فقد أوتيت مثلين: أنت وفني، وهذا ما لم يحظَ به إنسان.

ـ لا تطلب مني تفسيرًا يا بازيل، ولكن محال أن أسمح لك برسمي مرَّة أخرى. يخيل إليَّ أن للأقدار يدًا في كل صورة تُرسم، وكأني بالصور تحيا كما يحيا الإنسان. نعم، محال أن أسمح برسمي مرَّة أخرى ولكني سأزورك لأتناول معك الشاي وفي هذا المتعة نفسها .

ـ ربما وجدت أنت فيه المتعة نفسها أما أنا فلا. إلى اللقاء يا دوريان.
كم يحزنني أنك لا تأذن لي برؤية الصورة مرة أخرى، ولكن لا بد مما ليس منه بد، وإني لأقدِّر شعورك حق قدره.

ثم انصرف فابتسم دوريان ابتسامة الراضي عن نفسه. إن بازيل المسكين قد مضى وهو يحسب أنه وقف على سِرّ دوريان جراي وما وقف على شيء البتة. ثم أليس عجيبًا أن ينجح في انتزاع ذلك الاعتراف من صدر بازيل بعد أن كان على أهبة الاعتراف بسره له؟ ولقد فسّر اعتراف بازيل هولوورد له الكثير مما كان خافيًا عليه، فسر له نوبات الغيرة الحمقاء التي كانت تعتري الرسَّام فلا يستطيع لها كبتًا، وفسَّر له تفانيه الكامل في حبه، وفسّر له إسرافه في اطرائه، فسر له الصمت الطويل الغريب الذي كان يلازمه بين وقت وآخر. كل هذه الأشياء اتضحت له بعد إبهام، فتألم لحاله ألمًا عظيمًا، وأحس بأن صداقة كهذه اصطبغت بألوان الخيال تنذر بفاجعة أكيدة.

وتنهَّد ثم دق الجرس. لقد عزم على شيء، وليس هناك ما يثنيه عن عزمه. يجب أن تخفي الصورة عن الأنظار مهما كانت النتائج، فلن يعرِّض سره للافتضاح بعد الآن. لقد كان جنونًا منه أن يترك الصورة ولو لساعة واحدة في حجرة تطؤها كل قدم.

الفصل العاشر

دخل ڤكتور فنظر دوريان جراي إليه نظرة فاحصة لعله يرى إن كان قد جال بباله أن يكشف الحجاب ليرى الصورة المخبوءة خلفه، لكن وجه الخادم بدا له كالقناع الخالي من كل تعبير، وظل الرجل ثابتًا في مكانه ينتظر أوامره. وأشعل دوريان سيجارة ومشى حتى بلغ المرآة وأنشأ يتأمَّل خياله فيها. كذلك أبصر خيال ڤكتور فيها، وبدا الخادم له كمثال للخنوع فزال عنه خوفه منه ولكنه لم ينزل عن رغبته في الحذر.

وطلب دوريان من خادمه في لهجة بطيئة أن يرسل إليه المدبِّرة ثم يقصد إلى النجار ويسأله أن يوفد إليه رجلين من عنده فورًا. وحين انصرف ڤكتور خيِّل إلى دوريان أنه ألقى نظرة على الستار، ولكن لعله كان واهمًا.

وبعد دقائق دخلت مسز ليف المكتبة في جلبة واضحة، وكانت تلبس ثيابًا حريرية سوداء انقرض زيها منذ زمن. وطلب دوريان منها أن تعطيه مفتاح الحجرة التي كان يستعملها أيام الدراسة. فقالت المدبرة:

ـ ولكن حجرة الدراسة قذرة يكسو الغبار كل ما فيها يا مستر دوريان، ولا بد أن أتولى تنظيفها وترتيبها أولا قبل أن تدخلها فهي في حالة سيئة جدًا.

ـ ولكني لا أريد أن أراها نظيفة ومرتبة، وكل ما أريده هو المفتاح يا مسز ليف.

ـ إذا دخلتها سيدي فسوف يتساقط عليك التراب وتتراكم العناكب، فقد ظلَّت مدَّة منذ وفاة سيدي اللورد.

فعبس دوريان جراي حين سمع اسم جده فقد كان يبغض ذكراه. وقال:

ـ هذا لا يهم، فكل ما أريده هو أن ألقي نظرة على المكان فهاتي المفتاح.

فأنشأت السيدة العجوز تبحث بيدين مضطربتين عن المفتاح بين مجموعة من المفاتيح مربوطة في حلقة وهي تردِّد:

ـ ها هو المفتاح، يا سيدي. ها هو المفتاح يا سيدي. تريَّث حتى أخرجه من الحلقة ولكن أرجوك يا سيدي ألا تنتقل إلى حجرة الدراسة فأنت هنا في أتم راحة.

وأخذ منها المفتاح وهو يقول في ضيق:

ـ كلا يا مسز ليف، لن أنتقل إلى حجرة الدراسة، وأشكرك على المفتاح. لن أحتاج إلى شيء آخر.

ولكنها لم تنصرف فورًا بل طفقت تشرح له بعض الشؤون المنزلية التافهة، فابتسم لها وأفهمها أنه قد أطلق يديها في الأمر تتصرَّف فيه كما تشاء فانصرفت مغتبطة بهذه الثقة.

ولما أغلقت الباب خلفها وضع دوريان المفتاح في جيبه ثم نظر في أنحاء الحجرة فوقعت عينه على غطاء حريري في لون البنفسج موشى بالذهب في كثير من أجزائه، وكان هذا الغطاء تحفة في فن النسيج صنع في البندقية في نهاية القرن السابع عشر وقد عثر عليه جده في دير من أديرة النساء بالقرب من بولونيا. ووجد دوريان في هذا الغطاء ستارًا مناسبًا يستر به الصورة البغيضة. ولعل الغطاء كان في الماضي كفنًا يغَطّى به الميت، وهو اليوم يستر شيئًا لا يقل عن الجيف تعفنًا، شيئًا تقشعر الأبدان لمرآه ولا سبيل إلى زواله. إن خطاياه قد أصبحت تفعل باللوحة فعل الديدان

بالجثث ولسوف تذهب بجمالها وتشوه فتنتها وتدنسها تدنيس شديدًا، ومع ذلك فلن يضع شيء لحياتها حدًا لأنها خالدة.

وارتجف وعضه الندم على إخفاء الحقيقة عن بازيل، فلو أنه فعل لساعده بازيل على التخلص من نفوذ اللورد هنري عليه، بل لساعده على كبح جماح نفسه التي كانت تميل بفطرتها للشر. فالحب الذي يكنّه بازيل له لم يكن مجرد إعجاب بجماله نشأ في الحواس وينتظر أن ينطفئ بانطفائها بل كان شوقًا عقليًا، شوقًا نبيلًا، شوقًا كذلك الشوق الذي ملأ حياة ميكل أنچلو ومونتين وڤنكلمان وشكسپير نفسه. نعم، كان في استطاعة بازيل أن ينقذ روحه من الهلاك الذي ينتظرها، لو كان لقد فات الأوان وهو يستطيع أن يتنكَّر لماضيه ويمحقه محقًا إما بنسيانه أو بإنكاره أو بالندم عليه، ولكن المستقبل لا مفرَّ منه فهو أسير نفسه ونفسه أمارة بالسوء وهو عبد رغباته وهي شريرة.

ونزع دوريان جراي من الأريكة ذلك الغطاء البنفسجي الكبير الموشَّى بالذهب الذي كان يكسوها وسار به حتى بلغ الستار المنشور على الصورة وجذبه عنها، وتأمَّل وجهه في اللوحة فلم يدرِ إن كانت ملامحه قد ازدادت بشاعة. إن مظهر الوجه يدله على أنه لم يتغيَّر ومع ذلك فقد اشتد كرهه له. فالشعر الذهبي والعينان الزرقاوان والشفتان الورديتان كل هذه كانت تطالعه في الصورة كما كانت تفعل قبلًا، ولكن التعبير قد تغيَّر، وهذا ما حزَّ في فؤاده حزًّا شديدًا. إن الصورة لتؤنبه على أفعاله، ولغتها الصامتة أقسى من تأنيب بازيل ألف مرة. لقد أطلَّت روحه من اللوحة لتذكره بسوء المصير. فلمَّا أن غلبه الألم نشر الغطاء البنفسجي المزخرف على الصورة فحجبها، وفيما هو يفعل كذلك طرق الباب طارق. وابتعد دوريان جراي حين لمح خادمه يدخل الحجرة. قال الخادم.

ـ لقد حضر الرجال يا سيدي.

وأحس دوريان جراي بأن خادمه مصدر إزعاج فرأى أن يتخلَّص منه،

إذ ليس من الحكمة أن يعرف مقر الصورة الجديد. لقد كان ڤكتور ماكرًا شيئًا ما، كما أن في عينيه ما ينم عن الخبث، ولذا وجب استبعاده. بذلك جلس دوريان جراي إلى مكتبه وخطّ سطورًا معدودات إلى اللورد هنري يسأله فيها أن يسعفه بكتب يقرؤها ويذكره بأن موعدهما في الثامنة والربع من ذلك المساء. ثم سلَّم الرسالة إلى خادمه قائلًا:

ـ جئني برد اللورد هنري، وقبل أن تذهب أدخل الرجال.

ومرَّت دقائق قليلة سُمع بعدها بابه طرقًا، ثم دخل عليه مستر هبارد صانع الإطارات المعروف في شارع سوث أودلي بشخصه وفي معيته مساعد له كريه المنظر. وكان مستر هبارد رجلًا ضئيل الجسم أحمر السوالف ممتلئًا بالحيوية يحب الفن حقًا ولكن حماسته للفن قد خفَّف منها أن أغلب عملائه من الفنانين مفلسون، وهو حريص على أن يتقاضى ثمن ما يصنع من إطارات. ولم يكن مستر هبارد لينتقل إلى بيت عميل مهما علا شأنه، ولكنه كان يستثنى دوريان جراي من هذه القاعدة. فلقد كان دوريان جراي يجذب كل عارفيه، وكان مستر هبارد كسائر الناس يغتبط لرؤيته. وقال هو يفرك يديه اللتين بدت عليهما آثار الجدري:

ـ أي خدمة تريدها مني يا مستر جراي؟ إنه ليشرِّفني أن أحظى برؤيتك ولذلك تراني جئتك بشخصي. لقد ابتعت اليوم فقط إطارًا بديعًا عثرت عليه في مزاد من الطراز الفلورنسي القديم وأعتقد أنه آتٍ من فونتهيل، وسوف تجد أنه يناسب صورة موضوعها ديني.

ـ يؤسفني أنك قد أزعجت نفسك بالحضور شخصيًا يا مستر هبارد فالمسألة ليست ذات بال. ولا شك أني سأزورك لأرى الإطار بنفسي رغم أني في هذه الأيام لا أكترث كثيرًا للفن الديني. وكل ما أريده الآن هو نقل صورة عندي إلى غرفة بأعلى المنزل، وقد رأيت أن أطلب رجلين من رجالك لهذا الغرض.

ـ ليس في مجيئي أي إزعاج لي يا مستر جراي بل إن فيه سرورًا عظيمًا

لي، فأي صورة تريد نقلها يا سيدي.
فقال دوريان وهو يزيح الغطاء عن الصورة:
ـ هذه الصورة يا مستر هبارد، أتستطيع أن تنقلها كما هي بغطائها؟ أرجو ألا تصاب الصورة بخدش أثناء نقلها.
فأجاب الرجل الطيب مستر هبارد:
ـ هذا شيء يسير يا سيدي.
ثم شرع يخلع السلاسل النحاسية التي كانت الصورة معلقة بها في الحائط بمساعدة زميله ثم أردف:
ـ والآن يا مستر جراي إلى أين تريد نقلها؟
ـ اتبعني يا مستر هبارد إذا سمحت. إن الغرفة التي أريد نقل الصورة إليها في أعلى البيت وسنستخدم السلم الأمامي فهو أعرض من السلم الآخر. ويبدو لي أن من الأفضل أن تتقدمني أنت. وأمسك الباب المفتوح حتى نفذ الرجلان منه إلى القاعة وشرعا في الصعود. ثم لحق بهما، وكانت الصورة أضخم من المعتاد لأن إطارها المزخرف كان أضخم من المعتاد، لذلك كان دوريان جراي من وقت لآخر يساعدهما على الرغم من اعتراضات مستر هبارد الكريم الذي كان يعز على نفسه أن يرى أي «چنتلمان» يشترك في عمل نافع. وحين بلغوا آخر قاعدة في السلم مسح مستر هبارد العرق المتصبب على جبينه وقال وهو يلهث:
ـ إنها لحمل ثقيل يا سيدي.
فأجاب دوريان قائلًا:
ـ نعم يا مستر هبارد، إنها حمل ثقيل.
ثم فتح لهما باب الغرفة التي أراد أن تحجب سِرّه عن عيون الناس.
لم يكن دوريان قد دخل غرفة الدراسة منذ زمن طويل وكان آخر عهده بها أيام كان يلعب فيها طفلًا ثم أيام كان يستذكر دروسه فيها صبيًا. وكانت الحجرة واسعة متناسقة بناها اللورد كاسو خصيصًا لحفيده دوريان

ليقصيه عنه ما أمكن ذلك، فقد كان يشبه أمه إلى حد غريب واللورد كلسو كان يكره كل ما يذكِّره بأمه التي فرَّت مع ذلك الصعلوك الفقير وجعلت اسمه مضغة في أفواه الناس. وحين دخل دوريان الحجرة وجدها على حالها القديم ورأى الصندوق الكبير المذهَّب الحواشي المصنوع في إيطاليا ذا الجوانب الخرافية النقوش، ذلك الصندوق الذي اعتاد أن يختبئ فيه أيام كان صبيًا يلهو. كذلك رأى حمَّالة الكتب تحمل كتبه الدراسية ومن ورائها تدلَّت على الحائط رقعة بالية من القماش الفلمنكي المشغول تحمل صورة ملك وملكة يلعبان الشطرنج في وسط حديقة وبجوارهما كوكبة من الصيادين على أفراسهم يحملون على معاصمهم صقورًا رؤوسها مغطاة، وقد انطمست على الرقعة الألوان. وعادت إليه ذكريات الحداثة جميعًا وهو يتفحَّص محتويات الحجرة وتذكر طفولته الموحشة وصباه الطهور فاستنكر أن يكون هذا المكان الأمين مخبأ لتلك الصورة البشعة، وتحسَّر على أيامه الفائتات.

ولكنه لم يجد بالبيت حجرة أصلح من هذه الحجرة لإخفاء الصورة، فهو يحمل مفتاحها ولا سبيل لأحد غيره أن يقتحمها دون علم منه. وهنا يستطيع الوجه المختبئ وراء الغطاء البنفسجي أن يتحوَّل كما يشاء فما من عين تراه. يستطيع أن يمتلئ بالدنس والقساوة والوحشية، ولن يكترث هو لذلك فهذه آخر مرة يرى الصورة فيها فما به حاجة إلى أن يتتبع انحطاط روحه درجة درجة. ولقد بقي له شبابه وهذا يغنيه عن كل شيء في الوجود. أما روحه التي ضاعت منه فقد يستردها من جديد. نعم. فما أدراه أن المستقبل مظلم كالماضي؟ أوَليس جائزًا أن تصفو روحه وتخلص من أوشاب الشر؟ أليس جائزًا أن يذوق الحب من جديد فيطهِّر الحب روحه ويقيه من الخطايا التي تعبث الآن بنفسه وبجسده على السواء. أجل، يعصمه من الخطايا الخفية التي زينها له ولعه بالعجائب. جائز إذًا أن تختفي دلائل القسوة من الشفتين الدقيقتين الجميلتين،

وعندئذ لن يجد حرجًا في أن يعرض هذا العمل الفني الخالد على أنظار الناس.

ولكنه عاد فعدل عن هذه الأوهام فقد تذكَّر أن الصورة تكبر في العمر كما يكبر الإنسان وتسجل الخطوط التي ترسمها السنون على صفحة الوجه شهرًا فشهرًا، بل ساعة فساعة. ولقد تنجو الصورة حقًا من آثار الخطيئة ولكن هل من الزمن نجاة؟ لسوف يغور خداه أو يترهلان. لسوف يتَّسع فمه كما يتَّسع فم الأبله أو يسترخي. لسوف تذبل عيناه وينطفئ وهج شعره الذهبي ويتجعَّد وجهه وتبرد يده المعروقة وتنحني قامته وتلتوي سائر أعضائه كما التوت أعضاء جده القاسي من قبل. نعم يجب أن تُحجب الصورة عن الأنظار. وأخيرًا التفت دوريان جراي إلى الرجلين وقال في إعياء:

ـ أرجوك أن تدخل الصورة يا مستر هبارد، وإني لآسف لإهمالي إياكما طول هذا الوقت فقد تحوَّلت أفكاري إلى شيء آخر.

وكان مستر هبارد لا يزال يلهث من الإجهاد فأجاب:

ـ بل لقد أتحت لنا أن نستريح يا مستر جراي ونحن نشكرك على ذلك. والآن أين تريدنا أن نضع الصورة يا سيدي؟

ـ أينما تحب. ضعها هنا مثلًا واسندها إلى الحائط فلست أرغب في أن أراها معلَّقة. أشكرك.

ـ أيأذن لي سيدي في رؤية الصورة؟

قال دوريان في ارتياع:

ـ ليس في الصورة ما يثير اهتمامك يا مستر هبارد. ولقد انتهى عملك بهذا، وإني لأشكرك مرة أخرى على مجيئك بشخصك.

ولم تتحوَّل عيناه عن الرجل، ولو أنه اجترأ على كشف الغطاء الجميل الذي يستر أسرار روحه لانقضّ عليه وأدَّبه تأديبًا.

ـ لا شكر على واجب يا مستر جراي، لا شكر على واجب. وإني رهن

إشارتك دائمًا يا سيدي.

ونزل مستر هبارد يجر قدميه على السلم جرًا ومن ورائه مساعده. والتفت هذا الأخير إلى الخلف كأنه يتزوَّد بنظرة أخيرة من دوريان جراي، وارتسمت على وجهه الغليظ دلائل الخجل والدهشة معًا، لأن جمال دوريان جراي قد هزَّ أوتار قلبه.

واختفى وقع الأقدام فأوصد دوريان الباب ووضع المفتاح في جيبه، وأحس بالطمأنينة لأن عيون الناس لن تقع على هذا الوحش الممسوخ وتعرف منه جرائم روحه الآثمة.

ودخل المكتبة فوجدها على حالها ووجد الشاي في انتظاره. كذلك وجد رسالة من اللورد هنري بجانبها كتاب أصفر الغلاف ممزق مبتل الأطراف، وجدهما على مائدة صغيرة من الخشب الأسمر الزكي الرائحة المطعَّم بالصدف أهدتها إليه الليدي رادلي زوجه وصيه وهي امرأة وسيمة الطلعة تحترف السَّقَم لتقضي شتاءها في القاهرة وصيفها في الريفييرا. وعلى صينية الشاي رأى الطبعة الثالثة من صحيفة سانت چيمس، فعلم أن ڤكتور قد عاد وخطر له أن يكون خادمه قد التقى بمستر هبارد وصاحبه أثناء انصرافهما، واستخلص منهما سر مجيئهما. ولا شك أنه سيفتقد الصورة، بل لا شك أنه افتقدها فعلًا وهو يضع آنية الشاي على المائدة، وهذا مكانها في الحائط ظاهر في وضوح، فلقد نسى دوريان أن ينشر عليه الستار ليخفيه. وبدأت الهواجس تلعب برأسه فتصوَّر ڤكتور متسلِّلًا ذات ليلة إلى الطابق العلوي محاولًا أن يفتح باب الحجرة عنوة. لقد كان يسمع بكثير من سراة القوم الذين قاسوا طول حياتهم من تهديد خدمهم، لأن خدمهم قرؤوا خطابًا من خطاباتهم الخاصة أو عثروا على ورقة تحمل عنوانًا مريبًا أو وجدوا زهرة ذابلة أو قطعة من الدنتلا المتكسِّرة تحت وسادة من وسائدهم. ودار بخلده أن ڤكتور يتجسَّس عليه فأحس بأن الحياة على هذه الشاكلة لا تحتمل.

وتنهَّد ثم صبَّ لنفسه فنجانًا من الشاي ثم فض رسالة اللورد هنري فإذا اللورد هنري لا يقول فيها إلا أنه قد أرسل إليه صحيفة المساء وكتابًا لعله يجد فيه متعة، وأنه سيكون بالنادي في الساعة الثامنة والنصف. وفتح دوريان الصحيفة فلفتتت نظره فقرة في الصفحة الخامسة جرى تحتها القلم الأحمر وقرأ فيها ما يلي:

«التحقيق في مصرع ممثلة: أجرى مستر دانبي مأمور قسم هوكستون صباح اليوم في بل تافرن بطريق هوكستون التحقيق في مصرع سيبيل ڤين، وهي ممثلة صغيرة السن تعاقدت أخيرًا مع دار التمثيل الملكية بحي هوبورن. وقد أسفر التحقيق عن أن الوفاة كانت نتيجة خطأ وقد عبَّر المحقِّق عن ألمه الشديد لوالدة القتيلة التي غلبتها أحزانها أثناء ادلائها بشهادتها وعند سماعها شهادة الدكتور بيريل الذي قام بفحص الجثة».

وبعد أن فرغ من تلاوة هذا النبأ تجهَّم وجهه ومزق الصحيفة إربًا ثم ألقاها في ركن الغرفة. لقد عادت إليه بشاعة الموقف وأحس ببشاعة الحياة ذاتها، واغتاظ من اللورد هنري لأنه أرسل إليه تقرير المأمور، ورأى في إشارته بالقلم الأحمر إلى سطور الخبر غباوة كبرى، لأن إلمام ڤكتور باللغة الإنجليزية يكفيه لفهم مضمون الفقرة، ولعل هذه الإشارة أغرته بقراءتها فعلًا. وإذا كان ڤكتور قد قرأها فلا شك في أنه بدأ يشك في أمره ولكن ما أهمية شكه ودوريان جراي لا صلة له بموت سيبيل ڤين.

ووقع بصره على الكتاب الأصفر الذي أرسله اللورد هنري إليه وأراد أن يعرف موضوعه فسار حتى بلغ الحامل الثماني الأضلاع اللؤلؤي اللون الذي كان يبدو له دائمًا كخلية فضية جسيمة الأطوال بنتها جماعات من النحل العجيب، وتناول الكتاب ثم جلس في مقعد كبير وأنشأ يتفحَّص المجلد. وفي دقائق معدودة كان دوريان جراي يقرأ الصفحات في نهم شديد، فقد كان الكتاب أعجب كتاب وقع في يده، ومرت أمام عينيه الخطايا السبع في موكب جميل راقصات على إيقاع

ناي سحري متسربلات بأفخر الثياب. وبدأت أحلامه الغامضة تأخذ أشكالًا محسوسة أما خفايا اللذة فقد طافت بعقله كالأحلام.

كان الكتاب قصة لا عقدة لها، وليس فيها غير شخص واحد، أو بمعنى آخر كان دراسة نفسية لشاب باريسي من أبناء القرن التاسع عشر تنكَّر للقرن الذي يعيش فيه وحاول أن يجرِّب العواطف التي جرَّبتها القرون الأخرى ويعتنق المبادئ التي آمنت بها تلك القرون، وبالجملة حاول أن يركز في نفسه سائر الأطوار التي مرَّت بها الروح الإنسانية منذ القدم، فهو آنا يقبل على الزهد الذي يلقِّبه الحمقى بالفضيلة لما فيه من خروج على الطبيعة، وآنا يُقْبل على المعاصي التي يلقِّبها العقلاء بالرذيلة. وكان أسلوب الكتاب أسلوبًا غريبًا منمَّقًا واضحًا وغامضًا في وقت واحد، اجتمع فيه اللفظ الدارج واللفظ القديم والتعبير العقلي والتعبير العاطفي مما يميز كتاب المدرسة الرمزية في فرنسا. وكانت به من الكلمات النابية واللطيفة معًا وظهرت فيه الشهوات في صورة فلسفة صوفية، فاختلط عليه الأمر حتى أمسى لا يدري أيطالع وصفًا لرؤيا قديس من أهل العصور الوسطى أم يقرأ اعترافات فاسق أصيل من أهل جيله. لقد كان كتابًا مسمومًا، ما في ذلك شك، ومن صفحاته صعدت عطور ثقيلة هيجت ذهن دوريان جراي، وأخذته غيبوبة من أثر التنغيم اللفظي وإيقاعه الرتيب الممل الذي كان قائمًا على التكرار المدروس، واستغرق في ما يشبه الحلم وهو يطوي فصول الكتاب فصلًا فصلًا فلم يشعر بزوال النهار ودنو الليل.

وفي المساء بدت قبة السماء لا هي بالخضراء ولا هي بالحمراء ولمع فيها نجم ثاقب واحد استضاء بنوره دوريان جراي حتى تعبت عيناه ولم يعد يستطيع أن يمضي في القراءة. وبعد أن دخل خادمه عليه جملة مرات ليذكِّره بتأخر الوقت نهض من مكانه ودخل الغرفة المجاورة ووضع الكتاب على مائدة فلورنسية صغيرة كانت تلازم فراشه باستمرار، ثم بدأ

يستبدل ثيابه تأهبًا للعشاء.

وحين بلغ النادي كانت الساعة قد بلغت التاسعة أو ما يقرب من ذلك، وفي النادي وجد اللورد هنري يجلس بمفرده في صالون الصباح وقد بدت عليه أمارات الملل القتال فقال له:

ـ أرجو أن تصفح عني يا هاري فما تأخرت إلا لأن الكتاب الذي أرسلته لي قد سحرني حتى ألهاني عن الوقت.

فأجاب اللورد هنري وهو ينهض من مكانه:

ـ لقد توقعت أنك ستحبه.

ـ لم أقل إني أحبه يا هاري، وإنما قلت إنه سحرني والفرق بينهما عظيم.

قال اللورد هنري بصوت خافت:

ـ أراك قد اكتشفت هذه الحقيقة بنفسك.

ثم دخل الرجلان حجرة الطعام.

الفصل الحادي عشر

كان لهذا الكتاب سلطان عظيم على دوريان جراي لازمه سنوات عديدة، أو بتعبير أدق، لم يسعَ دوريان جراي إلى التخلّص من سلطان هذا الكتاب على نفسه وقد بلغ من افتتانه به أنه ابتاع من باريس جملة نسخ من طبعته الأولى لا تقل عن تسع، كلها من القطع الكبير، وجلدها في ألوان مختلفة تستريح إليها نفسه في أطوارها المتقلّبة وترتاح إليها طبيعته التي باتت تحكمها الأوهام ولم يعد لإرادته عليها سلطان. فلقد وجد في ذلك الشاب الباريسي العجيب بطل القصة الذي اجتمع فيه الولع بالخيال والولع بحقائق العلم مرآة لنفسه المعقدة، بل لقد وجد أن الكتاب بأكمله ليس إلا ترجمة لحياته كُتبت قبل أن يخرج هو إلى الوجود.

ولكنه كان ينعم بشيء واحد لم ينعم به بطل القصة العجيب، ذلك أن دوريان جراي قد نجا من ذلك الرعب الشديد الذي كان يستولي على الشاب الباريسي كلما وقعت عينه على مرآة أو لوح من المعدن المصقول أو صفحة من الماء الصافي، ذلك الرعب الشديد الذي لازمه وهو لا يزال في شرخ الشباب، فقد كان في مقتبل عمره آية من آيات الجمال ثم زال عنه جماله قبل الأوان فبات لا يقوى على مجابهة الحقيقة. وكان دوريان جراي يقرأ القسم الأخير من الكتاب وهو القسم الذي يصوِّر أحزان هذا الفتى الباريسي وقد فقد جماله في لذة ما بعدها لذة مصدرها الشماتة،

وهي قسوة تلازم اللذة أيًا كان نوعها.

إن جمال دوريان باقٍ لا يذبل كجمال الرياحين في شاطئ الكوثر الموعود، وهو يلهم بازيل هولورد بآيات الفن وهو الذي رقَّق لدوريان قلوب عارفيه، ولقد يطلق فيه شانئوه هجر القول في مجتمعات لندن ونواديها فما أن يروه حتى يضعفوا أمام شوكة جماله ويكذِّبوا أنفسهم لظنها أن مثل هذا الجمال الفريد تلوِّثه الآثام. فلقد بدا دوريان دائمًا كمن صان نفسه من أكدار الحياة، وكانت براءة الملائكة تنطق في محيَّاه. وكان الناس يغتابونه اغتيابًا فما أن يدخل عليهم حتى تخرس ألسنتهم ويحسوا بأن طهارة وجهه تؤنِّبهم تأنيبًا شديدًا على سوء ظنهم به فكأنَّما يذكرهم محضره بالجمال الذي دنسوا والحرمة التي انتهكوا. ويعجبوا لهذا الشباب النضير كيف نجا من أوحال الحياة في عصرهم عصر الفجور والشقاء.

وكانت له غيبات طويلة لا يعرف أحد عنها شيئًا تحمل أصدقاءه وعارفيه على تفسير اختفائه بأعجب التكهنات. وكان دوريان جراي يصعد بعد عودته من هذه الرحلات العجيبة إلى الغرفة المغلقة ويدخلها حاملًا في يده مرآة، ويقف أمام الصورة ناظرًا تارة إلى الوجه المغضَّن الشرير المطل من اللوحة وتارة إلى الوجه الصبوح المعكوس في المرآة، وكان يجد في ذلك لذَّة كبرى لأن الاختلاف الكبير بينهما كان يطمئنه على شبابه وجماله، حتى لقد بدأ يتعشَّق نفسه ويرتاح إلى تدهوره الروحي. وكان بين وقت وآخر يفحص الخطوط البغيضة التي يرسمها الزمن على الجبين بعناية عظيمة تدل على اغتباطه الشديد بهذا العمل، ليعرف أيهما أفتك بالصورة، آثار الزمن أم آثار الشر وما أكثر ما كان يضع يديه الجميلتين بالقرب من يدي الصورة الشائهتين ويبتسم ابتسامة الرضا. وما أكثر ما كان يهزأ بالجسم البشع والأعضاء الضامرة التي يراها على اللوحة.

ولكنه كان في قليل من الأحيان يقضي الليل مؤرَّقًا تارة في غرفته العاطرة وطورًا في غرفة قذرة بحانٍ صغير سيئ السمعة كان يقصد إليه مستخفيًا تحت اسم مستعار حيث يفكر في ما أنزله بروحه من دمار وينتحب لمصيره الأليم في ندم صادق لا زيف فيه، وكيف لا يكون ندمه صادقًا وهو محض أثرة فيه. على أن هذه الأوقات كانت نادرة لأن الانغماس في اللذات زاد فضوله للمعرفة، ذلك الفضول الذي كان اللورد هنري أول من ألهبه فيه وكلما زاد اختباره في الحياة زادت رغبته في الاختبار، وكلما أشبع نهمه للحياة اشتد جوعه إليها.

ولكنه رغم ذلك كله كان يبالي برأي المجتمع فيه وقد دأب على أن يقيم في كل موسم حفلات منتظمة في يوم الأربعاء من كل أسبوع. كذلك كان يقيم الحفلات في الشتاء مرَّة أو مرتين كل شهر. وكان يفتح أبواب بيته الجميل لأبناء البيوتات ويستخدم العازفين ليطربوا ضيوفه. وكلما أقام حفلة عشاء كان اللورد هنري يساعده في اختيار المدعوين وفي ترتيب مكانهم في المائدة وفي انتقاء الأزهار التي تزيِن مائدته الفاخرة. ولقد كان دوريان جراي عند كثير من الإيفاع النموذج الكامل لما يجب أن يكون عليه فتيان إيتون أو فتيان أكسفورد، وهو عندهم مزيج من الشاب الذي ثقفته الكتب، والشاب الذي ثقفته الحياة، وقد كان دوريان جراي عندهم أحد أولئك الذين وصفهم دانتي[1] بأنهم يسعون «التكملة نقصهم بعبادة الجمال» أو قال فيهم تيوفيل جوتييه «إن العالم المحسوس قد خلق ليشبع حواسهم».

ومهما يكن من شيء فلا جدال في أن أول فنّ تخصَّص فيه دوريان جراي هو فن الحياة، وما كانت بقية الفنون المعروفة في نظره إلا تمهيدًا

(1) دانتي ألجييري (1265–1321): شاعر وكاتب إيطالي، أشهر أعماله «الكوميديا الإلهية».

لهذا الفن الجليل. لقد كان تطور الذوق مع الأيام يفتنه حقًا، لأنه يزين غير المعقول لعقول الناس، ولو إلى أجل قصير. كذلك كان التأنُّق يفتنه لأنه وجد فيه ما يثبت على وجه ما أن الجمال ليس من تراث الماضي بل من عمد العصر. وقد كان للأزياء التي اصطنعها اصطناعًا أثر ملموس على رواد المراقص الراقية بحي مايفير وما شاكل ذلك من المجتمعات المترفة، لأنهم تأثَّروا بخطاه في كل ما فعل واجتهدوا في أن ينقلوا عنه ابتكاراته الرشيقة التي كان يلهو بها في أوقات فراغه رغم أنه لم ينظر إليها في يوم من الأيام على أنها عمل جدي، فدوريان جراي كان حريصًا كل الحرص على المكانة التي خصَّصها المجتمع له منذ أن بلغ سن الرشد وأحب أن يلعب في لندن الحديثة الدور الذي لعبه مؤلف ساتيريكون في روما القديمة أيام قيصرية نيرون، ولكنه رغم ذلك كان يتمنَّى من صميم قلبه أن يكون شيئًا أسمى من مجرَّد قائد من قادة الأناقة يُحتكم إليه في طرق لبس الجواهر ويُستشار في طرق عقد أربطة الرقبة ويُحتذى في طرق حمل العصا. كان يحلم بأن يبتكر أسلوبًا في الحياة جديدًا له فلسفة تبرِّره وأسس متماسكة تقوِّمه، أسلوبًا في الحياة غايته العليا التصوف عن طريق الحواس.

فلقد وجد دوريان جراي الناس يستنكرون عبادة الحواس ووجد هذا فيهم أمرًا طبيعيًا فالناس يفزعون بالغريزة من الشهوات الجارفة والإحساسات التي تضعف أمامها نفوسهم وهم يدركون أنهم يشتركون فيها مع الأحياء الأخرى التي تقل عنهم رقيًا وانسجامًا. ولكنه رأى أن طبيعة الحواس لم تُفهم قط على حقيقتها، وأن الحواس ما بقيت على حالها الحيواني الأول إلا لأن المجتمع أجاعها وأذلَّها وسامها سوء العذاب، بدلًا من أن يجعل منها سبيلًا إلى روحية جديدة قوامها تذوُّق الجمال بالفطرة، وكان يرى أن تاريخ الإنسانية لا يبشِّر بالخير فهو سلسلة من الهزائم التي أضاع الإنسان فيها إنسانيته ليظفر بأشياء لا نفع فيها. فلقد

نزل الإنسان عن سعادته برضاه وعذَّب نفسه برضاه وأنكر ذاته برضاه، وكان حافزه إلى ذلك كله هو الخوف، وما جنى من ذلك كله إلا الانحلال التام الذي لا يُقاس به ذلك الانحلال المزعوم الذي يسعى الناس، جهلًا منهم، للنجاة منه. فالطبيعة تسخر منه سخرية لاذعة حين تسوق الناسك إلى المفازة الجرداء ليأكل مع وحوشها وتؤلِّف بينه وبين بهائم الحقول.

نعم سيكون لعبادة الجمال بعث قريب كما تنبَّأ بذلك اللورد هنري، وحين تُبعث عبادة الجمال من جديد سوف تُجدِّد الحياة على الأرض وتنشلها من التطهُّر المتلِف البشع الذي ينخر في شجرة الحياة في عصرنا هذا. وسيخدم العقل هذا المذهب الجديد بغير ريب ولكن في الحدود التي تصون العاطفة، ولسوف يكون الهدف الأول لعبادة الجمال هذه الاختبار ذاته بحلوه ومره وليس ثمرات الاختبار. أما الزهد الذي يطفئ الحواس والتهتك الرخيص الذي يميتها فلن يتسع لهما هذا الدين الجديد لأنه سيذكر الناس بأن العمر برهة ويحثهم على اقتناص هذه البرهة.

نحن نصحو قبل انبلاج الفجر في بعض الأحايين بعد ليلة هادئة تنقطع فيها الأحلام فتشهَّينا في الموت وهدوئه أو بعد ليلة مزعجة تزدحم فيها الأشباح الممسوخة والرغبات المحرمة فتملأ كهود الخيال وتزمزم كأنها العواطف الهوجاء، وتعصف بها كأنها وحي فنان قوطي، فما الفن القوطي إلا تجسيد هواجس الخيال المحموم. وهذا الاختيار يمر فيه أغلب الناس وقلَّما ينجو منه أحد. نستيقظ قبل الفجر فيخيل إلينا أننا نرى أصابع شاحبة تعبث بالستائر فتهتز الستائر، وتزحف أمامنا الظلال القاتمة الماردة الأطوال في صمت عند أركان الحجرة وتقبع هنالك. وفي الخارج تتحرَّك الطيور بين أوراق الشجر فنسمع حفيفها، أو يدب الناس ساعين إلى أرزاقهم فنسمع وقع أقدامهم أو تعوي الريح بين التلال وتنزل بمضاجعنا الساكنة بخطى خفيفة كأنها تشفق أن توقظ النيام، ولكن عليها أن تناشد النوم أن يخرج من كهفه الأحمر. وترتفع الحجب الرقيقة

الغشاء حجابًا حجابًا وتعود إلى الأجسام ألوانها وأشكالها رويدًا رويدًا ونرى الفجر يبني الطبيعة على نسقها القديم. وتمشي الحياة من جديد في المرايا فتعكس الكائنات. ونتلفَّت حولنا فنجد القنديل المطفأ كما تركناه ليلة الأمس وإلى جواره الكتاب الذي لم نفرغ بعد من قراءته أو الزهرة التي كانت في عروتنا ونحن في المرقص أو الخطاب الذي لم نجد الشجاعة لفضه وتلاوته أو الخطاب الذي قرأناه عشرين مرة. ومن ظلال الليل تخرج حقائق النهار التي نعرفها فنستأنف الحياة حيث تركناها ويغمرنا إحساس بوجوب المضي في ما تعودناه من أعمال راتبة مملة، أو نرجو أن نفتح الأجفان ذات صباح فنجد عالمًا جديدًا يحقق أحلامنا، أعدته لنا المقادير في ظلام الليل، عالمًا ألوانه زاهية وأشكاله جديدة وأسراره غير ما ألفناه من أسرار، عالمًا لا أثر فيه للماضي أو لذكراه فواجبات الأمس وآلامها قد طمستها يد النسيان، حتى أفراح الأمس تشقينا وسعادته تحيي فينا الأحزان.

كان دوريان جراي يرى أن الحياة لا قيمة لها إلا إذا فتحت أمام النفس هذه الدنيا الجديدة. ولطالما خرج عن طبيعته الحقيقية واستسلم لمثل هذه الأفكار لا لشيء إلا لأنه يبحث عن الإحساسات الجديدة والإحساسات السارة والإحساسات الشاذة وبعد أن يرضي فضوله العقلي بها تراه ينبذها في استخفاف غير منتظر. ولم يكن هذا الاستخفاف نتيجة نقص العواطف بل نتيجة اتقادها.

لقد أرجف عنه المرجفون ذات مرة أنه أزمع على اعتناق الكاثوليكية ولم يكن هذا غريبًا لأن طقوس الكنيسة الكاثوليكية كانت تلهب خياله. فالقربان اليومي فيها كان في نظره أشد رهبة من قرابين الوثنية الأولى. والقربان اليومي كان عنده إنكارًا جميلًا لماهية الحواس. وقد اهتزّ فؤاده لفكرته الفطرية الساذجة وتأثرت نفسه للمأساة البشرية التي يرمز لها ذلك القربان. وكان يحب السجود على الدرج الرخامي البارد ليرى

القسيس وهو يزيح عن الهيكل الحجاب في أناة بيد شاحبة تكسوه مسوحه الكنسية السميكة المزركشة، أو يرفع وعاء السر المقدَّس الشبيه بالمصباح المرصَّع بالأحجار الكريمة، وفيه الرقاق الذي يبدو حقًا كأنه زاد الملائكة، أو يدق صدره ندمًا على خطاياه وهو يحمل كأس الاعتراف في زي من أزياء المسيح. كذلك كانت المباخر المتَّقدة التي يحملها صبية المقبرة ذوو الأردية الحمراء الموشَّاة ويطوحونها في الهواء بين المصلين تفتن خياله. وكان دوريان جراي كلما خرج من كنيسة كاثوليكية ينظر إلى كرسي الاعتراف الأسود عاجبًا ويتمنًّى أن يختبئ خلفه ليسمع النسوة خلسة يروين تاريخ حياتهن الحقيقي من وراء القضبان.

ولكنه رغم ميله الشديد إلى هذه المراسم لم يبتر تفكيره بقبول مبادئ الكثلكة أو ينسى أن هذا الخان الروحاني لا يصلح للسكنى وإنما يصلح لقضاء ليلة أو ساعات معدودات في جو خلت سماؤه من النجوم واكتمل القمر. فالتصوف تسلط عليه فترة من الزمن لما فيه من غرابة ولما فيه من نقض خفي للأوضاع الخلقية. والمادية الداروينية كما بشَّر بها الألمان تسلَّطت عليه فترة من الزمن لأنها فسرت له الأفكار والعواطف تفسيرًا عضويًا وقد سره فيها أنها تجعل النفس خاضعة لظروف الجسم ما صح منها وما سَقِم. ولكن النظريات في الحياة لم تلهه عن الحياة ذاتها وأحس بأن التفكير مجهود عقيم ما لم يقترن بالاختبار العملي، وأدرك أن الحواس لها ما للنفس من وظيفة روحية.

ودفعه ذلك في وقت ما إلى دراسة العطور وأسرار صناعتها وأخذ يجري عليها تجاربه الخاصة فكان يمزج الزيوت وطيوب الشرق النفَّاذة الرائحة، وكان يرى أن كل حالة من حالات العقل لها ما يقابلها في عالم الحواس وأنشأ يبحث في العلاقة القائمة بين الحس والتفكير وأراد أن يستقصي السر الذي يجعل البخور يثير التصوف في الإنسان والعنبر يثير فيه الشهوات وأزهار البنفسج تثير فيه ذكريات الغرام الدفين والمسك

يشوش العقل والشنبق يشوش الخيال، وأراد أن يضع لفلسفة العطور أساسًا علميًا فيصف تأثير الأعشاب والأزهار والزيوت والأشجار زكية الرائحة وصفًا تجريبيًا صحيحًا.

كذلك دفعه في وقت آخر إلى دراسة الموسيقى، فكان يدعو أصحابه إلى حفلات موسيقية لم يألفها أحد في غرفة مستطيلة سقفها برتقالي وجدرانها خضراء كالزيتون نوافذها ذات عوارض، وهناك كان المدعوون يسمعون همجي الأنغام فكنت ترى الغجر المجانين يعزفون ألحانًا هائجة على آلات وترية صغيرة وكنت ترى التونسيين في عباءاتهم الصفراء يعزفون على عيدان جسيمة قبيحة المنظر والزنوج العابسون يقرعون طبولًا نحاسية قرعًا راتيبًا يجلب النعاس إلى العيون على حين كان الهنود المعمَّمون نحاف الأجسام يجلسون على حصر حمراء وينفخون في مزامير طويلة بعضها من الغاب وبعضها من النحاس وكأنهم يسحرون بها الثعابين الطوال النحيلة والثعابين القصار الغليظة.

وكان فؤاده في بعض الأحيان يهتز لهذه الأنغام الهمجية ولا يتحرَّك لعذوبة شوبرت أو جمال شوپان الحزين أو قوة بيتهوڤن الدفَّاقة، وألَّف مجموعة وافية من الآلات الموسيقية العجيبة جاءته من كل بقعة من بقاع العالم، بعضها من مخلَّفات الحضارات البائدة وبعضها من بلاد المتوحشين الذين أبوا أن يحتكّوا بالرجل الأبيض ويجرِّبوا مدنيته. وكان في مجموعته آلة چورپار العجيبة التي يستعملها آل ريو المولَّدون من هنود وزنوج، تلك الآلة التي حُرّمت على النساء رؤيتها وفُرِض الصوم وضرب السياط على كل فتى يريد أن يراها، كذلك جاءته من پيرو آنية من الصلصال لها صوت حاد كصوت العصافير، كما جاءته نايات صُنعت من عظم البشر كتلك التي سمع الفونسو دي أوڤالي نداءها في پيرو، وأحجار اليشم الخضراء الحلوة الصوت التي توجد بالقرب من كوزكو. وكانت لديه جوزات مطلية بالألوان بداخلها حصى يخشخشن حين تُهز

وآلة مكسيكية طويلة تعرف بالكلارين لا ينفخ العازف فيها بل يمتص الهواء، وأخرى خشنة من عند قبائل الأمازون تعرف بالتورا ينفخ فيها الديدبان الجالس طيلة النهار في قمة الشجرة فيقطع نداؤها ثلاثة فراسخ كما يزعم القوم، وثالثة هي التبونازلي لها لسانان من الخشب يتردَّدان تردُّد الأوتار يضربها العازف بعصيّ يغطي أطرافها المطاط وهو عصارة الشجر المتجمِّدة، ورابعة هي أجراس مجتمِّعة في هيئة عنقود واسمها اليوتل تستخدمها قبائل الأزتيك، ثم خامسة هي طبل عظيم الحجم أسطواني الشكل تكسوه جلود الثعابين كالطبل الذي رآه برنال دياز حين دخل المعبد المكسيكي في صحبة كورتيز، ووصف لنا دقّاته الحزينة أبلغ وصف. لقد كانت غرابة هذه الآلات تفتنه وجعلته يعتقد أن للفن وحوشه ذات الخلقة الممسوخة والأصوات المنكرة، كما أن للطبيعة وحوشها ذات الخلقة الممسوخة والأصوات المنكرة، ولكنه بعد أن جمع من هذه الوحوش ما جمع زهد فيها وعاد إلى مكانه في الأوپرا، آنًا وحيدًا وآنًا برفقة اللورد هنري يستمع إلى تانهاز في نشوة تشبه الوجد، ويلتمس في مقدمة هذه الأوپرا الخالدة ترجمة صادقة للمأساة التي نزلت بروحه.

وكما درس دوريان جراي العطور والموسيقى درس كذلك الأحجار الكريمة. وقد ظهر مرة في حفلة تنكرية في زي آن چوايز أميرال فرنسا وكانت ترصع ثوبه مائة وستون درَّة، وقد تحكَّمت فيه هذه الهواية سنوات طويلة بل لازمته بقية حياته. وكان في بعض الأحيان يقضي اليوم بأكمله في تصفيف ما جمع من حلي كل في علبته. وكان لديه منها أنواع نادرة كالزبرجد الأخضر الذي يستحيل أحمر في نور المصباح والزبرجد الأحمر الذي يضرب فيه خط من الفضة كأنه سلك ممدود، والزبرجد الأصفر الذي يميل إلى لون الفستق والياقوت الوردي والياقوت الأصفر والياقوت الأحمر الدموي الذي يختلج نوره في هيئة نجمة رباعية والأماتوس المشتعل كاللهب، والأماتوس البنفسجي والأماتوس

البرتقالي المطعَّم بالياقوت الأحمر والياقوت الأزرق. وكان شديد الكلف بحجر الشمس وضيائه الذهبي وبحجر القمر وضيائه اللؤلؤي وبعين الهر اللبني الذي تتجمَّع فيه ألوان الطيف وتتكسَّر. وقد اشترى من امستردام ثلاث زمرّدات جسيمة الحجم لونها يسحر الناظرين، وكان في مجموعته فيروزة من «الصخرة القديمة» يحسده عليها هواة الأحجار الكريمة.

وقد وقع أثناء اشتغاله بجمع الأحجار الكريمة على طائفة من القصص التي تدور حول الجواهر. فقرأ في كتاب «تعاليم الكهنة» لألفونسو[1] عن ثعبان له عين من الياقوت الأصفر الحقيقي وعرف عن ألكسندر فاتح إماثيما[2] ذي التاريخ العجيب أنه وجد في وادي الأردن حيّات تكسو ظهرها طبقة من الزمرد الصافي. وقرأ في فيلوسترات[3] عن تنين في فمه درة، إن رأى رداءً أحمر وحروفًا ذهبية غلبه نوم سحري وأمكن للناس قتله. كذلك عرف من مطالعاته في أعمال الكيميائي العظيم الذي اشتغل بالسحر پيير دي بونيفاس أن في الماس قوة تخفي الإنسان وفي عقيق الهند قوة تزيد من فصاحته، أما عقيق كورنليا فيزيل الغضب والياقوت الزعفراني يجلب النعاس والأماتوس يوقظ المخمور من نشوة الخمر والعقيق الروماني يطرد الشياطين وجوهرة الماء تطفئ لجين القمر والبازهر المستخرج من قلب الظبى العربي ترياق للسم ودواء للطواعين وجوهرة الطير التي تضعها طيور العرب الأصيلة في أعشاشها وقاء

(1) بطرس ألفونسو: طبيب ومنجم وكاتب أندلسي، وُلد يهوديًا وتحوَّل للمسيحية، عاش في القرن الحادي عشر الميلادي.

(2) الاسم القديم لمقدونيا.

(3) فيلوسترات(170-247): سفسطائي يوناني، من كتبه «عن الأبطال» و «حياة السفسطائيين».

لحاملها من النيران كما روى ديموقريط[1] الحكيم.

ودرس الأساطير التي تتواتر عن الأحجار الكريمة وفعلها العجيب، فقرأ أن ملك سيلان طاف في موكب حافل يوم تتويجه بأرجاء مدينته حاملًا في يده ياقوتة حمراء، وأن أبواب قصر يوحنا الراهب «مصنوعة من حجر السرد وقد نُحت فيها قرن الثعبان ذي القرن المسموم حتى لا يدخل القصر رجل يحمل السم». وفوق سطح القصر «تفاحتان من ذهب وفي التفاحتين ياقوتتان بلون الجمر» فالذهب يضيء نهارًا والياقوت يضيء ليلًا. وفي رواية لودج[2] الغريبة «مرغريت الأمريكية» قرأ أن في غرفة الملكة «تماثيل من فضة لملكات العفاف في التاريخ يتأملن وجوههن في مرايا من الياقوت الأحمر والياقوت الجمري والياقوت الأزرق والزمرد الأخضر». كذلك عرف عن ماركو پولو أنه رأى سكان زيپانجو يحشون أفواه موتاهم بدرّ وردي اللون، وقرأ عن وحش من وحوش البحر يعشق درة استخرجها غَوّاص من بطن الماء وأعطاها للملك پيروز[3] ففتك الوحش بالغواص الغاصب وبات في حداد على معشوقته حتى غاب القمر السابع. وفي رواية پروكوپيوس أن الملك پيروز قذف بالدرة حين استدرجه أمراء الهون إلى الهوة الكبرى فضاعت الدرة ولم يعثر عليها أحد رغم أن الإمبراطور انستاس وعد من يجدها بخمسمائة سبيكة من الذهب. كذلك قرأ عن ملك ملبار أنه كشف لتاجر من تجار البندقية عن مجموعة من اللآلىء تبلغ الثلثمائة والأربع عددًا، كل لؤلؤة منها تمثل معبودًا من معبوداته.

وفي رواية برانتوم أنه لما زار الدوق ڤالنتينو ولد إسكندر السادس

---

(1) ديموقريط أو ديمقراط (460-370 ق.م.): أشهر فلاسفة عصر ما قبل سقراط.

(2) توماس لودج (1558-1625): طبيب وكاتب انجليزي عاش في عصر الملكة أليزابيث.

(3) الملك الساساني الثامن عشر، حكم في الفترة من459 إلى 484.

ملك فرنسا لويس الثاني عشر كان جواده محمَّلًا بأوراق الذهب وكان في قبعته يومئذ صفَّان من الياقوت يسطع منهما بريق هائل. كذلك رُوي عن شارل الأول ملك إنجلترا أنه كان يملك جوادًا تدلَّت من مهمازه واحدة وعشرون وأربعمائة قطعة من الماس، ورُوي عن ريتشارد الثاني أنه كان يملك سترة قُدِّر ثمنها بثلاثين ألف مارك عليها عدد عظيم من اليواقيت. وفي كتابات هول[1]؛ أن هنري الثامن ذهب قبل تتويجه إلى برج لندن «عليه سترة من صفائح الذهب صدرها محلًّى بالماس وغيره من الأحجار الكريمة وحول عنقه بنيقة عالية مزينة بضخم اليواقيت» وكانت خليلة چيمس الأول تلبس قرطًا من الزمرد في إطار من سلوك الذهب، وقد أهدى إدوارد الثاني إلى جافستون درعًا من الذهب الأحمر مرصعًا بالياقوت وبنيقة نقشت عليها ورود ذهبية مطعمة بالفيروز وخوذة مزينة بالدر. وكان هنري الثامن يلبس قفازًا يبلغ المرفقين تحليه الجواهر، ويملك قفازًا آخر عليه اثنتا عشرة ياقوتة، واثنتان وخمسون لؤلؤة من لآلئ المشرق يرتديه كلما أراد حمل صقوره، أما شارل الجسور، آخر من تقلَّد دوقية بورغونيا من أسرته المجيدة، فقد كانت قبعته التي يرتديها في المراسم تزدان بالياقوت الأزرق فيتدلى منها درر تشبه الكمثرى في هيئتها.

كل هذا حبَّب إلى دوريان جراي الحياة في تلك العصور ولقد كان يجد في قراءة تلك الحقائق والأساطير عن ترف الملوك الغابرين لذَّة ما بعدها لذَّة.

لكنه لم يكتفِ بدراسة العطور والموسيقى والأحجار الكريمة بل انصرف كذلك لدراسة الأقمشة الموشَّاة والأقمشة المنقوشة التي

(1) إدوارد هول (1497-1547): محامي وبرلماني ومؤرِّخ انجليزي، أشهر أعماله «وقائع هول».

يكسو أهل الشمال بها جدران منازلهم الباردة كما يكسو أهل الجنوب جدران منازلهم المشرفة بالرسوم الملونة. وخصص دوريان جراي كل وقته كعادته حين ينصرف إلى هوية ما لجمع بدائع النسيج هذه وأحزنه أن يرى يد الزمن تعبث بكل شيء جميل. ولكنه وجد بعض العزاء في أن شخصه أفلت من هذا المصير فها هو الصيف يتلو الصيف والنسرين يتفتَّح ثم يذبل حولًا بعد حول وليالي الفسق تأتي وتروح فليس فيها خزي جديد ولكنه باقٍ على حاله مبقٍ على جماله. فلا رياح الخريف عصفت بعوده البض ولا ثلوج الشتاء شوَّهت وجهه النضير. ولكنه حي يتمتع بنعمة الحياة، أما الجماد فيذهب مع الريح، ترى أين يذهب؟ أين ذلك الثوب الذي نسجته الفتيات السمراوات ليترضيَّن الربة أثينا فأخذه الآلهة واستخدموا ليقاتلوا عليه العمالقة؟ أين الخيمة الكبرى التي ضربها نيرون فوق الكوليزيوم بروما، تلك الخيمة الأرجوانية التي رُسمت عليها السماء ذات النجوم الثواقب وفيها أپولو يسرع بعربته ذات الجياد البيضاء، بجياده ذات الأعنَّة المذهَّبة؟ أين المناديل العجيبة التي نسجت لكاهن الشمس ورُسمت عليها أطايب المائدة جميعًا فكأن رائيها في وليمة زاخرة؟ أين أكفان الملك شلپريك التي رُسمت عليها ثلثمائة نحلة ذهبية؟ أين تلك الثياب التي أثارت غضب أسقف بونت «بسباعها وفهودها ودببتها وكلابها وغاباتها وصخورها وصياديها وكل ما يمكن لرسّام أن ينقله عن الطبيعة»؟ أين سترة شارل دوق أورليان التي نُقش على أكمامها أغنية مطلعها «لقد غمرني الفرح يا سيدتي» ومع الألفاظ علاماتها الموسيقية مكتوبة بسلوك من ذهب رؤوسها دُرّ؟ لقد قرأ دوريان جراي عن تلك الغرفة التي أُعدت بقصر رينس خصيصًا لحنة ملكة بورغونيا وزُيِّنت «بأقمشة مطرزة رُسم عليها بالخيوط ألف وثلثمائة وواحد وعشرون ببغاء تحمل جميعًا شعار الملك نقوشًا بالذهب وخمسمائة وأحدى وستون فراشة تتحلَّى أجنحتها جميعًا بشعار الملكة منقوشًا بالذهب كذلك».

كذلك قرأ عن كاترين دي مدسيس أنها كانت تملك سريرًا يُعرف بسرير الأحزان صُنع من مخمل أسود رُسمت عليه أهلَّة وشموس، وكانت للفراش أستار من الدِّمقس موشَّاة بأكاليل الزهر رُسمت على أرض مذهبة وأرض مفضَّضة والأستار تنتهي بأطراف تتدلَّى منها اللآلئ، والسرير قائم في غرفة جدرانها مكسوة برقاع من النسيج مصفَّفة تحمل شعار الملكة مرسومًا على القماش المفضَّض بالمخمل الأسود المقصوص. وقرأ أن لويس الرابع عشر كانت لديه أعمدة عالية مرسومة على بسط صنعت على هيئة النساء ارتفاعها خمس عشرة قدمًا كلها موشَّاة بالذهب. وقرأ عن سوبيسكي ملك پولندا أن فراشه الملكي كان مغطًّى بحرير وذهب من أزمير خُطت عليه آيات من القرآن بالفيروز، أما عمده فكانت قشرتها من فضة عليها نقوش ماهرة رُكِّبت فيها أوسمة لا عد لها مرصَّعة بالجواهر مطعَّمة بالخزف، وقد كان هذا الفراش قبلًا في معسكر الترك خارج ڤيينا ترفرف عليه راية المسلمين.

وظل دوريان جراي يسير على هذا النهج عامًا بأكمله يكدِّس أجمل ما تقع يده عليه من الأقمشة المطرَّزة والأقمشة ذات الرسوم فمن موسلين دلهي البديع المفوَّف بالخيوط الذهبية المكسو بأجنحة الجعلان البرَّاقة، إلى غلائل دكَّا التي بلغ من شفوفها أن عُرفت بين أهل المشرق بالهواء المنسوج، وبالماء الصافي وبندى المساء، إلى أقمشة من جاوة عليها رسوم غريبة، إلى أستار صينية صفراء دقيقة الصنع، إلى كتب مجلَّدة بالحرير الأسمر النحاسي اللون أو الحرير الأزرق الجميل محلاة بالزنبق والطير وما أشبه ذلك من الصور، إلى أقنعة من الحرير موشَّاة على طريقة المجر، إلى دمقس صقلية وأثواب المخمل الإسپاني السميك، إلى منسوجات چورچيا ذات الأركان المذهبة، إلى حرائر اليابان الخضراء ذات العصافير البديعة الأجنحة.

كذلك استهواه جمع الأزياء الكنسية وقد كان هذا مظهرًا من مظاهر

كَلَفه بالكنيسة وكل ما يتعلَّق بها. وفي الصناديق المستطيلة المصنوعة من خشب الشربين التي اصطفت في شرفة بيته الفريدة، كدَّس دوريان جراي عددًا عظيمًا من الثياب الجميلة النادرة التي تلبسها الكنيسة «عروس المسيح» كما يسميها الكاثوليك، وهي ثياب فاخرة تحلِّيها الجواهر قصد بها أن تخفي جسد هذه العروس الشاحب الذابل الذي برته البرحاء وأدمته الآلام، وما أنزل أحدٌ بها هذه البرحاء ولا تلك الآلام ولكنها سعت إليها اختيارًا. كذلك كان في مجموعته معطف كبير من الحرير القرمزي والدمقس ذي الخيوط الذهبية نُسجت فيه حلية متكرِّرة على صورة رمَّان كثير نبتت كل رمانة منه في زهرة سداسية الأوراق وعلى يمين الرمَّان وعلى يساره رُسمت ثمار الأناناس بالدرر الصغيرة. وكانت الشرائط الموشَّاة بالذهب المتدلِّية من المعطف مقسَّمة إلى أجزاء عليها نقوش تصور مناظر من حياة مريم العذراء من بينها تتويج مريم وقد رُسم تاجها بالحرير الملون فوق الأزار الذي يغطِّي رأسها، وهو من عمل فنان إيطالي عاش في القرن الخامس عشر. وكان في مجموعته معطف آخر من المخمل الأخضر موشًّى بباقات من أوراق الأكانتا الشوكية رُسمت على هيئة قلوب، ومن هذه الأوراق خرجت أزهار بيضاء طويلة السيقان رُسم تصميمها الداخلي بالخيوط الفضية والبلّورات الملونة، وعلى الأبزيم رأس ملاك منسوجة بخيوط ذهبية بارزة، أما الشرائط فكانت منسوجة من الحرير الأحمر والحرير الذهبي ومرصعة بالأياقين التي تصوِّر الشهداء والقديسين، ومن بينهم القديس سباستيان. كذلك كانت في حوزته حلَّة كنسية من حرير لونه عنبر وحرير لونه أزرق وحرير لونه ذهبي، ودمقس لونه أصفر، ونسيج من ذهب، وعلى الحلَّة الكنسية صور تمثل آلام المسيح وصلبه ثم صور تمثِّل السباع والطواويس وغيرها من الرموز. وكانت لديه عباءات كنسية من الحرير الأبيض والدمقس الوردي محلَّاة بأزهار التوليب وأزهار الزنبق وحور الماء، وكان لديه عدد من

كسيّ الهياكل المصنوعة من المخمل والكتان الأزرق، وعدد من أغطية القربان وأقنعة الكأس المقدّسة والمناديل التي تحمل صورة المسيح. وكان يجمع هذه الأشياء لأنها ترمز لطقوس دينية تذكي خياله.

وكان يتّخذ من هذه النفائس التي جمعها في بيته الجميل وسيلة لنسيان مخازيه والهرب ولو إلى حين من مخاوفه القاتلة. وفي داخل الغرفة الموحشة الموصدة التي قضى فيها الشطر الأكبر من صباه كانت الصورة الرهيبة تستند إلى أحد الجدران حيث وضعها هنالك بنفسه وأسدل عليها الستار الملوَّن بأرجوان وذهب، ومعالمها المحجوبة تتغيَّر يومًا بعد يوم وتسجِّل التدهور الذي ينزل بحياته. وكان يحجم الأسابيع الطويلة عن دخول الغرفة، بل ينسى الصورة الممسوخة وينسى معها العذاب الذي يفتك بروحه ويسترد مرحه الأول وشوقه إلى الحياة. ثم يخرج من داره فجأة ذات مساء ويقصد إلى وكر من تلك الأوكار الموبوءة وهناك يقضي أيامًا متصلة حتى يقصيه أهلوها فيعود إلى داره ويجلس قبالة الصورة حزينًا كاسف البال يمتلئ قلبه بالمقت للصورة ولنفسه معًا أو يجلس قبالتها مغتبطًا بخطاياه الفريدة لأنها فريدة، راضيًا بالمسخ الذي يحيق بَخياله الشائه لأن المقادير كتبت عليه أن يحمل أوزار حياته النجسة.

وبعد أن مرَّت أعوام شَقّ عليه أن يطيل من أسفاره إلى الخارج فنزل عن الڤيلا التي كان قد كراها ببلدة توڤيل مع اللورد هنري كما نزل عن البيت العربي الأبيض الذي كان قد كراه بمدينة الجزائر مع اللورد هنري أيضاً وقضي فيه الشتاء بعد الشتاء. شق عليه أن ينفصل عن الصورة طويلًا لأن الصورة صارت جزءًا متمِّمًا لحياته، واستبدّ به الخوف من أن يقتحم الغرفة أحد أثناء غيبته رغم أنه أحكم إيصادها بالقضبان.

وكان يعلم أن سره الرهيب لن يطلع عليه إنسان لأن ملامحه قد أوشكت أن تنطمس من الصورة ولم يبقَ منه فيها إلا شبه ضئيل لا يزال ملحوظًا تحت الوجه القبيح الممسوخ. ولكن هذا لن يدل أحدًا على

شيء مما جرى، ولن يعيِّره أحد بأنه صاحب الوجه القبيح الممسوخ فما هو بالذي رسم الصورة، ولا جناح عليه أن يكون الوجه قبيحًا وممسوخًا، بل أن يكون الوجه آية في القبح والمسخ. ولو أنه صارح الناس بالحقيقة لكذبوه.

ومع ذلك فقد كان فزعًا واجفًا. تاه في بيته الكبير بمقاطعة نوتجهام يؤنس أصفياءه من الشباب الوجهاء ويعرض عليه ما يذهلهم ويذهل جميع الناس من ألوان البذخ ومظاهر السخاء، وفيما هو كذلك تراه يترك ضيوفه فجأة ويعود إلى لندن على استعجال ليتحقّق من أن باب الغرفة ما زال سليمًا والصورة ما زالت في موضعها. وكان العرق البارد يتصبَّب من جسده كلما تصوَّر أن الصورة قد سُرقت، فقد كان يخشى أن يطَّلع الناس على سره الرهيب بل لقد كان يحس أحيانًا أن الناس قد بدأوا يشكّون في حقيقة أمره.

لقد كان معجبوه كُثُر ولكنه نجح كذلك في إثارة الريب في قلوب البعض. وهو يذكر كيف أنه أراد ذات مرة أن يلتحق بنادٍ من نوادي لندن يؤهله نسبه الكريم ومكانته في المجتمع للعضوية فيه فأوشك طلبه أن يُرفض. وقد قِيل عنه إن صديقًا له استصحبه مرة إلى نادي تشرشل فما أن دخل قاعة التدخين حتى نهض الدوق بيرويك وسيد آخر في استياء واضح وانصرفا. وحين تجاوز الخامسة والعشرين من عمره كثرت عنه الأقاويل الغريبة. قيل عنه إنه رؤي في شجار مع بعض الملّاحين من الأجانب في بؤرة قذرة بمجاهل حي هوايت تشابل الوضيع، وقيل عنه أنه كان متصلًا بعصابة من اللصوص ومزيفي النقود وأنه درس على أيديهم فنون اللصوصية والتزييف. وكان في كل مرة يختفي لا يعلم أحد مقره أو علة غيابه فتكثر الشائعات على ألسنة الناس وما أن يظهر في المجتمع من جديد حتى يتهامس عنه الناس في أركان الغرفات أو يتجاهلونه في احتقار أو يلقون عليه نظرات باردة فاحصة لعلَّهم ينفذون إلى سره الخبيء.

ولكنه كان ثابت الجأش لا يعبأ بشيء من هذه الإهانات وكان أكثر الناس يعتقدون أن حاسديه ينفسون عليه مرحه الدائم الذي لم تعكِّره الأحزان يومًا وابتسامته الساحرة الساذجة وشبابه الناضر الذي تحدَّى الزمن فيطلقون عنه هذه التهم النكراء التي تردِّدها الألسنة. ولكن الناس كانوا يلحظون أن بعض أخصَّائه يجافونه من وقت إلى آخر وأن بعض النسوة اللائي عشقنه عشقًا لا مزيد عليه وكسرن من أجله أقدس التقاليد وتعرَّضن في هواه لأفحش أنواع النقد كن يشحبن لونًا من فرط الخزي أو من فرط الرعب كلما حَلّ دوريان جراي.

غير أن هذه الفضائح زادته فتنة في نظر الكثيرين وأحاطته بجو من الرهبة والغموض. وقد كانت له ثروته الطائلة مكانته الاجتماعية. لأن المجتمع، المتحضِّر على الأقل، لا يبادر إلى قبول الأقاويل التي من شأنها أن تحطِّم من اجتمعت لهم الفتنة والجاه، وهو يرى بغريزته أن السلوك الاجتماعي أهم شأنًا من الأخلاق، فخير للمرء ألف مرَّة أن يكون له طاهٍ ماهر من أن يكون له وقار المحافظين، فلو قدَّم لك رجل عشاء مؤلمًا أو نبيذًا تافهًا فكيف يعزيك أن تعرف أن حياة مضيفك الخاصة نقية لا غبار عليها؟ لقد قال اللورد هنري مرَّة إن أسمى ما في العالم من فضائل لن تعوِّض على الإنسان خسارته إن هو أكل لحمًا لم يتم تسخينه، ولعل في قوله شيئًا كثيرًا من الصواب. فمقاييس المجتمع السليم هي مقاييس الفن السليم، فإن لم تكن وجب أن تكون كذلك، لأن الشكليات جوهرية في كل مجتمع راقٍ، والواجب يقضي بأن تنال منا ما تستحقه من حفاوة واحتفال وأن نسرف فيها حتى تبتعد بنا عن الواقع؛ والواجب يقضي بأن يجتمع فيها كل ما في التمثيليات الغرامية من نفاق وكل ما في هذه التمثيليات من سحر وذكاء يحببانها إلى قلوبنا. فما النفاق برذيلة، وما النفاق إلا وسيلة تتعدد بها شخصياتنا.

مهما يكن من شيء فقد كانت هذه فلسفة دوريان جراي. وكثيرًا ما كان

يعجب لتفاهة القائلين بأن الأنا شيء بسيط ثابت جوهري يصح الاعتماد عليه، لأنه كان يرى أن الإنسان مخلوق مركَّب متعدِّد الشخصيات لا حصر لإحساساته، تراكم في نفسه تراث من الأفكار والعواطف على تراث من الأفكار والعواطف ودنَّست جسده أسقام الموتى وهي محزنة بشعة. وكان يشتاق كثيرًا إلى استعراض صور أسلافه في القاعة الموحشة الباردة ببيته الريفي ويتفحَّص وجوه أولئك الذين جرت في عروقه دماؤهم. فهذا فيليب هربرت الذي وصفه فرنسيس أوزبورن في مؤلفه «مذكرات عن عهدي الملكة اليزابيث والملك جيمس» بأنه «كان صفي رجال البلاط لحسن طلعته وجماله الذي ذوى قبل الأوان». لقد كان يخيل لدوريان جراي أحيانًا أن حياته ما هي إلا صورة من حياة هربرت الشاب، وأن سم الرذيلة انتقل هكذا من جسد إلى جسد عبر القرون حتى مشى في عروقه. أترى صلاته العجيبة إلى الآلهة أن تبقي له على شبابه وتفعل ما بدا لها بالصورة، صلاة المخبول كما وصفها بازيل هولورد، أترى تلك الصلاة التي غيَّرت مجرى حياته تمامًا نبتت دون وعي منه من حسرته الغامضة على أطلال هذا الجمال القديم؟ ثم هذا السير أنتوني شيرارد يقف أمامه مرتديًا صداره الأحمر الموشَّى بالذهب وسترته المرصَّعة بكريم الجواهر مذهَّبة الكمين حول المعصمين وقد ارتاح درعه الأسود المفضض عند قدميه. ترى ماذا ورث عن هذا الرجل؟ لقد كان السير أنتوني شيرارد خليل چيوڤانا غانية نابولي، أفتراه أورثه الميل إلى الفجور أليس جائزًا أن مغامرات دوريان جراي إن هي إلا الأحلام التي لم يجسر هذا الميت على تحقيقها؟ ثم هذه الليدي اليزابيث ديڤيرو تطل عليه من اللوحة الباهتة في إشراق وقد كست رأسها بغلالة شفافة وزينت وسطها باللآلئ وجرت في كميها عروق خضراء. إنها تحمل بيمناها زهرة وتمسك بيسراها إناء مطعَّمًا بالخزف فيه ورود حريرية بيضاء وبجوارها مائدة على المائدة تفاحة وماندولين وعلى حذائيها الدقيقين وردتان

كبيرتان خضراوان من نسيج. لقد كان يعرف قصة حياتها والأقاويل التي تُروى عن عشاقها الكثيرين. أتراه ورث عنها طبعها؟ إن عينيها البيضاوين عليهما جفنان ثقيلان وهما ينظران إليه نظرة لا يفهم لها معنى. ثم هذا چورچ ويلوبي يلبس شعره المستار المغطَّى بالمسحوق وثيابه العجيبة الألوان. لقد كان منظر ه جهنميًا، فوجهه قاتم عابس حزين وشفتاه الشهوانيتان قد ارتسم عليهما احتقار الناس، وعلى يديه الصفراوين سقط سواران من حرير دقيق الصنع فأوشكا أن يخفيا الخواتم الكثيرة التي تزين أصابعه. لقد كان أميرًا من أمراء الأناقة في القرن الثامن عشر وكان في شبابه من أصفياء اللورد فيرارز. وغير هؤلاء جميعًا كان هناك اللورد بيكنهام صديق چورچ الرابع أيام أن كان وصيًا على عرش إنجلترا ونديمه أيام دعارته وأحد شهود زواجه بمسز فتزهربرت. لقد بدا آية في الملاحة بشعره الكستنائي المجعَّد ووقفته التي تنبئ بالصلف. ترى ماذا ورث عنه؟ لقد ساءت سمعة اللورد بيكنهام في كل مكان، وكان يترأَّس الحفلات البوهيمية الحمراء في كارلتون هاوس، ومع ذلك فقد رصَّعت صدره نجمة وسام ربطة الساق، وهو الوسام الأول في المملكة، كأنه بطل قومي. وهاهي صورة زوجته قائمة إلى جوار صورته، وهي امرأة صفراء الوجه دقيقة الشفتين متَّشحة بالسواد. إن دمها يجري كذلك في عروق دوريان جراي، فيا للعجب لهذا الخليط! ثم ها هي أمه تطل عليه من لوحتها بوجه يشبه وجه الليدي هاملتون محبوبة نِلسون وكأن شفتيها مبللتان بالنبيذ. إن دوريان جراي يعرف ما أخذه عن هذه المرأة. لقد أخذ عنها جماله وعشقه لجمال الآخرين. وها هي تنظر إليه في إشراق وهي في ثوبها المحلول الذي يشبه أثواب العذارى السكارى في أساطير اليونان، وعلى شعرها انتشرت أوراق العنب، وفي يدها كأس سال منه النبيذ الأرجواني، لقد ذبلت أزهار القرنفل التي زين بها الرسَّام صورتها ولكن بريق عينيها لا يزال قويًا وصفاء عينيها لا يزال عميقًا. نعم، إن

عينيها تتبعانه أينما توجَّه.

لكن دوريان جراي لم يكن له أسلاف في الدم فحسب بل كان له أسلاف في الأدب كذلك أسلاف لعلهم أوثق به رباطًا مع أصلابه وأقرب إليه منهم في الطبع والشخصية، وهؤلاء تأثيرهم واضح في النفس لا خفاء فيه. بل لقد كان يتوهَّم أحيانًا أن تاريخ الإنسانية ليس إلا ترجمة حياته هو، لا حياته الواقعة بأحداثها وظروفها ولكن حياته كما رسمها له خياله وصورتها له عواطفه. وكان يحس بأنه يعرف الأبطال الذين زيَّنوا الرذيلة لعيون الناس وتفنَّنوا في الشر، يعرفهم واحدًا واحدًا، وبدا له أن حياتهم لم تكن إلا نسخًا متكرِّرة من حياته.

فبطل القصة العجيبة الذي كان له سلطان عظيم على نفسه كان يشاركه هذا الاحساس بأن الدنيا قد اجتمعت فيه. وهو يقول في الفصل السابع إنه جلس جلسة الإمبراطور تايبريوس في حديقة بجزيرة كابري تغطي رأسه أوراق الغار لتمنع عنه الصواعق مطالعًا كتاب اليفانتيس المخزي، على حين كانت الأقزام والطواويس تختال من حوله، ويرقص أمامه عازف الناي كما يرقص حامل المبخرة. وهو يقول إنه ثمل وعربد مع ساسة الخيل ذوي القمصان الخضراء في مزاودهم ثم أكل في صحفة عاجية مع جواد على صدره كسوة رصَّعتها الجواهر، كما فعل القنصل كاليجولا وهو يقول إنه جال كما جال دوميتيانوس شاحب الوجه في دهليز على جانبيه مرايا من رخام، باحثًا في صفحتها عن خيال الخنجر الذي اعتزم أن يقضي به على نفسه وقد أتلف روحه الملل، ذلك الداء الذي يصيب من حبتهم الحياة بكل شيء ولم تبخل عليه بشيء. وهو يقول إنه نظر إلى حوانيت القصابين في سوق المدينة خلال زمردة شفافة صافية ثم وجد نفسه محمولًا في عربة من أرجوان ودُرّ تجرها بغال فضية الحدوات والعربة تجري في شارع الرمان قاصدة إلى قصر الذهب وسمع الناس بطول الطريق ينادون: يا نيرون، يا نيرون! كذلك يقول إنه صبغ وجهه

بالألوان كما فعل الأجابال[1] وجلس بين النساء يغزل كما يغزلن وأتى بالقمر من قرطاجنة وزوَّجه بالشمس زواج الروح بالروح.

كم قرأ دوريان جراي هذا الفصل وما بعده من فصول! لقد قرأ في الفصل الثامن والفصل التاسع وصفًا عجيبًا ساحرًا لأولئك الأشقياء الذين هاموا بالرذيلة وكلفوا بالدماء وضاقوا بالضجر فاستحالوا وحوشًا ضارية أو ضاع صوابهم فدخلوا في زمرة المجانين. قرأ عن فيليپو، دوق ميلان الذي ذبح زوجته وبلل بالسم شفتيها لعل عشيقها يلعقه فيموت. قرأ عن پيترو باربي عاهلِ البندقية الذي عُرف باسم بولس الثاني، وكيف دفعه الغرور إلى أن يلقِّب نفسه ببولس الجميل، وكيف باع تاجه بشهوة أثيمة نكراء وهو يقدر بمائتي ألف فلورين، كذلك قرأ عن چان ماريا ڤسكونتي الذي كان يستخدم كلاب الصيد لتطارد الآدميين وكيف وُجدت جثته بعد قتله مغطاة بأزهار نثرتها عليه بغيّ كانت متيّمة بحبه. وقرأ عن بورچيا قاتل أخيه وعن جواده الأبيض وعن معطفه الملطخ بدم پيترو. وقرأ عن پيترو رياريو كاردينال فلورنسا الصغير وولد البابا سيكستوس الرابع المفضل لديه، وهو الذي أذهل الناس جماله وفجوره معًا، وهو الذي استقبل ليونورا ملكة أراجون في خيمة من الحرير الأبيض والحرير القرمزي ملأى بالحور ووحوش الأساطير وطلى صبيًا من الصبيان يقوم بخدمته في هذه الوليمة بماء الذهب لعله يبدو كهيلاس أو كغانيميد ساقي الآلهة. وقرأ عن الطاغية عزلين الذي أصيب بداء الكآبة ولم يفرِّج عنه إلا مرأى القتلى وطعم الدماء حتى لقد قيل عنه إنه ولد شيطان من الشياطين راهن أباه على روحه وغشه في اللعب. وقرأ عن چان باتستا تشيبو[2] الذي لقب

---

(1) Elagabalus أو ماركوس أوريليوس أنطونيوس (203-222): امبراطور روماني حكم وهو في الرابعة عشرة، قام أثناء حكمه بأمور اعتبرت إهانة للتقاليد الدينية والجنسية الرومانية، في عام 222 تم اغتياله مع والدته.

(2) جان باتيستا تشيبو (1432-1492): بابا الكنيسة الكاثوليكية الثامن.

نفسه بتشيبو البريء وهو الذي حقنه طبيب يهودي بدم ثلاثة من الصبية. وقرأ عن سيجيسموندو مالاتستا[1] عاشق إيزوتا وسيِّد ريميني وهو الذي أحرقت في روما صورته ولقّبه الناس بعدو الله والناس لأنه خنق پوليسينا بمنديل كبير ووضع السم لچيزڤا ديستي في كأس من الزمرد وبنى كنيسة وثنية ليتعبَّد فيها المسيحيون تخليدًا لجريمة من جرائمه المخزية. وقرأ عن شارل السادس[2] الذي عشق زوجة أخيه عشقًا قويًا مدمرًا حتى لقد تنبأ له رجل أبرص بالجنون فلمَّا أن ذهب عقله لم يكن يهدّئ من هياجه إلا مرأى رقاع غريبة رُسمت عليها صور ترمز للحب والموت والجنون. وكذلك قرأ عن جريفونيتو باليوني ذي الشعر المجعَّد والقبعة المرصَّعة باللآلئ والسترة المحبوكة وهو الذي فتك بأستورّي وبعروسه وبسيمونيتو وخادمه فلمَّا أن حضرته الوفاة بقصر پيروچيا الأصفر بكاه أعداؤه لفرط جماله وباركته أتالانتا بعد أن صبَّت عليه اللعنات.

كل هؤلاء قرأ دوريان جراي عنهم فسحرته فظاعتهم وكان يراهم في اليقظة والمنام. حقًا لقد رأى عصر النهضة الأوربية من فنون السم عجبًا. عرف الخوذة المسمومة والمشعل المسموم والقفاز المسموم والمروحة المسمومة والمسبحة المسمومة والمعطرة المسمومة.

أما دوريان جراي فقد فتك بروحه كتاب مسموم، فلقد كان يجد في الشر أحيانًا ما يحقِّق فكرته عن الجمال.

---

(1) مالاتستا (1498-1553): Sigismondo Malatesta مرتزق وزعيم عسكري إيطالي.

(2) شارل السادس (1368-1422): ملك فرنسا، لُقِّب بالمجنون.

الفصل الثاني عشر

في ليلة التاسع من نوفمبر، وهو اليوم السابق لعيد ميلاده الثامن والثلاثين، حدثت أحداث جسام جعلت دوريان جراي يذكر ذلك اليوم طويلًا.

خرج دوريان جراي حول الساعة الحادية عشر من بيت اللورد هنري. بعد أن تناول معه العشاء وسار قاصدًا بيته. وكان يلبس الفراء السميكة ليتقي بها شر تلك الليلة الباردة التي انتشر فيها الضباب. وفي منعطف ميدان جروڤنور وساوث أودلي ستريت خرج من الضباب رجل يسرع في المسير وقد رفع ياقة سترته الرمادية وكان يحمل في يده حقيبة. ومر هذا الرجل بدوريان جراي فإذا به بازيل هولوورد. واعترى دوريان فزع غريب لم يفهم له سببًا، فتجاهله واستأنف المسير نحو بيته على استعجال، ولكن بازيل هولوورد تبيَّنه فتوقَّف عن المسير أولًا ثم استدار وأسرع ليلحق به، وبعد لحظات قليلة كان الرسَّام قابضًا على ذراعه يقول:

ـ ما أعجب هذه الصدفة يا دوريان لقد انتظرتك في مكتبتك منذ الساعة التاسعة، فلما طالت غيبتك أشفقت على خادمك الذي أنهكه السهر فطلبت إليه أن يأوى إلى فراشه ثم انصرفت. إني ذاهب إلى باريس بقطار منتصف الليل ولقد كان يهمني أن أراك قبل رحيلي. فلمَّا أن لمحتك في الضباب عرفتك أو على الأصح خيل إليَّ أن هذا الفراء

فراؤك. ألم تعرفني يا دوريان؟

ـ وكيف أعرفك في هذا الضباب يا عزيزي بازيل! إني لا أستطيع أن أتبيَّن ميدان جروڤنور نفسه فكيف تنتظر ذلك مني؟ بل إني أحس بأن بيتي في هذه المنطقة ولكني لا أعرف مكانه على التعيين. يؤسفني أن أسمع برحيلك يا بازيل فلقد مضى زمن طويل لم نلتقِ فيه، ولعلك لن تغيب طويلًا.

ـ بلى. سوف أقيم في الخارج ستة أشهر، وقد صح عزمي على استئجار استوديو بباريس أعتزل العالم فيه حتى أفرغ من رسم صورة عظيمة تصميمها يملأ رأسي. ولكن دعنا من هذا الآن فما جئتك لأتحدَّث عن نفسي. ها قد وصلنا إلى بابك فهلا أذنت لي بالدخول حتى أفضي إليك بحديث هام؟

قال دوريان جراي في تكاسل وهو يصعد الدرج ويدير المفتاح في ثقب الباب:

ـ يسرني أن أدعوك يا بازيل، ولكن ألا يعطلك هذا عن قطارك؟

نظر هولوورد إلى ساعته على نور المصباح الذي خنقه الضباب ثم قال:

ـ لا تزال أمامي فسحة من الوقت، فالقطار لا يغادر المحطة إلا في الثانية عشرة والربع والساعة الآن لا تزال الحادية عشرة. والواقع أني حين لقيتك كنت في طريقي إلى النادي لأبحث عنك، ومن هذا ترى أني لن أحتاج إلى وقت لجمع أمتعتي فقد سبقتني القطع الثقيلة منها إلى المحطة، وكل ما سأحمله هو هذه الحقيبة ومحطة ڤكتوريا لن تحتاج إلى أكثر من عشرين دقيقة.

فابتسم له دوريان وقال:

ـ ما أعجب منظرك في هذه السترة العريضة الياقة وبهذه الحقيبة المنتفخة! هيا ادخل وإلا دخل قبلك الضباب. ولكني أنهاك عن الكلام

في أي شيء ذي بال، فنحن نعيش في عصر خلا من كل شيء ذي بال، أو على الأقل يجب أن يخلو.

تبع هولوورد دوريان إلى المكتبة وهز رأسه حين سمع هذا الكلام. وكانت النار تتقد بشدة في المدفئة المكشوفة والمصابيح تشتعل، وفي الغرفة مائدة صغيرة عليها صندوق مفتوح من الفضة الهولندية اصطفت فيه زجاجات الشراب وبجوارها بعض زجاجات الصودا وأكواب زجاجية ضخمة.

قال هولوورد مشيرًا إلى الخمر:

ـ مِن هذا ترى يا دوريان أن خادمك قد جعلني أحس بأني في بيتي، وأعطاني كل ما طلبته بما في ذلك سجائرك المذهبة، فهو رجل كريم هو يفضل خادمك الأول الفرنسي ألف مرة. وبهذه المناسبة قل لي: ماذا حدث لخادمك الفرنسي؟

فهز دوريان كتفيه قائلًا:

ـ أعتقد أنه تزوج بوصيفة الليدي رادلي وفتح لها محلًا بباريس لتفصيل الملابس على الأزياء الإنجليزية، وقد بلغني أن التطور الأخير في الذوق الفرنسي هو الجنون بكل ما هو إنجليزي. أليس هذا غباوة من الفرنسيين؟ ولكن ڤكتور كان خادمًا مرضيًا على عكس ما تظن. صحيح أني كنت أنفر منه شخصيًا ولكنه لم يدع لي مجالًا للشكوى حين كان في خدمتي. وكم شككت فيه ولكن شكوكي كانت على غير أساس فقد كان في الواقع شديد الإخلاص لي وبدا عليه التأثُّر العميق حين ترك خدمتي. أترغب في كأس آخر من الكونياك مع الصودا يا بازيل أم تفضل نبيذ الرين مع الغازوزة؟ إن نبيذ الرين مع الغازوزة هو شرابي المفضل ولا بد أن لدي منه بقية في الغرفة المجاورة.

أجاب الرسَّام وهو يخلع عنه قبعته ومعطفه ويلقيهما فوق الحقيبة التي وضعها في ركن الغرفة:

ـ أشكرك، وكفاني ما شربت. والآن فإني أرغب في أن أحدثك حديثًا جديًا يا دوريان وأرجوك ألا تعبس هذا العبوس فهو لا يشجعني على المضي في الحديث.

فقال دوريان في جفافه المعهود وهو يرتمي على الأريكة:

ـ عمَّ تريد أن تحدثني؟ أرجو ألا تحدثني عن نفسي فأنا برمٌ بنفسي هذه الليلة، وأود أن أكون شخصًا آخر.

فأجاب الرسَّام بصوت حاد عميق:

ـ بل أريد أن أحدثك عن نفسك يا دوريان، ولا بد لي من الإفضاء إليك بهذا الحديث ولن أقتطع من وقتك أكثر من نصف ساعة.

تنهد دوريان ثم أشعل سيجارة وقال:

ـ نصف ساعة بأكملها!

ـ أنا لم أطلب منك شيئًا مذكورًا يا دوريان ثم إني أتوخَّى مصلحتك بهذا الكلام. فاعتقد أن من الصائب أن تعرف أن الناس في لندن يتناقلون عنك أشنع الأقاويل.

ـ لست أحب أن أعرف شيئًا عما يقال فيَّ. فأنا أحب الفضائح إذا رُويت عن الآخرين أما الفضائح التي تُروى عني فلا يهمني أمرها، لأنها لا تأتي بجديد وهي كذلك خالية من الطلاوة.

ـ ولكن الواجب يقضي عليك بأن تهتم لها فأنت چنتلمان والچنتلمان تهمه سمعته. أنت بالطبع لا تحب أن يبسط الناس ألسنتهم فيك ويصوروك في صورة المجرم الآثم. لست أشك في أن مكانتك عالية وثروتك ضخمة، ولكن المكانة والثروة لا تغنيان عن المرء شيئًا إن هو ساءت سمعته. وأنا أؤكد لك أني لا أصدِّق من وشايتهم شيئًا أو على الأقل أراني أرفض تصديقها كلما رأيتك، فالرذيلة تطبع على وجوه الناس أثرًا لا يُمحى ولا يُخفى ووجهك مثال الطهر والنقاء. أسمع الناس يتحدَّثون أحيانًا عن الرذائل المستورة وفي رأيي أن الرذيلة المستورة

شيء لا وجود له فإذا ما ابتُليَ أحد برذيلة رأيت آثارها واضحة في خطوط فمه وفي تهدُّل جفنيه بل وفي هيئة يديه كذلك. لقد جاءني في العام الماضي رجل من معارفك لن أذكر لك اسمه يطلب إليَّ أن أرسم صورته ولم أكن قد رأيته أو سمعت به من قبل ولكني عرفت عنه الكثير بعد ذلك. وقد عرض عليَّ أجرًا سخيًا مسرفًا في السخاء، ولكني رفضت لأني شاهدت في هيئة أصابعه ما كرهت، وقد تحقَّق لي الآن إني كنت على صواب في ظنوني وعلمت أن حياته دنسة إلى حد مفجع. أما أنت يا دوريان فلست أصدق كلمة واحدة مما يقال فيك لأن وجهك الناضر ينطق بالبراءة. ولكني لا ألقاك إلا غرارًا، وأنت لم تعد تأتي إلى الاستديو، وحين أسمع الناس يتهامسون عنك بجهر القول لا أعرف ماذا أقول. ماذا جعل الدوق بيرويك ينصرف من النادي حين حللت به أنت يادوريان؟ ما الذي حمل عددًا كبيرًا من وجهاء لندن على مقاطعتك. لقد كنت صديقًا للورد ستاقلي ولكني لقيته في حفلة عشاء في الأسبوع الماضي وانتهى بنا الحديث إليك بمناسبة الصور المصغَّرة التي أعرتها لمعرض ددلي، فلوى ستاقلي شفته امتعاضًا وقال إنك قد تكون من أصحاب الذوق الفني النادر ولكنك رجل لا يجوز لفتاة طاهرة أن تتعرَّف إليه ولا يجوز لإمرأة عفَّة أن تجلس في مكان أنت فيه جالس. فلما نبَّهته إلى أني صديقك وطلبت إليه أن يفسِّر كل شيء سرد لي عنك الأعاجيب أمام جميع الحاضرين، ويا لها من تهم شنعاء تلك التي كالها لك يا دوريان. قال إنك تحطِّم حياة الشبان بتأثيرك السيئ فيهم. فمنهم ذلك الفتى التاعس ضابط الحرس الذي انتحر، وقد كنت من أخلص أصدقائه. ومنهم السير هنري آشتون الذي اضطر إلى الرحيل عن إنجلترا ملوَّث الشرف، وقد كنتما متلازمين. ومنهم السير آدريان سنجلتون الذي انتهت حياته نهاية فاجعة ومنهم ولد اللورد كنت الذي أضعت مستقبله. لقد قابلتُ أباه المسكين أمس في شارع سانت چيمس فرأيت الحزن والعار قد هدا بنيانه. ثم دوق پيرت؟

إن حياته الآن جحيم لا يطاق ولن يرضى أحد يحترم نفسه أن يخالطه.

عض الألم دوريان فعض دوريان شفته وقال بصوت ينم عن الاحتقار البالغ:

ـ كفى كلامًا يا بازيل! إنك تلغو عن أشياء لا تعرف عنها شيئًا. إنك تسألني عما يحمل بيرويك على ترك النادي حين أحل أنا به، وأنا أقول لك إنه يفعل ذلك لأني أعرف كل شيء عن حياته لا لأنه يعرف أي شيء عن حياتي. إن الدم الذي يجري في عروق بيرويك لهو دم الإثم والجريمة فكيف ينتظر من مثله أن يحيا حياة صالحة! إنك تسألني عن هنري آشتون ودوق پيرث، فهل أنا الذي لقنتهما مبادئ الرذيلة؟ ثم إذا كان ولد كنت يؤثر أن يتصيَّد لنفسه زوجة من الشارع، فكيف أُلام أنا على ذلك؟ وإذا كان آدريان سنجلتون يوقع على الصكوك بأسماء أصدقائه فما أنا بالوصي عليه المسؤول عن فعاله. أنا أعرف ميل الإنجليز إلى الولوغ في أعراض الناس. فأبناء الطبقة المتوسِّطة يعرضون أخلاقياتهم العتيقة على موائدهم الخالية من الذوق ويتهامسون عن فضائح سادتهم النبلاء ليحسوا بأنهم داخل المجتمع الراقي لا خارجه وليوهم بعضهم بعضًا بأنهم من أصفياء أبناء البيوتات الذين يلوِّثون أعراضهم. وفي إنجلترا يكفي أن يجتمع لك شرف المولد والذكاء معًا لكي يطلق أوساط الناس ألسنتهم فيك غيرة وكمدًا. ثم أين هذه الحياة الفاضلة التي يحياها أولئك الذين يتشدَّقون عن الفضيلة؟ أنت تنسى يا عزيزي أننا نعيش في وطن النفاق.

فقال هولوورد:

ـ هذا خارج عن الموضوع يا دوريان. فأنا أعرف أن إنجلترا بلد منحط وأن المجتمع الإنجليزي مجتمع فاسد من أساسه، ولهذا أردتك أن تكون نموذجًا للكمال يحتذى، ولكنك خيبت ظني فيك. إن من حقي أن أحكم على أي إنسان بالأثر الذي يتركه في أصدقائه، وأصدقاؤك قد فقدوا

إحساسهم بالشرف وقدرتهم على الخير ورغبتهم في النقاء. لقد نفثت فيهم الكلف باللذات إلى حد الجنون فهووا بذلك إلى الحضيض، وأنت الذي سقتهم إلى هذا المصير. نعم، أنت الذي سقتهم إلى هذا المصير، وها أنت تبتسم كأنك لم تأت وزرًا. وما ذكرت لك إلا القليل عن فعالك. فأنت وهاري أخوان لا يفترقان ومع ذلك فقد جعلت اسم أخته مضغة في أفواه الناس، وقد كان يجمل بك أن ترعى للأخوة حقها.

ـ أحذر ما تقوله يا بازيل فقد تجاوزت حدودك.

ـ بل لا بد أن أقول كل شيء وعليك أن تسمع ما أقول. نعم لسوف تسمع ما أقول. إن الليدي جويندولين كانت حين قابلتها أول مرَّة سيدة فضلى لا يسمها لسان بسوء فهل بقيت في لندن سيدة كريمة واحدة ترضى بأن تخرج معها للنزهة في هايد پارك؟ لقد بلغ من سوء سمعتها أن أطفالها قد نُزعوا منها. ثم هناك روايات شتى، روايات تقول بأن الناس رأوك تتسل عند الفجر خارجا من دور الفحش وتتردد مستخفيًا على أقذر مباءات لندن. أصحيح هذا يا دوريان؟ بل أيجوز أن يكون ذلك صحيحًا؟ لقد كنت أضحك حين أسمع عنك هذه الأقاويل أما الآن فإني أرتجف كلما سمعتها. إن بيتك الريفي قد أضحى بيت دعارة. إنك لا تعرف ما يُقال عنك يا دوريان، وأنا لا أقول لك إني سأتجنَّب المواعظ، فإني أذكر أن هاري قال مرة إن هواة الوعظ يبدأون وعظهم بقولهم إنهم لا يحبون الوعظ ثم يثبت عكس ذلك. أما أنا فأعترف لك بأني أريد أن ألقي عليك موعظة لعلك تتعظ.

أسألك يا دوريان أن تحياة حياة شريفة تلزم الناس باحترامك. أسألك يا دوريان أن تتخلَّى عن رفاق السوء. أسألك يا دوريان أن تغسل عن اسمك الأقذار التي علقت به وأن تكون صفحتك بيضاء ولا تتكلَّف عدم الاكتراث كما تفعل الآن فإن لك تأثيرًا قويًا في أقرانك فليكن هذا التأثير تأثيرًا حميدًا لا تأثيرًا هدَّامًا. يقولون إنك تفسد كل ما تخالطه وإنك

ما دخلت بيتًا إلا وجررت له العار في أعقابك، ولست أدري أصحيح هذا القول أم كاذب، وأنّى لي أن أعرف وأنا لا أراك إلا نادرًا. يقولون عنك أشياء لها قوة الحقائق فاللورد جلوستر مثلًا، وهو صديق من أوفى أصدقائي الذين عرفتهم أيام كنت أدرس في أكسفورد، أطلعني على خطاب كتبته زوجته إليه وهي على فراش الموت بمنتون حيث تخلى عنها الجميع وفي الخطاب قرأت اسمك مقترنًا بأشنع اعتراف مر بي حتى هذه اللحظة، فقلتُ له إن هذا غير معقول لأني أعرفك معرفة تامة وأعرف أنك لا تستطيع إتيان شيء مما نُسب إليك. ولكني الآن في حيرة من أمري ومن أمرك ولم أعد واثقًا من أني أعرفك حقًا، ولن تتبدد شكوكي إلا إذا رأيتُ روحك.

فنهض دوريان جراي من الأريكة وجلًا وشحب لونه أيّما شحوب وقال:

ـ إلا إذا رأيتَ روحي!

أجاب هولوورد في تؤدة بصوت عميق يرن بالأسى:

ـ أجل. إلا إذا رأيتُ روحك. ولكن الله وحده يستطيع أن يرى روحك.

فارتفعت من دوريان جراي ضحكة تشوبها المرارة والسخرية معًا وحمل مصباحًا من فوق المائدة وقال:

ـ بل سوف تراها أنت هذه الليلة، فهيا بنا إليها فهي من صنع يديك. لست أجد ما يمنع أن تراها. وبعد رؤيتها أنت في حل من أن تصفها أمام العالم كله فلن يصدقك أحد، وإن صدَّقك الناس فسيزداد إعجابهم بي فأنا أعرف أهل هذا الجيل خيرًا منك رغم أنك تتشدَّق بأحاديثك المملة عنهم. قلت هيا بنا، فقد قلت ما فيه الكفاية عن انحاط الروح، والآن فلتر هذا الانحطاط وجهًا لوجه.

وكانت كل كلمة فاه بها تحمل معاني الكبرياء الشديد، وضرب الأرض بكعبه بطريقته الصبيانية الوقحة وشاع في نفسه فرح عظيم لأن

سره الذي أضناه كتمانه سيخرج الآن إلى النور، ولأن الرجل الذي رسم الصورة التي خلَّدت عاره سوف يقضي بقية حياته شقيًا بذكر ما جنت يداه.

واقترب منه وتفرَّس في عينيه الثابتتين واستأنف كلامه قائلًا:

ـ نعم، سوف أريك روحي. سوف ترى ما لا يراه إلا الله كما تقول.

فجفل هولوورد وارتدّ قليلًا وصاح به:

ـ هذا كفر يا دوريان! فلا تقل مثل هذه الأشياء لأنها شائنة ولأنها خلت من كل معنى.

وضحك دوريان ثانية وقال:

ـ أتظن ذلك؟

ـ بل أعرفه. أما ما قلته لك الليلة فما كنت أبغي به إلا نفعك، فأنت تعرف أني كنت دائمًا صديقًا لك وفيًا.

ـ ابتعد عني، وأتم حديثك إذا شئت.

فتقلَّص وجه الرسَّام كأنه طعن بمدية وسكت لحظة ثم شاع في قلبه إحساس عميق بالرثاء لحال دوريان جراي. وأنَّب نفسه لتطفله على حياته الخاصة، وهي ملك له وحده يفعل بها ما يشاء، وأن عذاب ضميره ليغنيه عن كل تقريع، فلو أنه ارتكب عشر معشار ما ينسبه المرجفون إليه من آثام لوجب أن يعيش في جحيم مقيم! واعتدل بازيل هولوورد ثم سار نحو المدفأة وأنشأ يتأمَّل الخشب المحترق فيها والرماد الأبيض الذي يكسو الجمر المتأجِّج. وأخيرًا قال الشاب بصوت واضح قاس:

ـ أنا في انتظارك يا بازيل.

والتفت بازيل إليه وقال:

ـ كل ما أريد أن أقوله هو هذا: أسألك أن تجيب على هذه التهم الشنيعة التي يلصقها الناس بك. ولو أنك قلت لي إنها فرية عظمى من ألفها إلى يائها لصدقتك. انكر هذه التهم يا دوريان، أجل، انكرها أكن سعيدًا! ألا

ترى ما أعانيه من عذاب؟ يا إلهي! لست أحتمل أن تعترف لي بأنك حقًا ممسوح النفس، منحط الخلق، تعيش في العار.

فابتسم دوريان جراي وبدت على في شفتيه أمارات الازدراء، وقال في هدوء:

ـ تعالَ معي إلى الطابق العلوي يا بازيل، فهناك أكتب يومياتي بانتظام ولا أسمح لأحد أن ينقلها من مكانها، فتعال معي أطلعك عليها.

ـ سأذهب معك إذا كان هذا يرضيك. لقد فاتني القطار ولكن هذا لا يهم ففي استطاعتي أن أرحل غدًا إلى باريس ولا تطلب إليَّ أن أقرأ الليلة شيئًا فكل ما أبغيه جواب صريح عن سؤال صريح.

ـ ستجد هذا الجواب الصريح في الطابق العلوي، أما هنا فلن أجيب على شيء. تعال معي لتقرأ الجواب، ولن تقرأ طويلًا.

الفصل الثالث عشر

خرج دوريان جراي من الغرفة وبدأ يصعد السلم ومن ورائه بازيل هولوورد. وكانت خطواتهما رقيقة فالإنسان ترق خطاه بحكم الغريزة ليلًا. وألقى المصباح ظلالًا ماردة على السلم وعلى الحائط. وهبَّت نفحة من الريح هزَّت نوافذ الدار فقعقعت. وحين وصلا إلى نهاية السلم وضع دوريان جراي المصباح على الأرض وأخرج من جيبه المفتاح وأداره في الباب ثم قال بصوت خفيض:

ـ ألا تزال تصر على جواب يا بازيل؟

ـ نعم.

فأجاب الفتى مبتسمًا:

ـ هذا يدعوني إلى الاغتباط.

ثم أضاف في قليل من الخشونة:

ـ أنت الشخص الوحيد الذي يحق له أن يعرف عني شيئًا، فقد تركت في حياتي أثرًا لا تعرف أنت مداه.

ثم رفع المصباح وفتح الباب ودخل، فلطمه تيار من الهواء البارد وارتفع نور المصباح برهة واشتد لهبه البرتقالي، وارتجف دوريان جراي وهمس لصاحبه وهو يضع المصباح على المائدة.

ـ أقفل الباب وراءك.

ونظر هولوورد حواليه في كل صوب يتفقَّد الغرفة وبدت عليه الحيرة. رأى أن الغرفة لم يستعملها أحد لسنوات. ورأى على الحائط قطعة من القماش الفلمنكي عليها رسوم نسخها الزمن ورأى صورة يحجبها ستار ورأى صندوقًا إيطاليًا قديمًا وحمالة كتب تكاد أن تكون فارغة ومائدة وكرسيًا، وفيما عدا ذلك لم يرَ في الغرفة شيئًا. وعندما كان دوريان جراي يوقد شمعة فوق المدفأة نصفها مستهلك، لاحظ بازيل هولوورد أن التراب يكسو كل ما بالغرفة وأن البساط ممزَّق. ورأى فأرًا يجري وراء ألواح الحائط. وشَمَّ رائحة عفنة نقلتها رطوبة الهواء. قال دوريان بصوت قاسٍ ينم عن عاطفة ميتة:

ـ إذًا فأنت تحسب يا بازيل أن الله وحده يرى أوراح الناس. أزح هذا الستار تَرَ روحي.

فأجاب هولوورد عابسًا:

ـ أنت تهذي كالمجنون يا دوريان فإن لم تكن مجنونًا فلا بد أنك تمثِّل دورًا لا أفهمه.

قال الشاب:

ـ ألا تريد أن تزيح الستار؟ إذًا فسأزيحه أنا نيابة عنك.

ونزع الستار من القضيب المعلق فيه وألقى به على الأرض.

فلما أبصر الرسَّام الوجه الشائه يتجهَّم له من الصورة في النور الخافت صدرت منه صيحة فزعٍ وأحس بالمقت والتقزز مما رآه. لقد كان الوجه وجه دوريان جراي حقًا، ورغم ما نزل به من مسخ وبيل بقيت له معالمه الأولى وشيء من جماله القهَّار. حتى قرمز شفتيه الشهوانيتين وذهب شعره الجميل بقي منهما أثر وزرقة عينيه الساحرتين وخطوط أنفه المنحوت وجيده الوضَّاء بقي منها دليل على ما كان. أجل، إنه دوريان لا سواه ولكنه مسخٌ رجيم. فمن يا ترى رسم هذا المسخ الرجيم؟ إنه يرى ريشته وألوانه واضحة في الصورة، وكذلك استطاع أن يتميز الإطار فهو

واضع تصميمه وأمسك بالشمعة واقترب بها من الصورة فقرأ اسمه في ركنها الأيسر منقوشًا بحروف مديدة برتقالية لامعة.

وظن برهة أنها دعابة سمجة من مقلد بذيء أراد أن يسخر منه، فهو لم يرسم هذا الوجه الشائه قط، ومع ذلك فقد كان يعرف في قرارة نفسه أن الصورة صورته وجمد الدم في عروقه. إنها صورته! إنها صورته! فما معنى هذا؟ وكيف أصابها هذا التغير؟ والتفت إلى دوريان جراي ورمقه بعينين ذابلتين وارتجف فمه وانعقد لسانه وارتفعت يده إلى جبينه كمن يريد أن يجمع أشتات خواطره فوجد جبينه ينضح بالعرق الكثيف.

وكان الشاب متكئًا على سطح المدفأة وقد بدا على وجهه الاهتمام الكامل كأنه مستغرق في مشاهدة ممثل عظيم، فلا الحزن يملأ فؤاده ولا الفرح، بل كل ما هنالك إحساس بأنه يشاهد أمرًا جللًا، وفي عينيه ما يشبه وميض الانتصار. وخلع الزهرة من عروته وذهب يشمها أو يتظاهر بشمها.

وأخيرًا صاح هولوورد قائلًا:

ـ ما معنى هذا؟

وكانت نبرات صوته حادة فأنكرتها أذناه.

ومزّق دوريان جراي الزهرة بين أنامله وقال:

ـ منذ سنوات طويلة لقيتني وكنت يومئذ صبيًا، وأطريتني وعلَّمتني كيف أَغْتَرّ بجمالي. وذات يوم عرَّفتني بصديق من أصدقائك فشرح لي فلسفة الشباب وأتممت أنت صورة كنت ترسمها لي فعرفت منها الجمال كيف يكون. فمرت بي لحظة جنون تمنيت فيها أمنية تشبه صلاة المصلين، أمنية لا أدري حتى هذه الساعة أأندم عليها أم لا.

ـ أنا أذكر هذه الأمنية، وهي مطبوعة في خلدي كأني سمعتها بالأمس. كلا يا دوريان، محال أن تكون الأمنية قد تحققت. إن الرطوبة تملأ الغرفة وقد دبَّ التعفُّن في خيش اللوحة، ولا بد أن الألوان الزيتية التي

استخدمتها كانت تحوي بعض العناصر السامة. أقول لك إن هذا محال.

فمضى الشاب إلى النافذة، وأسند جبهته إلى زجاجها البارد المغطى بالضباب وقال:

ـ ما هو هذا المحال؟

ـ ألم تقل لي إنك قد دمَّرت الصورة؟

ـ أجل، ولكني كنت مخطئًا، لأن الصورة قد دمَّرَتني.

ـ محال أن تكون هذه الصورة التي رسمتها.

فقال دوريان بمرارة:

ـ ألا تستطيع أن تتبيَّن فيها مثلك الأعلى كما كنت تفعل في الماضي؟

ـ مثلي الأعلى كما تسميه.

ـ بل كما سمَّيته أنت.

ـ مَثَلي الأعلى لم يكن فيه شَرٌّ ولا عار. لقد كنتَ لي نموذجًا فريدًا لكل شيء سامٍ في الحياة، أما هذا فوجه شيطان.

ـ إنه صورةُ روحي.

ـ رحماك أيها السيد المخلِّص! أفهذا هو الصنم الذي عبدتُ! إن له عيني شيطان.

قال دوريان في يأس قاتلٍ:

ـ لقد اجتمعت في كل منَّا الجنة والجحيم يا بازيل.

وانصرف هولوورد إلى الصورة وذهب يتأملها ثم صاح قائلًا:

ـ الرحمة يا الله! لو أن هذا كان صحيحًا، فإن ما ظهر للناس من حقيقتك لا يُقاس بما خفي عليهم منها.

وأمسك بالمصباح ثانية وطفق يتفحَّص الصورة من جديد، فوجد أن سطحها لم يتغيَّر قط وأن مخايل الدنس والإجرام تطل عليه من داخل الصورة فعرف أن قوة باطنية قد جعلت آثار الخطيئة تفتك بالوجه الجميل شيئًا فشيئًا، ورأى في الصورة جيفة حية دونها الرمم التي تبلى في بطون القبور.

وارتعشت يده فسقطت الشمعة من مقبضها إلى الأرض وظلَّت هناك تحترق فداسها بقدمه وأطفأها، ثم ألقى بنفسه على الكرسي المتهدم القائم بجوار المائدة ودفن وجهه في كفيه وأخذ يقول:

ـ الله يا غفور! ما أقسى هذا الدرس يا دوريان.

ولكن دوريان لم يجب، بل ظل ينتحب بجوار النافذة بصوت مسموع.

ـ صل إلى الله يا دوريان، صل إليه. ماذا تعلمنا أن نقول ونحن بعد أطفال؟ «أبانا الذي في السموات. لا تدخلنا في التجربة. اغفر لنا ذنوبنا. امسح خطايانا». فلنصلِّ معًا يا دوريان. إن السماء قد استجابت لصلاة دوريان المستكبر وهي الآن تستجيب لصلاة دوريان المستغفر. لقد عبدتك من دون الله فنلت جزائي، ولقد عبدت نفسك من دون الله فنلت جزاءك. فلنصلِّ معًا يا دوريان.

فالتفت دوريان جراي إليه في بطء والدموع تنهمر من عينيه وقال:

ـ لقد فات الأوان يا بازيل.

ـ كلا يا دوريان، إن باب السماء مفتوح للطارقين. فلنسجد ولنحاول أن نرتجل صلاة إذا كنا نسينا الصلوات. ألا تذكر ترنيمة تقول: «خطاياك حمراء بلون الدماء ولكني سأجعلها بيضاء بلون الثلوج؟».

ـ هذه الكلمات لم تعد عندي ذات مغزى.

ـ صمتًا! لا تكفر، وكفاك ما ارتكبت في حياتك من آثام. رباه! ألا ترى ذلك الوحش اللعين ينظر إلينا في شماتة.

والتفت دوريان جراي إلى الصورة وفجأة تحرّكت في صدره كراهية لبازيل هولوورد قوية لا سبيل إلى كبتها، وكأنما استوحاها من مرأى صورته على اللوحة، أو همست بها في أذنه تلكما الشفتان الحاقدتان، وتحرك فيه إحساس كإحساس الحيوان المطارد، واضطرب في قلبه بغض جهنمي للرجل الجالس بجوار المائدة، بغض لم يحمله لأحد قبل. وتلفَّت حوله مهتاجًا فرأى شيئًا يلمع فوق الصندوق المدهون القائم

قبالته، ولما استقر بصره عليه عرفه، فإذا به مدية كان قد جاء بها من قبل ليقطع بها حبلًا ثم نسيها في موضعها، وتقدم منها على مهل وهولوورد جالس في منتصف الطريق، فلما وجد نفسه خلف هولوورد أمسك بالمدية ودب إليه، وأبصر به يتململ في كرسيه كأنه يريد أن ينهض، فانقض عليه وغرس المدية في عنقه فمزق الوريد الجاري تحت الأذن، وتحامل على رأسه حتى ارتطمت بالمائدة، وانهال عليه طعنًا.

وصعدت في الغرفة أَنَّة مكتومة ثم صوت رجل يختنق بدمه. وارتفع ذراعا الرجل ثلاث مرات بقوة عصبية وتحركت أصابعه الجامدة في الهواء فطعنه مثنى، فكف عن الحراك، وبدأ يسمع قطرات الدم تتساقط على أرض الغرفة. وانتظر لحظات ضاغطًا بيده على رأس فريسته ثم ألقى المدية على المائدة وأرهف أذنيه.

لكنه لم يسمع شيئًا إلا صوت القطرات المتساقطة على البساط. ففتح الباب وخرج إلى أعلى السلم، فوجد البيت ساكنًا كأنه قبر موحش، ولم يكن به أحد. ومرَّت ثوانٍ ظل أثناءها يحملق في بئر الظلمات متكئًا على مسند السلم. ثم استخرج المفتاح من جيبه وعاد إلى الغرفة وأغلق الباب وأحدب الظهر ووجد الجثة لا تزال جالسة على المقعد وقد انكفأ منها الرأس على المائدة وتهدل الذراعان الطويلان. ولولا فتحة حمراء غير منتظمة في العنق وبركة من الدم المتجمِّد على المائدة تتسع قليلًا قليلًا لبدا الرجل وكأنه يستغرق في نوم عميق.

لقد تمت الجريمة في دقائق، وأحسَّ بهدوء عجيب ومضى إلى النافذة وفتحها وخرج منها إلى الشرفة. وكانت الريح قد اكتسحت ضباب الليل فبدت السماء صافية كذيل طاووس هائل عجيب مزدانة بألف ألف عين ذهبية وأطل في الشارع فوجد الشرطي يعسُّ في تطوافه ويسلط نور مصباحه على أبواب المنازل الهادئة. وفي منعطف الشارع رأى عربة ذات ضجيج لمعت في الظلام كالبقعة القرمزية ثم توارت عن بصره.

كذلك رأى امرأة على رأسها شال يرفرف في الهواء تمشي الهوينا بجوار أسوار المنازل وكأنها تترنح، وبين وقت وآخر تتوقّف عن المسير وتلتفت إلى الوراء. وسمعها تبدأ الغناء بصوت قبيح أجش وأبصر الشرطي يتقدّم نحوها ويقول شيئًا ثم رآها تتعثّر بعيدًا عنه وتقهقه. وهبّت في الميدان ريح صرصر باردة فاضطربت مصابيح الشارع وأضحت زرقاء اللهب واهتزت فروع الأشجار الجرداء وبدت كقضبان الحديد الأسود. وارتجف دوريان جراي وعاد من حيث جاء وأغلق النافذة وراءه.

بلغ الباب، وأدار فيه المفتاح وفتحه. ولم يلقِ على القتيل نظرة لأنه وجد أن من الخير له ألا يفهم الموقف على حقيقته. واكتفى من كل ذلك بأن الصديق الذي رسم الصورة التي هدمت سعادته قد خرج من حياته نهائيًا.

ثم تذكّر المصباح، وعنّ له أن الخادم قد يفتقده فيبحث عنه فهو مصباح مراكشي ثمين صنع من فضة غبشاء اللون مطعّمة بنقوش عربية صنعت من الفولاذ اللامع ومرصّعة بقطع الفيروز الخشنة. وتردّد لحظة ثم عاد وأخذه من المائدة، وفيما هو يفعل ذلك وقع بصره على الجثة على الرغم منه. يا لهدوء الموتى! ثم تلكما اليدان الطويلتان البيضاوان ما كان أفظع شحوبهما! ما أشبه الجثة بتمثال من الشمع!

وبعد أن أغلق الباب وراءه نزل على السلم في احتراس ولكن الدرج الخشبي قعقع تحت قدميه فهُيئ له أن يستغيث. وتوقّف مرارًا عن السير وانتظر فلم يسمع شيئًا. كان كل شيء هادئًا ولم يسمع إلا وقع قدميه.

وحين دخل المكتبة رأى المعطف والحقيبة قابعين في ركنها. ولم يكن بد من إخفائهما ففتح كوة يسترها خشب الحائط، كوة كان يضع فيها أدوات تخفّيه ولا يعلم عنها أحد شيئًا، وفي الكوة وضع المعطف والحقيبة، حتى يجد متسعًا من الوقت ليوقد فيها نارًا. ثم أخرج ساعته فإذا بها الثانية إلا ثلثًا.

ارتاح على مقعد وبدأ يفكر. المشنقة! نعم، المشنقة! ففي كل عام بل في كل شهر من شهور السنة يُشنق في إنجلترا أناس لأنهم فعلوا فعلته. إن الجريمة تملأ جو إنجلترا، فلعل نجمًا أحمر اقترب من مسار الأرض فألهب في الناس الشهوة إلى الدماء. ومع ذلك فمم يخاف؟ أي دليل هنالك ضده؟ إن بازيل هولوورد خرج من دار دوريان جراي في الساعة الحادية عشرة، ولم يره أحد حين عاد إليه. فأغلب الخدم في سلبي وخادمه الخاص يغط في فراشه. ألم يقل بازيل إنه قاصد إلى باريس؟ نعم. إن بازيل قد رحل إلى باريس بقطار منتصف الليل، تمامًا كما أزمع أن يفعل. إن بازيل رجل غريب الأطوار لا يطلع أحدًا على كثير من شؤونه، فلن تستيقظ الشكوك قبل أن تمضي شهور. وقبل أن تمضي شهور لن يصعب عليه محو كل دليل.

ثم بلغت في خاطره فكرة فارتدى قبعته ومعطفه الذي تكسوه الفراء وانتقل إلى القاعة. وفي القاعة وقف حين سمع خطوات الشرطي الثقيلة البطيئة وهو يسير على إفريز الشارع ورأى شعاع مصباحه معكوسًا على زجاج النافذة فانتظر معلق الأنفاس.

وبعد لحظات أزاح المزلاج وخرج وأغلق الباب في رفق شديد. ثم شرع بدق الجرس، وبعد خمس دقائق فتح له الباب خادمه الخاص نعسان ناقص الملبس وقال وهو يدخل البيت:

ـ يؤسفني أني أيقظتك من نومك يا فرانسيس، ولكني نسيت المفتاح. كم الساعة الآن يا ترى؟

فنظر الرجل إلى ساعة الحائط مختلج الجفنين وقال:

ـ الساعة الثانية وعشر دقائق يا سيدي.

ـ الثانية وعشر دقائق! لقد تأخَّرت جدًا ولا بد أن توقظني غدًا في الساعة التاسعة لأن لدي بعض الأعمال.

ـ حسنًا يا سيدي.

ـ أجاءني أحد هذه الليلة؟

ـ نعم يا سيدي جاءك مستر هولوورد وانتظرك هنا حتى بلغت الساعة الحادية عشرة ثم انصرف ليلحق بقطاره.

ـ يؤسفني أني لم أره. وهل حمَّلك رسالة إليَّ؟

ـ كلا يا سيدي، لم يقل إلا أنه سيكتب إليك من باريس إنْ لم يجدك في النادي.

ـ شكرًا يا فرانسيس، ولا تنس أن توقظني غدًا في الساعة التاسعة.

ـ لن أنسى يا سيدي.

ومشى الرجل متثاقلًا في الدهليز يجر خفيه جرًا.

ووضع دوريان جراي قبعته ومعطفه على المائدة ودخل المكتبة. وظل يقطع أرض الغرفة جيئة وذهابًا نحو ربع ساعة، يفكر في أمره ويعض شفته بين لحظة وأخرى. ثم تناول «الدليل العام» من أحد الرفوف وبدأ يقلِّب صفحاته باحثًا عن عنوان. وأخيرًا وجده «ألان كامبل 152 شارع هرتفورد، ما يفير». نعم هذا هو الرجل المنشود.

الفصل الرابع عشر

في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي دخل عليه خادمه حاملًا صينية عليها فنجان من الكاكاو وفتح النافذة. وكان دوريان نائمًا على جانبه الأيمن يغمره هدوء الملائكة وقد طوى يده تحت خده فبدا كصبي أنهكه طول الدرس أو طول اللعب.

واضطر الخادم إلى أن يمسَّه على كتفه برفق ليوقظه، وحين فتح عينيه ارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة وكأنه يستمتع بحلم لذيذ ولكنه لم يحلم بشيء أثناء نومه بل قضى ليلة صافية لم تعكِّرها أطياف السبات جميلها أو رهيبها. إنما يبتسم الشباب بغير داع، وهذه آية من آيات سحره.

وتقلَّب في فراشه ثم اتكأ على مرفقه وشرع يشرب فنجان الكاكاو وشمس نوڤمبر تدفَّقت أشعتها الرقيقة في الغرفة، والسماء كانت ضحوكًا وفي الجو دفء لذيذ، والبِشْر يملأ الآفاق فيعيد ذكرى الربيع.

ثم عادت إلى ذاكرته حوادث الليلة الماضية شيئًا فشيئًا، ومشت في خاطره بأقدام خضَّبتها الدماء لا يُسمع لها حفيف، فاسترجع كل ما جرى في وضوح مخيف وعبس حين ذكر ما مرَّ به من شقاء في الليلة السابقة وعاد إليه ذلك البغض الشديد نحو بازيل هولوورد، ذلك البغض الذي دفعه إلى الفتك به وهو جالس على المقعد، فشحب لونه من فرط الانفعال. فالرجل لا يزال جالسًا على المقعد بأعلى الدار بل وفي وضح

النهار، وقد كان خليقًا به أن يحتجب في رداء الظلمات، فما أبشع هذه الحقيقة.

وأحسَّ بأن التفكير المتصل في ما جرى لا بد متلف صحته أو مودٍ بعقله. لقد دَلَّه اختباره على أن من الجرائم ما ترتاح النفس لذكراه أكثر مما ترتاح لإتيانه، ويرضي الغرور أكثر مما يرضي الشهوات، ويسعد به العقل أكثر مما تسعد به الحواس. ولكن هذه الجريمة لم تكن من تلك الجرائم. هذه الجريمة كابوس لا مناص من إبعاده عن مسكن الذكريات، هذه الجريمة شبح مزعج قائم لا بد أن ينام نومًا أكيدًا أو يُخنق بحبل النسيان وإلا خنق صاحبه.

ودقت الساعة التاسعة والنصف ومرَّ بأصابعه على جبينه ثم نهض مسرعًا وارتدى ملابسه بعناية فائقة تجاوزت كل ما عُهد فيه من عناية، وأضاع الوقت الطويل في اختيار ربطة عنقه والدبوس الذي يحلّي به صدره، وبدَّل خواتمه مرارًا. ثم تناول فطوره وقضى في ذلك الوقت الطويل متذوِّقًا الصحاف، متحدِّثًا إلى خادمه في إطناب عن حُلل الخدم الجديدة التي كان يفكر في شرائها لخَدَمه في سلبي، قارئًا رسائل اليوم آنًا في ضجر وآنًا في متعة. وكانت بينها رسالة تلاها جملة مرات ثم مزَّقها في شيء من الغيظ وهو يردد كلمة اللورد هنري «يا للرجل من ذاكرة المرأة!».

وبعد أن شرب فنجانًا من القهوة التركية مسح شفتيه في الفوطة بتؤدة وأشار إلى خادمه بالانتظار ثم تحوَّل إلى مكتبه وسَطّر خطابين وضع أحدهما في جيبه وسلم الآخر للخادم قائلًا:

ـ احمل هذا الخطاب إلى 152 شارع هرتفورد يا فرانسيس، فإن وجدت أن مستر كامبل قد غادر لندن فاحصل على عنوانه.

وانصرف الخادم فبقي في الغرفة وحيدًا، وأشعل سيجارة وذهب يخطِّط الرسوم على قطعة من الورق فبدأ أولًا برسم الأزهار ثم انتقل إلى

رسم قطاعات من العمائر ثم انتقل إلى رسم الوجوه الآدمية. وفجأة لاحظ أن كل وجه يخططه على الورق يحمل شبهًا قويا لملامح بازيل هولوورد، فتجهَّم وجهه ونهض من مكانه وسعى إلى حمالة الكتب وانتزع منها كتابًا على غير تحديد. لقد كان صادق العزم على أن ينسى ما حدث حتى تلزمه الضرورة القصوى بتذكره ولما تمدَّد على الأريكة نظر إلى عنوان الكتاب فإذا به كتاب تيوڤيل جوتييه «إمو وكاميه» في طبعة شرپانتييه على ورق ياباني وعليه رسوم چاكمار، وكانت جلدة الكتاب خضراء ليمونية عليها تصميم من خطوط ذهبية متقاطعة ورمان منقوط، وكان الكتاب هدية أهداها إليه آدريان سنجلتون. وفيما هو يقلب صفحاته وقعت عينه على القصيدة التي تصف يد لاسنير، تلك اليد الباردة الشاحبة «ذات الآلام التي لم تغسل بعد»، ذات الشعر الأحمر الناعم كالرياش و«أصابع الوحوش» ونظر إلى أصابعه الدقيقة البيضاء فارتجف بالرغم منه، وما زال يطالع حتى بلغ هذه الفقرات الجميلة التي تصف مدينة البندقية.

«خرجت زهراء الأدرياتيك من الماء بيضاء الجسد وردية ومن ثدييها تساقط الدر على بساط تدرَّجت فيه الألوان تدرُّج الأنغام في السلم الموسيقي».

«والقباب ارتفعت كصدر حسناء ناهد تتنهد حسرة على غرامها، ارتفعت القباب على الأمواج اللازوردية التي ترجرج في لين كأنها بيت شعر بديع التكوين».

«ورسا بي الجندول وشدَّه الملَّاح بالحبل إلى العمود فوجدت نفسي على الدرج الرخامي أمام واجهة قصر وردي».

واضطربت نفسه لجمال هذه السطور. وأحس وهو يقرؤها أنه طاف على وجه المياه الخضراء في قنوات تلك المدينة الدرية الوردية يحمله جندول أسود ذو مقدمة فضية وأستار ترفرف في مهب النسيم. وترجرجت أمام عينيه السطور ذاتها فبدت له كالأمواج الفيروزية الزرقاء

التي تتسلسل وراءه حين يسبح في جندوله إلى قصر الليدو. والألوان فيها تلمع أمام ناظريه فتذكره ببريق الطيور ذات الرقاب الصفراء التي ترفرف بالقرب من برج الكامپانيل العالي الذي يشبه خلايا النحل، أو تخطر في خيلاء تطرب لها النفوس في الشوارع المقبية المظلمة التي حط عليها غبار القرون. وكان يغوص في مكانه من الأريكة ويرخي جفنيه ويردِّد قول الشاعر:

على الدرج الرخامي أمام واجهة قصر وردي

فترتسم أمامه صورة البندقية في هذين البيتين. وتذكر الخريف الذي قضاه في تلك المدينة والغرام الجميل الذي ذاقه في مغانيها فدفعه إلى ارتكاب الحماقات اللذيذة التي لا يقدم عليها إلا المجانين. لقد قرأ في كل حجر من أحجار المدينة قصة وكل ما فيها أثار خياله، ولكن البندقيةكأكسفورد تحفظ الأحلام للباحثين عن الأحلام، وأهل الأحلام يعيشون على الحلم المستور وللحلم المستور. لقد رافقه بازيل شطرًا من الرحلة وفتنه جمال تنتوريت. فياله من رجل تاعس ويالميتته من ميتة شنعاء!

وتنهَّد وفتح الكتاب مرة أخرى والتمس النسيان في المطالعة. وفي الكتاب قرأ عن مقهى صغير بأزمير فيه طيور تخرج منه وتدخل فيه في غير حرج والحجاج جالسون يعدون أسماء الله الحسنى على مسابحهم، والتجار ذوو العمائم يدخنون الشيشة ويتحادثون في وقار وقرأ عن المسلة القائمة بميدان الكونكورد بباريس وهي تبكي بدموع من الجرانيت تندب وحدتها في منفاها الدائم الغيوم وتحن إلى ضفاف النيل القائظ الذي غطته أزهار اللوتس، حيث تماثيل أبي الهول وعجول آبيس الحمراء والنسور البيضاء ذات المخالب الذهبية والتماسيح ذات العيون الصغيرة الزبرجدية التي تزحف فوق الطين الأخضر المتبخِّر. وطفق يفكر في قريض جوتييه الذي شبَّه فيه الشاعر تمثالًا من التماثيل رآه بقاعة

في متحف اللوفر بالصوت الكونترالتو[1] واستوحى رخامه الذي لطخته القبل. ولكن الكتاب سقط من يده أخيرًا وبدأ يتَمَلْمَل تمَلْمُل من فقد السيطرة على أعصابه ثم غمره إحساس بالفزع الشديد. ترى ماذا يكون مصيره لو أن آلان كامبل كان خارج إنجلترا؟ ستمضي إذًا الأيام الطوال قبل أن يتمكَّن من العودة إليها. ثم أليس من الجائز أن يرفض الرجوع؟ ماذا تراه يفعل لو أن آلان كامبل رفض أن يستجيب لدعوته؟ إن كل ثانية تمر تدق في سمعه كناقوس القدر. إن آلان كامبل كان حقًا صديقه الأوفى الذي لازمه منذ خمس سنوات ثم فترت الصلة بينهما فجأة. وهما الآن يلتقيان في الأندية والحفلات فلا يتبادلان الحديث. حقًا أن دوريان يحييه بابتسامة كلما رآه ولكن آلان كامبل لا يرد له تحيته.

كان آلان كامبل شابًا ذكي الفؤاد ولكنه خلا من كل إحساس بجمال الفنون التصويرية والقليل الذي اكتسبه من تذوق الشعر جاءه من دوريان جراي لا من سواه. أما فضوله العقلي فكان يتجه نحو العلم، وقد قضى الشطر الأكبر من وقته أيام الطلب في كامبريدج في المعمل ونجح بامتياز في التاريخ الطبيعي. ولكن ميله الشديد إلى الكيمياء لم ينتهِ بانتهاء فترة الدراسة بل لازمه بعد ذلك فأنشأ معملًا خاصًا به في لندن كان ينقطع فيه للبحث طول النهار مما أحنق أمه عليه، فقد كانت تأمل أن يتقدَّم لعضوية البرلمان وتخجل من اهتمام ولدها بالكيمياء لظنها أن الكيميائي رجل يركب الأدوية التي يوصي بها الأطباء. كذلك كان آلان كامبل عازفًا من أمهر العازفين يتقن اللعب على البيانو والكمان على حد سواء ويبز في ذلك أكثر الهواة. ولقد كانت الموسيقى في الواقع هي التي ألَّفت بينه وبين دوريان جراي، وبالطبع كان لشخصية دوريان المغناطيسية أثر

(1) في الموسيقى الكلاسيكية، صوت نسائي يقع بين التينور والميزو-سوبرانو. يسمَّى أحيانًا (ألتو).

كبير في توطيد أركان هذه الصداقة. وكان لقاؤهما الأول في دار الليدي بيركشاير ليلة كان روبنشتاين يعزف في صالونها ثم باتا يترددان على دار الأوبرا معًا في كل مناسبة ويقصدان كل محفل تلتمس فيه الموسيقى الحية، ودامت صلتهما القوية هذه ثمانية عشر شهرًا كان كامبل إبانها يتردد بلا انقطاع على ميدان جروفنور حين يكون دوريان في لندن وعلى قصر سلبي حين يكون دوريان في الريف. أما شغف كامبل بدوريان جراي فقد كان عظيمًا لأنه كان يرى فيه النموذج الحي لكل ما هو جميل في الحياة، شأنه في ذلك شأن أنداده من الشبان. ثم لاحظ الناس فجأة أنهما يلتقيان فلا يتبادلان الحديث إلا نادرًا، كما لاحظوا أن كامبل يتعمد التبكير في الانصراف كلما وجد نفسه مع دوريان جراي في حفل واحد. ولم يعرف أحد سر هذه القطيعة. كذلك انتاب كامبل تغير يلفت الأنظار، فقدْ فقدَ الكثير من مرحه وبات يتململ كلما سمع الموسيقى كأنه لا يستسيغها ويرفض أن يعزف كلما طُلب إليه ذلك، معتذرًا بأن أبحاثه في المعمل قد شغلته عن مواصلة المران، وقد كان صادقًا في ما يقول. واشتد اهتمامه بعلم الحياة يومًا بعد يوم حتى لقد ظهر اسمه في أكثر من مناسبة في بعض الدوريات العلمية مقترنًا ببعض التجارب العجيبة التي كان يجريها.

هذا هو آلان كامبل الذي كان دوريان جراي ينتظر قدومه. وكان دوريان يرفع بصره إلى ساعة الحائط كل ثانية. ولما طال انتظاره ازداد جزعه، وأخيرًا نهض وذهب يقطع أرض الغرفة جيئة وذهابًا، كأنه حيوان جميل أسير. واتسعت خطواته ولم يعد لها دبيب وبردت يداه إلى درجة غير مألوفة.

وأصبح الانتظار لا يُطاق. وبدا له أن الزمن يزحف بأقدام من رصاص ثقيل وأحس بأن ريحًا هوجاء تدفع به إلى حافة هاوية مظلمة. وكأنه يعرف ما ينتظره في قاع الهوة من دمار أكيد، بل لقد رأى الدمار رؤية العين فاضطرب اضطرابًا عظيمًا وضغط بكلتا يديه على عينيه في غير

إشفاق كأنه يريد أن يمحو منهما الرؤيا. ولكن عبثًا كان ما حاول، فالرؤيا في عقله جاثمة وخياله المريض الذي نهشته الآلام تراقصت فيه الأشباح كأنها الدمى الممسوخة، وراحت تكايده من وراء أقنعتها الشيطانية. وفجأة أحس بأن الزمن يقف. أجل. أحس بأن هذا المخلوق الأعمى بطيء الأنفاس يكف عن الزحف. لقد مات الزمن، وبموته تسابقت في عقل دوريان جراي الأفكار وأخرجت له صورة مروعة للمستقبل كانت من قبل مستورة وراء الحجب، وعرضتها أمام عينيه عرضًا، وحملق فيها فجمد كأنه كتلة من صوان.

ولكن الباب انفتح أخيرًا، ودخل منه خادمه، فنظر إليه نظرة جامدة لا حياة فيها قال الخادم:

ـ مستر كامبل يا سيدي.

فتنفَّس دوريان في ارتياح وعاد الدم إلى شفتيه اليابستين وإلى خده الشاحب. قال:

ـ أدخله حالًا يا فرانسيس.

وعاد إليه هدوءه الأول وزال عنه الجزع.

وانحنى الرجل وانسحب وبعد لحظات دخل آلان كامبل عابسًا عليه اصفرار، وقد زاد شعره الفاحم وحاجباه الناعمان من شحوب لونه. قال كامبل:

ـ لقد كان عزمي ألا أدخل بيتك مرة أخرى يا جراي، ولكنك تقول إنها مسألة حياة أو موت.

وكان صوته جافًا ينم عن الاحتقار، وجاءت كلماته بطيئة خرجت في رَويّة. وألقى على دوريان نظرة فاحصة ثابتة فيها زراية. وظلت يداه مدفونتين في جيبيه، كأنه لم ير الإشارة التي حياه بها رب الدار.

ـ نعم يا آلان، إنها مسألة حياة أو موت وهي كذلك بالنسبة لأكثر من شخص واحد. هلّا جلست.

وجلس كامبل على مقعد بالقرب من المائدة وجلس دوريان قبالته. والتقت عيونهما. فقرأ كامبل في عيني دوريان معاني الألم الصادق، فقد كان يعلم أنه مقدم على فعلة رهيبة.

ومرت لحظة من الصمت الثقيل، وأخيرًا مال دوريان نحو كامبل وقال في هدوء بالغ متتبعًا أثر كلماته:

ـ اسمع يا آلان، في غرفة بأعلى هذا البيت مغلقة لا يدخلها أحد إلا أنا جثة رجل ميت جالسة على مقعد. وقد مات الرجل منذ عشر ساعات. الزم مكانك يا آلان ولا تنظر إليَّ هذه النظرة. أما هوية هذا الرجل ولِمَ مات وكيف مات فأمور لا شأن لك بها. وكل ما عليك أن تفعله هو أن...

ـ هذا يكفي يا جراي، فلست أريد أن أعرف بقية قصتك، وسواء أكان ما قلته صحيحًا أم كاذبًا فهو لا يهمني. فأنا أبغض أن يكون لي بك شأن، ولتحتفظ بأسرارك الجهنمية لنفسك فهي لم تعد تهمني الآن.

ـ بل هي تهمك يا آلان، وهذا السر بالذات يخصك. إني لأرثي لحالك ولكن لا بدَّ مما ليس منه بدٌّ، فأنت الشخص الوحيد الذي يستطيع أن ينقذني وهذا يلزمني بأن أشركك معي في هذا الأمر، ولا اختيار لي في ذلك. فأنت تدرس العلوم يا آلان وتعرف الكيمياء والأحماض وما شاكل ذلك، وقد أجريت التجارب المختلفة. وكل ما عليك أن تفعله هو أن تفني الجثة الموجودة بالطابق العلوي إفناء حتى لا يتبقًّى منها أثر. وليس هناك من رأى هذا الشخص يدخل بيتي، بل إن الناس يعتقدون أنه في باريس في هذه اللحظة، فلن يبحث أحد عنه إلا بعد أن تنقضي شهور، وحين يبدأ البحث عنه يجب ألا يكون في هذا البيت أثر من آثاره. ولا بد أن تحيله يا آلان إلى قبضة من رماد أذروها في الهواء، وتحيل معه متاعه كذلك.

ـ أنت مجنون يا دوريان.

ـ لقد كنت أنتظر اللحظة التي تسمِّيني فيها دوريان.

ـ أنت مجنون لأنك حسبت أني أتحرَّك لأنقذك من ورطتك، وأنت مجنون لأنك أدليت بهذا الاعتراف الشائن. أنا لا دخل لي بهذه المسألة أيًا كانت ظروفها. أوَ تحسب أني سأجازف بسمعتي من أجلك؟ ماذا يهمني من أعمالك الشيطانية؟

ـ إن الرجل قد انتحر يا آلان.

ـ هذا يخفف من المسألة. ولكن من ذا الذي دفعه إلى الانتحار؟ أنت بكل تأكيد.

ـ ألا تزال مصرًا على الرفض؟

ـ بالطبع. أنا لا شأن لي بشيء من هذا القبيل، ولن يثير اشفاقي أن تجر على نفسك كل ما في العالم من عار، فأنت أهل لذلك. لن يؤسفني أن يفتضح أمرك أمام جميع الناس فتسقط في نظر المجتمع. كيف تجسر على أن تسألني أن أقحم بنفسي في هذه الجريمة الشنعاء، وأنا آخر من يحق لك أن تطلب العون منه بعد ما أنزلت بي من خراب لقد كنت أحسب أنك تعلم ما يكفي عن طبائع الناس، ولعل صديقك اللورد هنري وتون علمك شيئًا كثيرًا ولكنه لم يعلمك بسائط النفس الإنسانية في ما علمك. كلا. لن يحرّكني شيء لإنقاذك من محنتك. فابحث عن غيري لأنك قد أسأت الاختيار دعني وشأني وابحث عن صديق من أصدقائك.

ـ إن الرجل مات مقتولًا يا آلان. قتلته أنا بيدي، قتلته لِما أنزل بي من شقاء، فهو الذي شكَّل لي كياني وأفسد عليَّ حياتي. إن أثر هاري المسكين فيَّ لا يُقاس بأثر هذا الرجل. ولعله لم يقصد سوءًا، ولكن النتيجة كانت واحدة.

ـ أنت قتلته! يا إلهي! أهذا ما صرت إليه يا دوريان؟ لن أبلغ أمرك إلى الشرطة فليس هذا من شأني. وهم لا شك قابضون عليك إذا لم أساعدك أنا، فما من أحد ارتكب جريمة إلا وارتكب معها حماقة تدل عليها. ولكن هذا لا يعنيني.

ـ بل هو يعنيك يا آلان. لحظة واحدة يا آلان. انتظر. اسمع ما أقول ثم احكم بنفسك كل ما أسألك أن تفعله هو أن تجري تجربة من تجاربك العلمية. أنت تعمل في المستشفيات وفي حجرات التشريح فلا يؤثر فيك ما تفعله من تقطيع وعبث بجثث الموتى. ولو أنك وجدت هذا الرجل طريحًا على مائدة في معمل أو في حجرة من حجرات التشريح المقبضة، وفي المائدة أحواض حفرت ليسيل فيها دمه الجاري لنظرت إلى هذا الرجل نظرك إلى موضوع لذيذ للتجربة، فلا تضطرب نفسك ولا يجول بخاطرك أنك تأتي أمرًا تلام عليه. بل على العكس من ذلك قد تشعر بأنك تسدي إلى النوع الإنساني خدمة جلّى أو أنك تضيف إلى التراث العلمي الذي يحرص عليه البشر كل هذا الحرص أو أنك ترضي فضولك العقلي أو أي شيء يدخل في حكم ذلك. وكل ما أطلبه إليك هو أن تقوم بهذا الذي تقوم به كل يوم. بل إن إفناء جثة لا يقاس في بشاعته بما ألفته من أعمال. واذكر أن وجود هذه الجثة هو الدليل الوحيد على إني قاتل هذا الرجل فإذا افتضح أمرها هلكت، وأمرها لا شك مفتضح إلا أن تساعدني يا آلان.

ـ ولكنك تنسى أني لا أرغب في مساعدتك. وأنا لا أكترث بك أو بقصتك أو بمصيرك، ولا علاقة لي أصلًا بهذا الموضوع.

ـ أضرع إليك يا آلان أن تساعدني. فكِّر في حرج مركزي. لقد كاد أن يصيبني إغماء من فرط هلعي قبل مجيئك بدقائق. ولقد تعرف معنى الهلع في يوم من الأيام لو أصابك بعض ما أصابني. ولكن دعنا من هذه الأفكار السوداء. دعنا من الهلع. ولتفكر في الأمر تفكيرك في تجربة علمية لا غير. وأنت لا تستقصي عن الأموات الذين تجري تجاربك عليهم، فلا تستقصِ الآن عن هذا الميت. لقد بحت لك بما كان لا ينبغي أن أبوح به. ولكني أضرع إليك أن تنقذني. وتذكَّر يا آلان أننا كنا في الماضي صديقين.

ـ لا تذكر تلك الأيام يا دوريان، فلقد ماتت.

ـ إن بعض الموتى باقون. فالرجل الميت بأعلى البيت باقٍ. وهو جالس بجوار المائدة محني الرأس ممدود الذراعين. أستحلفك يا آلان أن تساعدني، فلو لم تساعدني لكانت في ذلك نهايتي. المشنقة يا آلان. ألا تفهم؟ سوف أشنق جزاء ما فعلت.

ـ لست أرى ما يدعو لإطالة هذا المشهد فلنقصر القول. أنا أرفض رفضًا باتًا أن تكون لي صلة بهذه المسألة، وقد كان خبلًا منك أن تطلب هذا مني.

ـ أترفض.

ـ نعم.

ـ أضرع إليك يا آلان.

ـ لا تتعب نفسك.

وعادت إلى عيني دوريان جراي معاني الألم العميق، ومد يده وتناول قطعة من الورق وخط عليها بعض الكلمات ثم قرأها مرتين وطواها بعناية وأزاحها على المائدة حتى استقرت أمام آلان كامبل. ونهض من مكانه وسار إلى النافذة.

وأخذ كامبل يتأمَّله عاجبًا ثم تناول الورقة وقرأ ما فيها فشحب وجهه حتى أضحى يحاكي وجوه الأموات وتخاذل في مقعده، وأحس بدوار شديد وسمع قلبه يدق عنيفًا عاليًا كأنه يدق في صندوق فارغ.

ومرَّت دقائق من الصمت المروِّع ثم التفت إليه دوريان ومشى نحوه ووقف خلفه ووضع يده على كتفه وقال:

ـ يؤسفني أن أفعل ذلك يا آلان، ولكنك لم تترك لي فرصة للاختيار وها هو خطاب قد كتبته فعلًا وتستطيع أن تقرأ عنوانه بنفسك. فإذا أنت لم تساعدني وجدتني مضطرًا إلى إرساله، وأنت أدرى الناس بنتيجته. ولكنك ستساعدني، فمحال أن ترفض ذلك الآن. لقد كنت أود أن أعفيك

من كل ذلك ولكنك ألزمتني به إلزامًا، ومن الانصاف أن تشهد لي بذلك، وكنت أنت معي عنيدًا خشنًا جارحًا في القول، وما عاملني أحد قط معاملتك إياي، على الأقل ممن لا يزالون أحياء يرزقون، فاحتملت كل ذلك على مضض. والآن جاء دوري لأملي عليك شروطي.

فدفن كامبل وجهه في كفيه وارتجف.

ـ نعم يا آلان. الآن جاء دوري لأملي عليك شروطي، وأنت تعرف هذه الشروط، والأمر ليس فيه تعقيد. تشجع ولا تقتل نفسك بالحسرات فلا محيد عمَّا أنت قادم عليه، فاقدم عليه دون تفكير.

وصعدت من صدر كامبل أنَّة وأهتز من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. وسمع الساعة القائمة على سطح المدفأة تدق. فبدا له أن دقاتها تقسم الزمن إلى جزيئات من العذاب الذي لا سبيل إلى احتماله. وأحس كأنما حلقة حديدية قد احتوت رأسه وأخذت تضيق تدريجيًا، وهُيىء له أن الفضيحة التي يهدِّده دوريان جراي بها قد نزلت به فعلًا. أما اليد التي ارتاحت على كتفه فقد خال أنها يد من الرصاص تبهظ[1] كاهله وتوشك أن تسحقه سحقًا.

ـ والآن يا آلان، لا بد أن تصل إلى قرار سريع.

فأجاب كامبل بصورة آلية كأن الكلام يغير الحقائق:

ـ لا أستطيع أن أفعل ما تطلبه مني.

ـ بل لا بد أن تفعله، ولا خيار لك في ذلك. احزم أمرك ولا تضيع الوقت.

فتردَّد كامبل لحظة ثم قال:

ـ أفي الغرفة العليا نار؟

ـ نعم، فيها مدفأة بغاز الاستصباح والأسبستوس.

(1) تُثقل.

ـ سأذهب إذا إلى المعمل لإحضار بعض الأدوات التي تلزم للعملية.
ـ كلا يا آلان لن تبرح هذا المكان، فاكتب ما يلزمك من أشياء على ورقة، وسيذهب خادمي في عربة لإحضارها.

فكتب كامبل كلمة إلى مساعده وجفَّف الحبر، وتناول دوريان الرسالة وقرأها بامعان، ثم دق الجرس وناول الورقة لخادمه الخاص وسأله ألا يضيع وقتًا في إحضار محتويات الرسالة.

وما إن خرج الخادم وأقفل الباب وراءه حتى نهض كامبل في سرعة عصبية ومشى إلى المدفأة وكانت فرائصه ترتعد كأنه محموم. ومرت عشرون دقيقة كان الصمت فيها كاملًا لم تقطعه كلمة واحدة، وطنت في الغرفة ذبابة تسبح في كل مكان، وارتفعت دقات الساعات فخالها الرجلان ضربات مطرقة.

ودقَّت الساعة الواحد. والتفت كامبل إلى دوريان جراي فوجد الدموع تنهمر من عينيه. وتأمَّل وجهه الرقيق الحزين فوجد في رقته وحزنه ما أغضبه. قال كامبل:

ـ أنت مخلوق منحط، ما في ذلك شك.

فأجاب دوريان:

ـ صمتًا يا آلان. لقد أنقذت حياتي.

ـ وما قيمة حياتك؟ لقد تدهورت من سيىء إلى أسوأ حتى انتهى بك الأمر إلى الإجرام. وأنا إذ أقدم على هذه الفعلة التي تضطرني إليها اضطرارًا لا أفكر في إنقاذ حياتك.

فتنهَّد دوريان وقال:

ـ ليتك ترثي لحالي عُشر معشار ما أرثي لحالك.

وفيما هو يقول ذلك انصرف إلى التأمُّل في حديقة بيته. أما كامبل فلم يجب بشيء.

وبعد عشر دقائق طرق الخادم الباب ودخل حاملًا صندوقًا كبيراً

من خشب الموجنة يحوي العقاقير المطلوبة ولفَّة طويلة من الأسلاك المصنوعة من صلب وپلاتين وكلابتين من الحديد هيئتهما غريبة. وقال مخاطبًا كامبل:

ـ أأترك هذه الأشياء هنا يا سيدي.

فقال دوريان:

ـ نعم يا فرانسيس، ويؤسفني أني سأطلب منك شيئًا آخر. أتذكر اسم بائع الأزهار في رتشموند المتعهد بتوريد زهر الأوركيد إلى قصر سلبي.

ـ اسمه هاردن يا سيدي.

ـ نعم، هاردن. اذهب بلا توان إلى رتشموند وقابل هاردن شخصيًا وسله أن يرسل إلى سلبي ضعف الكمية التي يرسلها عادة وأن يقلل من عدد الأوركيد الأبيض بقدر المستطاع، بل إذا أمكن تجنب الأوركيد الأبيض تمامًا كان ذلك أنسب. إن اليوم صاف جميل يا فرانسيس ورتشموند حي أنيق ولولا علمي بأنك ستستمتع بالذهاب إليه لما أزعجتك بهذا الطلب.

ـ ليس في الأمر إزعاج يا سيدي. متى تريدني أن أعود؟

فنظر دوريان إلى كامبل وسأله في هدوء تام، فقد أكسبه وجود شخص ثالث بالغرفة شجاعة عظمى:

ـ كم ساعة ستستغرق التجربة يا آلان؟

فعبس كامبل وعض شفته وأجاب:

ـ نحو الخمس ساعات.

ـ إذا عدت في السابعة والنصف نكون قد فرغنا من التجربة. اسمع يافرانسيس. أعدّ لي ملابس السهرة واتركها في غرفتي. وبعد ذلك تستطيع أن تكون مطلق الحرية في المساء فلن أحتاج إليك لأني سأتعشَّى في الخارج هذه الليلة.

قال الرجل وهو ينصرف:

ـ شكرًا يا سيدي.

والتفت دوريان إلى آلان كامبل وقال يستعجله بلهجة الآمر الناهي مما جعل كامبل يحس بأنه آلة مسيرة:

ـ والآن يا آلان يجب أن نعجل بالعمل فالوقت ثمين. ما أثقل هذا الصندوق. سأحمله أنا أما أنت فلتحمل الأشياء الأخرى.

وخرج الرجلان من الغرفة معًا. ولما بلغا قمة السلم أخرج دوريان المفتاح من جيبه وأداره في الباب ثم توقَّف واعتراه الجزع واضطرب أيَّما اضطراب وقال متخاذلًا:

ـ أعتقد أني لن أقوى على الدخول يا آلان.

فقال كامبل ببرود:

ـ هذا لا يهمني، فلن أحتاج إليك.

وفتح دوريان الباب قليلًا، فرأى وجهه في الصورة تحت ضوء الشمس ينطق بالخبث والشهوة الصريحة ورأى الستار الممزق ملقى على الأرض أمام الصورة، فتذكَّر أنه في الليلة السابقة قد نسي للمرة الأولى في حياته أن يحجب اللوحة النكراء وكاد أن يندفع إليها لينشر عليها الستار ولكنه ارتدّ واجف القلب فزعًا.

لقد رأى على إحدى يديه في الصورة بقعة حمراء قبيحة المنظر تلمع كقطرات الدم البليل فمن أين للصورة هذه البقعة الحمراء؟ كأنما اللوحة قد نضحت دمًا! وأرعبه هذا أكثر مما قد يرعبه منظر الجثة الصامتة التي تنتظره داخل الحجرة مسترخية على المائدة لو أنه رآها. ورأى ظلها الممسوخ ملقى على البساط الملطَّخ بالدم فعرف أنها لا تزال في مكانها حيث تركها ليلة الأمس.

وملأ رئتيه بالهواء لعله يتشجع ودفع الباب قليلًا واندفع في الغرفة مغمض العينين يكاد لا يرى شيئًا، وانصرف بوجهه عن جثة القتيل جاهدًا ألا يراه، وانحنى ورفع الستار الملوَّن بالذهب والأرجوان ونشره

على الصورة فأخفاها.

ثم توقَّف لحظة وخشي أن تقع عيناه على الجثة إن هو حاول العودة. فذهب يتأمل الوشى المرسوم على الستار. كل ذلك وكامبل يدخل الصندوق الثقيل والأشياء الأخرى في جلبة مسموعة. وبدأ دوريان يفكر. ترى هل يعرف كامبل بازيل هولوورد؟ فرضًا هو يعرفه، ولكن كيف كانت صلته به. وأخيرًا سمع الصوت الجاف يقول له:

ـ والآن، فلتخرج.

فاستدار دوريان وخرج مسرعًا وفيما هو يفعل ذلك وقع بصره على وجه القتيل بعد أن رده كامبل إلى موضعه الطبيعي على المقعد، ورأى كامبل يتفرس في وجهه الأصفر اللامع. وفيما هو ينزل على السلم سمع صوت المفتاح يُدار في قفل الباب.

وبعد الساعة السابعة بفترة طويلة دخل كامبل المكتبة، وكان وجهه شاحبًا ولكنه كان مثالًا للهدوء. قال:

ـ لقد أنجزت ما طلبته مني والآن وداعًا، وأرجو ألا نلتقي مرة أخرى.

فقال دوريان في بساطة:

ـ أنت أنقذتني من موت محقق يا آلان، ولن أنسى لك هذا الصنيع.

وبعد أن خرج كامبل صعد دوريان إلى الغرفة العليا. فملأت أنفه رائحة قبيحة هي رائحة حامض النتريك. ولكنه لم يجد الجثة التي كانت جالسة بجوار المائدة.

الفصل الخامس عشر

في الساعة الثامنة والنصف من تلك الليلة كان خدم الليدي ناربورو يعلنون قدوم دوريان جراي وينحنون تحية له. وكان دوريان جراي آية في الأناقة، يحلي عروته بمجموعة من بنفسج پارما. وكانت عروق جبهته تدق دقًا متواصلًا وكانت نفسه شديدة الاضطراب ولكنه ظهر على سجيته الجميلة حين انحنى ليقبل يد ربة البيت ولم تخنه رشاقته المعهودة. فلعل الإنسان لا يحس بأنه على سجيته إلا حين يمثِّل دورًا. ومهما يكن من شيء فما من أحد رأى دوريان جراي في تلك الليلة كان يتوهَّم أنه مر بمأساة فاجعة دونها كبار المآسي. فتلك الأصابع الدقيقة ما كانت لتمسك مدية السفاح، وتلكما الشفتان الباسمتان ما كانتا لتدنسا اسم الله أو تكفرا بخيره العميم. ولقد روَّعه ما رآه في نفسه من هدوء في المظهر واتزان في السلوك ومرَّت به لحظة تمنًّى فيها لو يحيا بشخصية مزدوجة.

وكان الحفل صغيرًا يضم عددًا قليلًا من الناس دعتهم الليدي ناربورو على وجه السرعة، والليدي ناربورو امرأة نادرة الذكاء. عليها، بلغة اللورد هنري، بقايا قبح قديم، وقد كانت زوجة فضلى لسفير من سفرائنا الثقلاء، وبعد أن دفنت زوجها بما يقضي به الواجب في قبر من المرمر وضعت هي تصميمه بنفسها، وبعد أن زوَّجت بناتها لبعض الأثرياء المتقدِّمين

في السن، بعد أن فعلت هذا وذاك تفرَّغت للاستمتاع بالقصص الفرنسي وبالمطبخ الفرنسي وبالذكاء الفرنسي كلما وجدت إليه سبيلًا.

وكان دوريان من المقرَّبين إليها، وكانت تقول له في كل مناسبة إنها سعيدة الحظ لأنها لم تقابله وهي في شبابها. كانت تقول «لو أنني عرفتك في تلك الأيام يا صديقي دوريان لكان من المحقَّق أن أجن بحبك، ولكان من المحقَّق أن أفسد كل شيء في سبيلك. فمن حسن حظي أنك لم تكن قد جئت بعد إلى الوجود. ولكن الحياة في تلك الأيام لم تكن كالحياة في هذه الأيام، وهكذا ضاع شبابي دون أن أغازل رجلًا ولو على البعد فمن أين لي فرصة الحب؟ لقد كان زوجي اللورد ناربورو قصير النظر إلى درجة كبيرة وأي لذة تجدها امرأة في الزواج من رجل لا يرى شيئًا أصلًا. على أن هذا كان عيبه الوحيد».

لكن الضيوف كانوا ثقلاء إلى حد كبير. وقد شرحت لدوريان حقيقة الأمر فقالت من وراء مروحتها الزرية المهلهلة إن إحدى بناتها قد هبطت عليها فجأة بنية الإقامة واصطحبت معها زوجها مما زاد من ضيقها. ثم همست في أذنه قائلة: «اعتقد يا عزيزي أن هذه وحشية منها لا تغتفر. صحيح أني أهبط عليهما كل سنة وأقيم بينهما طول الصيف بعد عودتي من هومبرج، ولكن هذه مسألة أخرى، فسيدة عجوز مثلي تحتاج إلى تغيير الهواء من وقت إلى وقت، ثم إني أمنعهما من النوم المبكر، وهذه خدمة عظيمة أسديها لها. فأنت لا تستطيع أن تتصوَّر كم الحياة مملة عندهما. هي حياة ريفية بكل ما في الكلمة من معنى، فهما يستيقظان مبكرًا لكثرة الأعمال وهما ينامان مبكرًا لقلة الأفكار. وناحيتهما لم تحدث فيها فضيحة منذ عصر الملكة الياصابات[1]، ولهذا فهما ينامان بعد الظهر. سوف أنقذك يا دوريان من حديثهما الثقيل، فمكانك من المائدة بجانبي

(1) الياصابات، وهو اسم اليزابيث كما ورد في الإنجيل.

لتفتح نفسي بحديثك الشهي».

فرد عليها دوريان بمجاملة رقيقة وتلفَّت في أنحاء الغرفة فلم يجد إلا جمعًا من ثقلاء القوم. وكان بينهم شخصان لا يعرفهما أما الباقون فقد تبيَّن منهم إرنست هـارودن وهو كهل تافه من أولئك الكهول التافهين الذين يملأون نوادي لندن، ممن لا أعداء لهم ولكن أصدقاءهم يكرهونهم كرهًا تامًا، ثم الليدي ركستون وهي امرأة في السابعة والأربعين من عمرها مقوَّسة الأنف تتزين بلا حساب اجتهدت ما وسعها الاجتهاد أن تثير الغبار حول سمعتها ولكن أحزنها أن الناس لا يصدّقون ما يُقال عنها لفرط دمامتها، ثم مسز إرلين وهي امرأة لا قيمة لها كثيرة الجلبة، في كلامها لثغة جذابة وشعرها أحمر، ثم الليدي أليس تشاپمان ابنة الليدي ناربورو ربة البيت، وهي امرأة رثة الهيئة ملامحها من تلك الملامح الشائعة في بريطانيا، إن رأيتها مرة لم تذكرها بعد ذلك. ثم زوجها اللورد تشايمان وهو رجل أحمر الخدين أبيض السوالف يحسب أن الإفراط في التظرُّف يعوضه عن فقره الكامل في الأفكار.

وأحس دوريان بالندم على قبول الدعوة ثم رأى الليدي ناربورو تنظر إلى الساعة المذهبة القائمة على قمة المدفأة المكسوة بقطعة من القماش البنفسجي وسمعها تقول:

ـ أليس توحشًا من اللورد هنري أن يتأخَّر كل هذا التأخير: لقد أرسلت إليه دعوة هذا الصباح دون اتفاق سابق، ولكنه وعد أن يقبل جميع دعواته.

فلما عرف دوريان أن هاري قادم وجد في هذا العزاء الكافي، فلما أن سمع الباب يُفتح وصوته الرخيم الهادئ يرتفع بالاعتذار على طريقته الجذابة ونفاقه المتقن هدأ باله وزال ما به من الضيق.

ولكنه لم يأكل إلا قليلًا في العشاء. وجاءته الصحاف واحدة بعد أخرى دون أن يمسها. وأخذت الليدي ناربورو تعنِّفه على عزوفه هذا، ووصفت امتناعه عن الأكل بأنه إهانة لطاهيها «أدولف المسكين الذي اختار قائمة

الطعام خاصة لتناسب ذوق دوريان بالذات». أما اللورد هنري فقد كان ينظر إليه من وقت إلى آخر عاجبًا لصمته وشرود فكره. على حين كان رئيس الخدم يمر به في فترات متقطعة ويملأ كأسه بالشمپانيا فيشربها كالظمآن وما ارتوى بل زادته الخمر ظمأ إلى الخمر.

وأخيرًا قال اللورد هنري قرب انتهاء العشاء:

ـ ماذا دهاك الليلة يا دوريان؟ يبدو أنك متوعِّك المزاج تمامًا.

قالت الليدي ناربورو:

ـ أعتقد أنه عاشق، وهو يخشى أن يطلعنى على أمره فتثور في صدري الغيرة، وله العذر في ذلك، فأنا امرأة شديدة الغيرة.

فقال دوريان مبتسمًا:

ـ يا سيدتي الليدي ناربورو، أنا لم أذق الحب أسبوعًا كاملًا، أي منذ أن تركت مدام فيرول لندن.

فصاحت به السيدة العجوز قائلة:

ـ عجبًا لكم يا معشر الرجال، كيف تستطيعون أن تحبوا امرأة كهذه. هذا ما يحيرني فيكم.

قال اللورد هنري:

ـ السبب بسيط وهو أنها تتذكرك حين كنت تلبسين فساتين قصيرة يا ليدي ناربورو، فهي حلقة الوصل الوحيدة الباقية بيننا وبين فساتينك القصيرة.

ـ هذا غير صحيح فهي لا تستطيع أن تتذكر فساتيني القصيرة مطلقًا يا لورد هنري. أما أنا فأستطيع أن أتذكرها تمامًا حين كانت في ڤيينا منذ ثلاثين عامًا وقد كانت عندئذ تسرف في كشف صدرها.

قال اللورد هنري وهو يتناول زيتونة بأصابعه الطويلة:

ـ وهي لا تزال تسرف في كشف صدرها. وحين تهل علينا بفستان أنيق تبدو كطبعة فاخرة من قصة فرنسية تافهة. إنها لسيدة العجائب، وإني

لمعجب بها كل الإعجاب. فهي تستطيع مثلًا أن تحب أهلها إلى حد يلفت الأنظار. وحين مات زوجها الثالث اصفرَّ شعرها من فرط الحزن.

فصاح به دوريان قائلًا:

ـ هذا اجتراء منك يا هاري!

وضحكت ربة البيت وقالت:

ـ هذا تفسير ممتع، ولكن كيف تقول إن زوجها الثالث مات؟ أتعني أن السيد فيرول هو الرابع؟

ـ بالتأكيد يا ليدي ناربورو.

ـ هذا مستحيل.

ـ سلي مستر جراي إذًا، فهو من أقرب المقربين إليها.

ـ أصحيح ما يقوله اللورد هنري يا مستر جراي؟

فأجاب دوريان قائلًا:

ـ هذا ما أكدته لي بنفسها يا ليدي ناربورو، وقد سألتها إن كانت تحنط قلوب أزواجها وتعلقها في زنارها كما كانت تفعل مرغريت دي باڤار فأجابتني بالنفي لأن أزواجها لم تكن لهم قلوب.

ـ أربعة أزواج! يا لها من شهية عظيمة!

قال دوريان:

ـ بل يا لها من جرأة عظيمة! هذا ما أقوله لها دائمًا.

ـ إن جرأتها تتسع لكل شيء يا عزيزي. ولكن حدثني عن فيرول فأنا لم أرَه حتى هذه اللحظة.

قال اللورد هنري وهو يشرب بعض النبيذ:

ـ إن أزواج النساء الرائعات الحسن ينتمون عادة لطبقة المجرمين.

فضربته الليدي ناربورو بمروحتها وقالت:

ـ لا غرو أن يصفك كل من في العالم بأنك رجل شرير.

قال اللورد هنري متكلفًا الدهشة:

ـ ولكن أي عالم يصفني بهذا الوصف؟ إن علاقاتي مع هذا العالم على أحسن ما يرام، فلا بد أن يكون العالم الآخر.

فهزَّت السيدة العجوز رأسها وقالت:

ـ كل من أعرفهم يصفونك بأنك رجل شرير.

بدا الجد على وجه اللورد هنري لحظة أو لحظتين ثم قال:

ـ هذه خسَّة من الناس أن يغتابوا المرء بالحقائق الصادقة، وأنا أستنكرها.

ومال دوريان في مقعده إلى الأمام وقال:

ـ إن اللورد هنري لا رجاء في إصلاحه. ألا توافقين يا ليدي ناربورو؟

أجابت ربة البيت ضاحكة:

ـ ليته يبقى على حاله، ولكن إذا ظل الرجال يهيمون بمدام دي فيرول على هذا النحو المضحك فسوف أتزوج من جديد لأستفيد من ذوق العصر.

فقاطعها اللورد هنري قائلًا:

ـ كلا يا ليدي ناربورو، إن مثلكِ لا يتزوَّج مرتين، فأنتِ في سعادة تحميكِ من هذا الخطأ. إن المرأة تتزوج مرتين إذا كانت تمقت زوجها الأول، أما الرجل فيتزوج مرتين إذا كان يعبد زوجته الأولى. في الزواج تجرِّب النساء حظهن أما الرجال فيقامرون بحظهم.

قالت السيدة العجوز:

ـ إن زوجي لم يكن كاملًا.

فأجاب اللورد هنري:

ـ هذا من حسن حظه، فلو أنه كان كاملًا لضقتِ به يا سيدتي العزيزة. إن النساء يعشقننا لعيوبنا. فكلما زادت عيوبنا اغتفرن لنا أخطاءنا، حتى جريمة التفكير يغتفرنها. وأنا أخشى يا ليدي ناربورو أن تكفِّي عن دعوتي للعشاء بسبب ما قلت، ولكني ما قلت غير الحق.

ـ بالطبع أنت لم تقل غير الحق يا لورد هنري. ولو أننا معشر النساء لم نعشق فيكم عيوبكم فكيف يكون حالكم إذًا؟ لولا ذلك لما وجد رجل واحد امرأة تقبل أن تتزوجه. لولا ذلك لبقيتم جماعة من العزاب التعساء. ولكن هذا لن يغير من الأمر شيئًا، ففي هذه الأيام نجد أكثر المتزوجين يعيشون عيشة العزاب وأكثر العزاب يعيشون عيشة المتزوجين.

قال اللورد هنري:

ـ هذه نهاية القرن.

فأجابت ربة البيت:

ـ بل هذه نهاية العالم.

وتنهد دوريان جراي وقال:

ـ ليتها كانت نهاية العالم. إن الحياة قد خيبت أملي فيها.

فصاحت الليدي ناربورو وهي تلبس قفازها قائلة:

ـ لا تقل يا صديقي أنك قد أتيت على كل ما في الحياة من أسباب السعادة. فحين أسمع رجلًا يقول هذا الكلام أعرف أن الحياة قد أتت عليه. إن اللورد هنري رجل شرير وإني لأغبطه على ذلك أحيانًا. أما أنت فقد خلقت لتكون نموذجًا للخلق الجميل، ووجهك الجميل يدل على ذلك. دعني أبحث لك عن زوجة صالحة. ألا تعتقد يا لورد هنري أن مستر جراي قد بلغ سن الزواج؟

انحنى اللورد هنري بأدب وأجاب:

ـ هذا رأيي الثابت يا ليدي ناربورو، وطالما ذكرته له.

ـ إذًا فلنبدأ في البحث له عن زوجة تناسبه. سأحصر الليلة الفتيات اللاتي يصلحن لذلك بعناية وأعد له قائمة بأسمائهن.

فسألها دوريان قائلًا:

ـ وبأعمارهن كذلك يا ليدي ناربورو؟

ـ بطبيعة الحال، ولكن أعمارهن ستكون محرَّفة تحريفًا طفيفًا. ولا

داعي للعجلة فأنا أحب أن أتوسَّط له في زواج تصفه «المورننج پوست» بأنه زواج مناسب، كما أحب له ولزوجته أن يسعدا بهذا الزواج.

فقال اللورد هنري:

ـ إن الناس يكثرون من الكلام الفارغ في موضوع السعادة الزوجية. فالرجل يستطيع أن يسعد مع أي امرأة في العالم إن كان لا يحبها.

قالت السيدة العجوز وهي تدفع مقعدها إلى الوراء وتحني رأسها تحية لليدي ركستون:

ـ يا لك من ساخر قاس. لا بد أن تأتي للعشاء ثانية في المستقبل القريب فأنت خير دواء يزيل عني الصداع، بل أنت أنفع من الدواء المقوي الذي أوصاني به السير توماس آندروز، ولكن أشر عليَّ بمن تحب أن تقابلهم من الضيوف حتى يكون الحفل بهيجًا.

فأجاب:

ـ أحب أن أقابل من الرجال من لهم مستقبل ومن النساء من لهن ماضٍ. ولكن أخشى أن تقتصر حفلتك بهذا على النساء فقط.

فضحكت الليدي ناربورو ثم نهضت وهي تقول:

ـ هذا ما أخشاه أنا أيضًا.

ثم أضافت تعتذر عن تركها المائدة:

ـ عفوًا يا عزيزتي الليدي ركستون فقد حسبت أنك فرغت من التدخين.

ـ لا داعي للاعتذار يا ليدي ناربورو، فالواقع أني أدخن أكثر مما يجب، وقد قرَّرت أن أحدد الكمية التي أدخنها في المستقبل.

قال اللورد هنري:

ـ أرجو ألا تنفذي هذا القرار يا ليدي ركستون، فالاعتدال يقضي على بهجة الحياة. الاعتدال يذكِّرني بحياتنا اليومية أما الإفراط فيذكِّرني بالولائم والأعراس.

فنظرت إليه الليدي ركستون عاجبة وقالت وهي تنصرف:

ـ أرجوك أن تزورني ذات مساء يا لورد هنري لتشرح لي هذه النظرية.

وصاحت الليدي ناربورو وهي تقف بالباب:

ـ سنصعد نحن إلى الصالون العلوي ونترككم لتتحدثوا في السياسة وفي أعراض الناس، ولكن لا تطيلوا البقاء وإلا وجدتمونا في معركة شديدة.

فضحك الرجال. وانتقل مستر تشاپمان من نهاية المائدة إلى رأسها، وانتقل دوريان جراي إلى جوار اللورد هنري. وبدأ مستر تشاپمان يتكلَّم بصوت عال عما يحدث في مجلس العموم. وأخذه الحماس في الرد على معارضيه حتى أنساه آداب المناقشة. وأكثر من استعمال عبارة «أفكار نظرية» وهي الأفكار التي تخيف العقل البريطاني الضيق. ولم ينسَ أن يفوِّف أقواله بالتراكيب البلاغية. ولم ينسَ أن يضع العَلَم البريطاني على قمم التفكير الإنساني ولم ينسَ أن يسمِّي غباوة الشعب البريطاني الموروثة بالذوق العام، ويمتدحها، ويزعم أنها درع المجتمع الواقي.

وابتسم اللورد هنري حين سمع هذا الكلام ثم انصرف إلى دوريان وسأله:

ـ أتحسنت حالتك الآن يا دوريان؟ لقد بدا عليك الإعياء أثناء العشاء.

ـ أنا على خير ما يرام، وكل ما في الأمر أني متعب.

ـ لقد سحرت جميع الحاضرين في حفلة الأمس يا دوريان، والدوقة العجوز تحبك حبًا جمًا. وقد قالت لي إنها ستزورك في سلبي.

ـ نعم، وعدت بأن تأتي في العشرين من هذا الشهر.

ـ وهل سيزورك مونماوث كذلك.

ـ نعم يا هنري.

ـ إنه شخص ثقيل على نفسي، ثقيل على نفس الدوقة. ورأيي في الدوقة أنها نادرة الذكاء، بل إنها أذكى مما يجوز لامرأة أن تكون. ولكن

ينقصها ذلك السحر الذي يكمن في ضعف النساء. يقولون إن المعبودات ذاتها لها أقدام من الصلصال وأن الصلصال يصلها بالأرض مما يفسد ألوهيتها. ولكني أقول إن الصلصال يزيد من ألوهية المعبودات. وقدما الدوقة تفتن الناسكين ولكنها ليست من الصلصال بل من الصيني الأبيض إذا أحببت، وقد احترقتا بنيران الحياة، والنيران كما تعلم تقوِّي ما لا تستطيع أن تتلفه. إنها من صاحبات الاختبار الواسع.

فسأله دوريان قائلًا:

ـ هل مضى على زواجها فترة طويلة؟

ـ هي تقول إنه مرَّ على زواجها آباد. ولكني أقدِّر هذه الآباد بعشر سنوات لأن زوجها لم يرث اللقب إلا منذ عشر سنوات. وعشر سنوات في عشرة رجل كمونماوث لا بد تبدو آبادًا وآبادًا، فتقديرها لا يدهشني. ولكن حدثني عن ضيوفك الآخرين.

ـ سيكون بينهم آل ويلوبي واللورد رجبي وزوجته، والليدي ناربورو، وچفري كلاوستون وبقية الرهط الذي تعرفه. وكذلك دعوت اللورد جروتريان.

قال اللورد هنري:

ـ أنا أحب اللورد جروتريان وإن كان أكثر الناس لا يحبونه. فهو في نظري رجل جذاب وإذا كان من رذائله الإسراف في التزين فهو يكفر عن ذلك بالإسراف في الإطلاع. إنه نموذج للرجل العصري.

ـ لست واثقًا من أن ظروفه ستسمح له بقبول الدعوة، يا هاري، فقد يضطر إلى السفر مع أبيه إلى مونت كارلو.

قال اللورد هنري:

ـ ما أثقل الآباء يا دوريان! أرجوك أن تلح عليَّ في المجيء. ولكن خبِّرني يا دوريان، لقد تركتني في وقت مبكر ليلة الأمس، تركتني قبل الساعة الحادية عشرة، فماذا فعلت ببقية الليلة؟ أعدت إلى بيتك مباشرة؟

فنظر إليه دوريان نظرة سريعة وأجاب عابسًا:
ـ كلا، يا هاري، لم أعد إلى بيتي إلا قرب الساعة الثالثة.
ـ أذهبت إلى النادي؟
ـ نعم.
ولكنه عض شفته وصحَّح كلامه قائلًا:
ـ كلا. أقصد أني لم أذهب إلى النادي، بل تجوَّلت في الطرقات. لقد نسيت الآن ما فعلته ليلة الأمس. ما أشد فضولك يا هاري! إنك تحب دائمًا أن تعرف ما كنت أفعله وأنا أحب دائمًا أن أنسى ما كنت أفعله. لقد عدت إلى بيتي في الثانية والنصف بالضبط إذا كان تحديد الزمن يهمك. ثم تبيَّن لي أني قد نسيت المفتاح في البيت ففتح الباب لي خادمي. وإذا شئت أن تتحقق من صدق هذه الرواية فعليك به، سله كما تشتهي.
فقال اللورد هنري مظهرًا عدم الاكتراث:
ـ وما شأني بكل هذا؟ هيا بنا إلى الصالون يا دوريان. أشكرك يا مستر تشابمان، فلست أريد المزيد من النبيذ. لقد حدث لك حادث يا دوريان فقص عليَّ ما جرى. إنك هذه الليلة لست على عهدي بك.
ـ لا تهتم بأمري يا هنري. فأنا الآن منحرف المزاج شديد التهيج. وسأزورك غدًا أو بعد غد على أكثر تقدير. وأرجوك أن تعتذر عن انصرافي إلى الليدي ناربورو نيابة عني فأنا راجع إلى داري. نعم. لا بد أن أرجع إلى داري.
ـ حسنا يا دوريان. أرجو أن أراك غدًا في وقت الشاي، ولسوف تجد الدوقة عندي.
ـ سأبذل كل المستطاع يا هنري.
وانصرف. وفيما كانت عربته تخب به صوب بيته عاوده شعور الفزع الذي ظن أنه قد كبته في نفسه. فالأسئلة العارضة التي ألقاها عليه اللورد هنري قد افقدته السيطرة على أعصابه ولو إلى حين، وهو لا يزال بحاجة

إلى اتزان الأعصاب. ففي بيته أشياء قد تجره إلى المشنقة، ولا بد من القضاء عليها تمامًا. وكان مجرَّد التفكير في أنه سيمسها يقبض نفسه. ولكنه كان يعلم أنه لا مفر له من تدمير أمتعة بازيل هولوورد. فما أن دخل المكتبة وأقفل بابها بالمفتاح حتى فتح الكوة الخفية واستخرج منها معطف بازيل هولوورد وحقيبته وكانت في المدفأة نار مشبوبة فألقى فيه قطعة أخرى من الخشب ليذكها وامتلأت الغرفة برائحة الملابس المحترقة والجلد المحترق. ولم يفرغ من تدمير كل شيء إلا بعد ثلاثة أرباع الساعة. وبعد أن انتهى كل شيء أحس بدوار شديد وإعياء موجع. ثم أحرق بعض الطيوب المغربية في إناء نحاسي محروق وغسل يديه وجبهته في خل بارد معطر بالمسك.

وفجأة اضطرب قلبه ولمع في عينيه بريق غريب وانشأ يعض شفته السفلى بقوة عصبية. وكان بين النافذتين خزانة ضخمة من فلورنسا صنعت من أبنوس مطعم بالعاج وحجر أزرق كريم. وشخص بصره إلى الخزانة كأن بها قوة سحرية أو قوة رهيبة. كأن بها شيئًا تتوق نفسه إليه وتبغضه في آن واحد. وتلاحقت أنفاسه في سرعة وتملّكه نهم شديد. وأشعل سيجارة ثم قذفها بعيدًا عنه؛ وارتخى جفناه حتى كادت أهدابه الطويلة تمس خديه. ولكن بصره لم يتحول عن الخزانة. وأخيرًا نهض ومشى إليها وأدار فيها مفتاحًا ثم ضغط على زر خفي فبرز منها دُرْج مثلث الشكل قليلًا. وامتدت أصابعه إلى الدرج على غير وعي منه وغاصت فيه وأمسكت بشيء ما. أمسكت بصندوق صيني صغير دهانه أسود وذهبي دقيق الصنع جوانبه محلاة بخطوط تشبه الأمواج، وقد ركبت فيه خيوط من حرير تدلت منها بلورات مستديرة وأسلاك معدنية كأنها الشعر المضفور. وفتح الصندوق، فوجد بداخله معجونًا أخضر يلمع لمعان الشمع له رائحة نفاذة لا تستهلك.

وتردد بضع لحظات. وكانت على شفتيه ابتسامة ثابتة غريبة. ثم مشت

في أوصاله رعدة برغم الحرارة الخانقة التي تملأ الغرفة، وجمع أشتات قوته ونظر إلى الساعة فوجدها قرابة منتصف الليل. وأعاد الصندوق إلى مكانه وأغلق الخزانة، وآوى إلى غرفة النوم.

ودقت الساعة تؤذن بانتصاف الليل، وكان دوريان جراي قد استبدل ثياب السهرة بثياب أخرى عادية، ولف حول عنقه كوفية وانسل خارجًا من داره وفي بوند ستريت وجد عربة فاستوقفها وهمس في أذن الحوذي إلى المكان الذي يبغيه.

وهز الحوذي رأسه قائلًا:

ـ هذا مكان بعيد يا سيدي ولا أستطيع أن أحملك إليه.

فنفحه دوريان بجنيه وقال:

ـ أعدك بمثله أن أسرعت في الطريق.

فقال أجل:

ـ طبعا يا سيدي. سوف تبلغ المنزل في أقل من ساعة.

وبعد أن وضع أجره في جيبه لوى أعنة جياده، وركضت العربة في نهر التايمز.

الفصل السادس عشر

بدأت الأمطار الباردة تهطل وبدت مصابيح الشارع كالأشباح المخيفة بعد أن ابتلَّت بالماء واختنق نورها. وكانت الحانات لا تزال تغلق أبوابها وعند أبوابها تكاثر الناس في جماعات متفرِّقة وقد أخفى الظلام معالمهم. ومن بعض الحانات ارتفعت ضحكات مؤذية للسمع ومن حانات أخرى كان الكسارى يتشاجرون ويصرخون.

وفي العربة استلقى دوريان وقد جذب قبعته إلى الأمام حتى أوشكت أن تغطي عينيه، وطفق يتأمَّل المدينة العظيمة ومخازنها في أعجاز الليل وتذكر قول اللورد هنري له يوم لقائهما الأول: «إن سر الحياة هو شفاء النفس عن طريق الحواس، وشفاء الحواس عن طريق النفس». وتذكر أن هذا السر سره الذي جرَّبه المرة بعد المرة فلم يخيِّب ظنه. وها هو يجرِّبه من جديد في هذه الليلة ويجرِّبه في أوكار الأفيون حيث النسيان يُباع ويُشرى، ويجرِّبه في بؤر الفساد حيث تمحو ذنوب اليوم الصارخة ذنوب الماضي القديم.

وتدلَّى القمر الشاحب حتى كاد أن يمس قمم المنازل وبدا في السماء كالجمجمة الصفراء. وبين وقت آخر مرَّت غيمة هائلة لا شكل لها ولا حدود وحجبته عن الأرض. وكلما تقدَّمت العربة في المسير ضاقت الشوارع أمامها وقلت المصابيح وازدادت المدينة كآبة. وضلَّ الحوذي

طريقه مرة فاضطر إلى أن يعود ما يقرب من نصف ميل. وكلَّما خاض الجواد في المياه المتخلِّفة من الأمطار ارتفع من حوله رشاش يشبه البخار. أما نوافذ العربة فقد اكتست بالضباب الأغبر.

وتردَّدت عبارة اللورد هنري في أذنيه طوال الطريق. أجل، شفاء النفس عن طريق الحواس، وشفاء الحواس عن طريق النفس. وهذه روحه مريضة تدب فيها المنية، وكيف تُشفي روحه الحواس وقد سفك الدم البريء؟ وأي كفَّارة تغسل عنه هذا الذنب العظيم؟ لا كفَّارة؟ فمثل هذا الذنب لا تغسله أنهار الدموع. ولكن إذا عزَّ الغفران فالنسيان لا يزال مفتوحًا سبيله، وقد وطَّد العزم على أن ينسى، على أن يسحق غصَّة الألم في نفسه كما يسحق الأفعى بعد أن لدغته. فبأي حق استحل بازيل لنفسه أن يقف منه موقف المعنِّف؟ ومن ذا الذي أقامه في الناس قاضيًا؟ إن بازيل قد فاه بعبارات مفزعة، عبارات لا تُحتمل.

والعربة في ركضها دائبة، وخُيِّل إليه أنها تقلِّل من سرعتها في كل شبر تجتازه. فرفع الكبود وهتف بالحوذي أن يلهب جواده بالسوط. وبدأ شوقه إلى الأفيون يأكله أكلًا والتهب حلقه وانقبضت يداه الدقيقتان بحركة عصبية. وضرب الجواد بعصاه كالمجنون وضحك الحوذي وضرب الجواد بسوطه فضحك دوريان جراي. وتلا ذلك صمت.

وأحس بأن الطريق لا ينتهي، وبدت له الشوارع المظلمة المتشعِّبة كأنها نسيج عنكبوت وضاق بالرحلة المملة، ورأى الضباب يتكاثف من حول فأحس بالخوف.

ثم مرَّ بخلوات يُصنع فيها الطوب وفي هذه الخلوات كان الضباب أقل كثافة منه في المدينة واستطاع أن يرى محارق الطوب التي تشبه الزجاجات في هيئتها وأبصر ألسنة اللهب البرتقالية تصعد منها في صورة مروحة من النار. وسمع في طريقه كلبًا ينبح، وسمع طائرًا بحريًا تائهًا يصرخ على البعد. وكبا الجواد في حفرة فانثنى ثم أسرع في الركض.

وبعد قليل خرجت العربة من الطريق الريفي وبدأت عجلاتها تجلجل على طريق معبد خشن. وكانت أكثر النوافذ مظلمة، ولكن من وقت إلى آخر انبعث النور من غرفة مضاءة وظهرت على ستائرها أشباح عجيبة. وطفق دوريان جراي يتأمّل هذه الأشباح في فضول فوجدها تتحرَّك كدمى الأراجوز وتشير بأيديها كما يشير الأحياء. وانقبضت نفسه لِما رأى وامتلأ قلبه بغضب مكتوم. ودارت العربة في منعطف فسمع امرأة تصرخ به من مكانه في أحد الأبواب ورأى رجلين يعدوان وراء العربة نحو مائة ياردة ولكن الحوذي أعمل سوطه فيهما.

يقولون إن الانفعال يجعل العقل يفكِّر بطريقة دائرية، وهذا ما حدث لدوريان جراي وهو يعض شفته ويكرِّر قول اللورد هنري ويستخرج منه المعاني الدقيقة، حتى وجد في نظرية استشفاء الروح بالحواس خير معبِّر عن حالته وخير مبرِّر لما هو مقدم عليه، ولو لم يجد المعبِّر أو المبرِّر لما غيَّر هذا من أمره شيئًا. وانتقلت هذه الفكرة بين خلايا مخه واحدة إثر واحدة وطردت من رأسه كل ما عداها. وشحذت أعصابه المضطربة وألياف جسده الراجفة رغبة عارمة في الحياة، وإرادة الحياة في الإنسان تكتسح أمامها كل إرادة. وبدأ يتذوق القبح لأنه يقترب بالإنسان من الواقع بعد أن كان ينكر القبح لأنه يقترب بالإنسان من الواقع. بل وجد أن القبح هو الحقيقة الوحيدة في الحياة. فالألفاظ النابية التي يسمعها في كل شجار، والبؤر النكراء، وفظاظة الحياة المضطربة وقسوتها، وخسة اللصوص وضعة الأوباش والمنبوذين، كل هذه بدت له أصدق تعبيرًا عن الحياة الواقعية من النماذج الجميلة التي يختلقها الفن اختلاقًا والظلال الحالمة التي تملأ قريض الشعراء. وإذا كانت الحقيقة مُرّة شائهة فهو بحاجة إلى مرارتها وجوهرها الشائه فهما تلهمانه النسيان. فلينزل إلى الدرك السافل وبعد أيام ثلاثة سوف تبرأ روحه من جراحها.

ثم توقَّف الحوذي فجأة عند بداية زقاق مظلم فارتجّت العربة. ورأى

دوريان جراي صواري السفن ترتفع سوداء من وراء سطوح المنازل الصغيرة ومن وراء مداخنها، في الميناء، رأى قطع الضباب الأبيض تحوِّم في كل مكان كأنها قلوع خرافية. وسمع الحوذي يسأله بصوت أجش:

ـ العنوان في هذه المنطقة. أليس كذلك؟

وتنبَّه دوريان وبدأ يتلفَّت حوله ثم أجاب:

ـ هذا يكفي.

وخرج من العربة مسرعًا ونقد الحوذي بما وعده به من مال ثم سار مستعجلًا في اتجاه رصيف الميناء. وكانت المصابيح تلمع هنا وهناك في مقدمة السفن التجارية الضخمة. واهتزَّ النور وتفتَّت في الماء المتخلِّف من المطر وجاء ضوء أحمر من باخرة خارجة من الميناء كانت تتزود بنصيبها من الفحم. أما إفريز الشارع المغطَّى بالأوحال فبدا كمعطف من الجلد المبتل.

وانعطف إلى اليسار وأسرع في المسير وكان يلتفت إلى الوراء بين لحظة وأخرى ليرى من يقتفي أثره فلم يجد أحدًا. وبعد سبع دقائق أو تزيد بلغ بيتًا حقيرًا محشورًا بين مصنعين ضيقين. ورأى مصباحًا منيرًا في إحدى النوافذ العليا، فتوقَّف ثم طرق الباب طرقًا غير مألوف.

وبعد وقت قصير سمع دبيب أقدام في الدهليز، وسمع سلسلة الباب تُرفع، وانفتح الباب بهدوء فدخل دون أن يقول شيئًا للشخص الممسوخ القصير القامة الذي فتح له الباب ثم توارى في الظلام. وفي نهاية القاعة تدلَّى ستار أخضر مهلهل أخذ يتأرجح يمنة ويسرة أمام الريح التي اقتحمت الباب أثناء دخوله. وجذب الستار ثم دخل في غرفة مستطيلة منخفضة السقف لعلها كانت في يوم من الأيام قاعة رقص من الدرجة الثالثة. واصطفت على جدران الغرفة مصابيح الغاز الموقدة التي تئز أزيزًا عاليًا وقد طمست نورها وشوَّهته المرايا القذرة المصطفة قبالتها. ومن خلف المصابيح كانت هناك ألواح من الصفيح المضلّع تعكس أنوارها في

هيئة أقراص من النور المرتجف. وكانت الأرض مغطاة بنشارة الخشب الصفراء معجونة في مواضع عدة بأوحال الشارع التي حملتها أقدام الداخلين وملطخة في مواضع أخرى بآثار النبيذ المسكوب. وبالقرب من المدفأة قعد على الأرض رجال أصلهم من الملايو وذهبوا يلعبون بقطع من عظم على حين ظهرت أسنانهم بيضاء ناصعة أثناء الحديث. وفي ركن الغرفة رقد بَحّار على مائدة وعند البار الطويل الذي شغل جانبًا كاملًا من جوانب الغرفة وقفت امرأتان شاحبتا الوجه تتهكمان بشيخ كان ينظف كُمَّيه في امتعاض واضح. وفيما كان دوريان يمرّ بهما سمع إحداهما تقول ضاحكة: «إنه يتصور أن النمل قد ملأ كميه». ورأى الشيخ ينظر إليها فزعًا ثم يزمجر.

وكان في نهاية الغرفة سلم صغير. وكان السلم الصغير يفضي إلى غرفة مظلمة. وفيما كان دوريان يقفز على درجات السلم الثلاث المتهافتة صعدت في أنفه رائحة الأفيون القوية، فملأ رئتيه منها واختلج أنفه انشراحًا. ودخل فوجد بالغرفة شابًا أصفر الشعر ناعمه قد انحنى فوق مصباح ليوقد منه بيبته. ونظر الشاب إليه ثم أومأ إليه بعد تردُّد. قال دوريان:

ـ لم أكن أتصور أنك هنا يا آدريان.

فأجاب الشاب في فتور:

ـ وهل بقي لي غير هذا المكان؟ إن جميع أصدقائي قد أنكروني.

ـ كنت أحسب أنك خرجت من إنجلترا.

ـ لم أجد داعيًا لذلك لأن دارلنجتون لن يرفع الأمر إلى القضاء، فقد سدَّد أخي چورچ قيمة الصك، وهو الآن يقاطعني، ولكني لا أكترث، فما بي حاجة إلى الأصدقاء طالما أنا أحصل على هذا الجوهر السحري ناسخ الأحزان. ثم إني أعتقد أني أسرفت في اختيار الأصدقاء.

وعبس دوريان حين سمع هذا الكلام وتلفَّت حوله ليتأمل الأجسام

الزرية المستلقية على المراتب الممزقة في أوضاع عجيبة. فرأى السيقان المنتفخة والأفواه المفغورة والعيون المنطفئة الشاخصة وسحره مرآها. فقد كان يعلم ما يشقون به من أحلام ذهبية وما يسعدون به من نيران الجحيم. وخيل إليه أنهم أسعد منه حالًا فهو البائس الذي يستهلك مهجته وتذهب نفسه حسرات، وهو التاعس الحبيس في سجن الذكريات. الذكريات؟ نعم. الذكريات ذكرياته التي تلتهم روحه كالمرض الخبيث. لقد رأى عيني بازيل هولوورد تحملقان فيه مرارًا: وهو بحاجة إلى النسيان. ولكنه أحس بأنه لا يستطيع البقاء في ذلك المكان، لأن وجود آدريان سنجلتون قد أزعجه وهو يرغب في أن يكون في مكان لا يعرفه فيه إنسان. وأراد أن يتخلَّص منه فقال بعد صمت قليل:

ـ إني ذاهب إلى المكان الآخر.

ـ عند رصيف الميناء؟

ـ نعم.

ـ سوف تجد هناك البغي المجنونة، ما في ذلك ريب، فقد طردوها من هذا المكان.

قال دوريان في استخفاف:

ـ إن نفسي زهدت النساء اللائي يعشقنني فليت لي نساء يكرهنني. ومن ناحية أخرى أجد أن البضاعة هناك أجود نوعًا.

ـ لا أعتقد أن هناك فرقًا.

ـ أنا أفضلها على أية حال. تعال واشرب معي كأسًا فأنا بحاجة إلى الشراب.

قال الشاب:

ـ لست أرغب في شيء.

ـ سواء عليَّ.

ونهض آدريان سنجلتون في إعياء وتبع دوريان إلى البار. وفي البار

حياهما منبوذ من منبوذي الهنود على رأسه عمامة مهلهلة وعلى كتفيه معطف واسع، حياهما تحية خير منها السكوت ووضع أمامهما زجاجة من الكونياك وقدحين. وانتحت المرأتان مكانًا جانبيًا وبدأتا تثرثران وأولاهما دوريان ظهره وهمس في أذن آدريان سنجلتون ببعض الكلمات فابتسمت إحداهما ابتسامة تشبه خنجر الملايو المنحني وقالت في تهكم:

ـ شرَّفتنا.

ولكن دوريان نهرها قائلًا وهو يضرب الأرض بقدمه:

ـ خير لك ألا تتكلمي. ماذا تريدين مني؟ إن كنت تريدين مالًا فها هو المال. ولكن إليك عني وحذار أن تكلّميني بعد الآن.

فلمع الشرر في عيني المرأة الدامعتين للحظة ثم انطفأت عيناها وعادتا جامدتين لا معنى فيهما. وهزَّت رأسها وخطفت النقود من الكونتوار بأصابع جشعة. وتحركت الغيرة في قلب صاحبتها.

وتنهد آدريان سنجلتون وقال:

ـ لا جدوى من التفكير في هذا فأنا لا أرغب في العودة، والأمر عندي سواء لأني سعيد هنا.

قال دوريان بعد صمت قليل:

ـ أنا أنتظر منك أن تكتب إليَّ كلما احتجت إلى شيء. أليس كذلك؟

ـ ربما.

ـ طاب مساؤك إذًا.

ـ طاب مساؤك.

وعاد الشاب إلى السلم الصغير يصعده وهو يمسح فمه الملتهب بمنديله.

أما دوريان فاتجه إلى الباب حزين القلب. فلما جذب الستار ليخرج إلى الدهليز سمع المرأة التي أخذت منه النقود تضحك ضحكة مفزعة وبلغه صوتها الخشن يقول في تقطع:

ـ ها قد ولى صنيعة الشيطان.

فأجاب دوريان قائلًا:

ـ لا تسميني صنيعة الشيطان، أيتها اللعينة.

وطقطقت المرأة أصابعها وصاحت به:

ـ أنت تحب أن يسميك الناس الأمير الساحر. أليس كذلك؟

فلما سمع البحار الراقد على المائدة كلماتها وثب من مكانه وأخذ يجول بعينيه في أنحاء الغرفة كالوحش الهائج. وسمع باب القاعة يقفل فاندفع خارجا من الغرفة كأنه يريد مطاردة دوريان جراي.

وأسرع دوريان جراي بالسير على رصيف الميناء والمطر ينهمر فوق رأسه. وقد أثارت رؤية آدريان سنجلتون شعور الشفقة فيه وخيل إليه أنه علة شقاء هذا الفتى والمسؤول عن تحطيم حياته كما صارحه بازيل هولوورد بذلك في عبارات مهينة. وعض شفته ألمًا وارتسم الحزن في عينيه بضع ثوان، ولكنه طرد عنه هذه الأفكار، وأحس بأن حياة الإنسان أقصر من أن يبهظها بأوزار الآخرين. فلتحيا كل نفس حياتها. ولتدفع كل نفس ثمن ما تجنيه من لذات. وما آلمه إلا أن ثمن الخطيئة يدفع مرارًا وتكرارًا، فالقدر لا يرضى بأن يصفِّي حسابه مع الإنسان دفعة واحدة.

يخبرنا علماء النفس بأن الرغبة في الخطيئة أو ما يسميه الناس بالخطيئة حين تتملَّك النفس تمامًا، فتملأ شعاب العقل وتملأ جنبات الجسد تقترب في طبيعتها من النزعات الإجرامية فترى الناس يفقدون كل قدرة على الاختبار، ويندفعون إلى نهايتهم الأليمة مسوقين بقوة لا يملكون لها قهرًا، وكأنهم آلات صماء. وتتلاشى فيهم الإرادة ويموت فيهم الضمير، فإن لم يمت فيهم الضمير عاش لتثور عليه الشهوات ويتمرد الجسد وهو صراع مسرحي يملأ الحياة بالحركة ويكسبها الطابع الفني. ذلك لأن جميع الخطايا جوهرها العصيان كما يحدثنا أهل اللاهوت في كل مناسبة. وإبليس العظيم، إبليس نجم الشرّ الوضّاء، لم يسقط من كنف

الله إلى الهاوية إلا بسبب ثورته على الحكم المطلق.

وأسرع دوريان جراي في سيره وقد مات فيه الشعور وتركَّزت خواطره في الشرِّ وثارت في عقله المسموم ونفسه المضطربة نوازع الثورة. ولكن ما أن نفذ في بعض البواكي المظلمة كما اعتاد أن يفعل ليختصر الطريق إلى ذلك المكان الجهنَّمي أحس بيد وحشية تقبض على عنقه من الخلف فجأة وتلصقه بالحائط قبل أن يتمكن من الدفاع عن نفسه.

وحاول أن ينجو بحياته في قوة جنونية حتى استطاع بمجهود جبار أن يخلّص عنقه من قبضة غريمه، ولكن لم تمض ثانية حتى سمع صوت مسدس يصوب إلى رأسه ورأى خزانة المسدس المصقولة تلمع في الظلام وتبين أمامه رجلًا بدينًا قصير القامة طمس الليل معالمه. قال دوريان جراي وهو يلهث:

ـ ماذا تبغي يا هذا؟

قال الرجل:

ـ صه. إن تحرَّكت قتلتك.

ـ أنت مجنون، كيف تقتلني وما آذيتك؟!.

فأجاب الرجل:

ـ أنت حطَّمت حياة سيبيل ڤين، وهي أختي. وأنا أعلم أنها انتحرت ولم تمت خطأ كما زعم المحقِّق فأنت المسؤول عن موتها. لقد أقسمت أني قاتلك عند عودتي، وقد فتشت عنك أرجاء المدينة فلم أهتدِ إليك. لقد ماتت أختي ومات اليهودي فلم أجد بعدهما من يستطيع أن يصفك لي. فكيف أهتدي إليك وأنا لم أعرف عنك شيئًا؟ إلا أن سيبيل كانت تطلق عليك اسم الأمير الساحر. فما إن سمعت اسمك يتردَّد الليلة مصادفة حتى علمت أني ظفرت ببغيتي. صلِّ إلى الله واطلب منه الغفران فأنت الليلة هالك.

فأصاب دوريان جراي جزع شديد وأصابه دوار وطفق يقول:

ـ ما عرفت أختك قط؛ وما سمعت بها. إنك مجنون.

ـ خليق بك أن تعترف بما فعلت، لأنك ميت لا محالة.

وتبعت ذلك لحظة صمت كلها أهوال ولم يجد دوريان ما يقوله أو يفعله، وزمجر چيمس ڤين قائلًا:

ـ أسجد، وصلِّ إلى الله. أمامك دقيقة واحدة أقبض بعدها روحك. إني راحل الليلة إلى الهند ولا بد أن أنجز مهمتي أولًا. أمامك دقيقة واحدة لا أكثر.

وتخاذل ذراعا دوريان من فرط الإعياء، وسدَّ الفزع عليه مسالك تفكيره فلم يعرف ماذا يفعل. ولكن فكرة خطرت له فجأة فرأى بصيصًا من الأمل نجاته. قال:

ـ مهلًا. متى انتحرت أختك هذه. أجبني بسرعة!

ـ انتحرت منذ ثمانية عشر عامًا. ولكن لِمَ تسأل، وما دخل السنين في كل هذا؟

فضحك دوريان جراي ضحكة المنتصر وقال:

ـ ثمانية عشر عامًا! أنظر إلى وجهي يا هذا واحكم بنفسك. هيا خذني إلى المصباح.

وتردَّد چيمس ڤين برهة ولم يفهم لقوله معنى، ثم أمسك بدوريان جراي وخرج به من البواكي، ومضى إلى مصباح من مصابيح الشارع. وكانت الريح تلعب بنور المصباح ولكن النور رغم ذلك كان كافيًا. وتبيَّن چيمس ڤين خطأه الفاحش، فقد رأى أمامه وجهًا اجتمعت فيه نضارة الصبا وطهارة الشباب. رأى أمامه فتى لا يتجاوز العشرين ربيعًا إلا بأيام قليلة، فتى لا يزيد عمره عن عمر سيبيل حين تركها وذهب يجول البحار. فكيف يكون هذا الفتى الرجل الذي حطَّم حياتها! مستحيل.

ففك عنه قبضته وتراجع بسرعة قائلًا:

ـ يا إلهي! يا إلهي! لقد كدت أن أقتل نفسًا بريئة.

وتنفَّس دوريان الصعداء وقال له في تحد:
ـ لقد كدت أن ترتكب جريمة منكرة يا هذا. فليكن هذا درسًا لك رادعًا فلا تتولَّى قصاص الناس بنفسك.
قال چيمس ڤين بصوت متقطع:
ـ أرجو أن تصفح عني يا سيدي. لقد خدعتني كلمة عابرة سمعتها في ذلك الوكر اللعين فجعلتني أتعقَّب رجلًا بريئًا.
فقال دوريان وهو ينصرف عنه:
ـ خير لك أن تعود إلى بيتك وأن تخفي ذلك المسدس وإلا جرَّ عليك المتاعب.
ووقف چيمس ڤين على إفريز الشارع مذعورًا يرتجف كل جزء من أجزاء جسمه. وبعد فترة قصيرة برز من الظلام ظل قاتم كان يزحف بجوار الحائط الذي بللته الأمطار، وخرجت إلى النور امرأة تسترق الخطى، وأمسكت بذراعه فالتفت إليها فزعًا. وكانت المرأة هي البغي التي كانت تحتسي الخمر عند البار.
واقترب وجهها الشاحب من وجهه وهمست في أذنه قائلة:
ـ لماذا لم تقتله؟ لقد عرفت أنك تطارده حين خرجت على عجل من بار دالي. يا لك من أحمق! كان يجب أن تقتله فهو يحمل مالًا كثيرًا وهو أشد خطرًا من إبليس نفسه.
فأجاب چيمس ڤين:
ـ ليس هذا بالرجل الذي أبحث عنه، وأنا لست قاطع طريق أسلب الناس أموالهم. إنما أطلب الثأر، والرجل الذي أريد قتله لا بد أن يكون في الأربعين من عمره، أما هذا الفتى فهو حدث صغير. شكرًا لله الذي جعلني أتبيَّن خطئ.
ولكن المرأة ضحكت ضحكة تفيض بالمرارة وقالت في احتقار:
ـ كيف تقول إنه حدث صغير؟ إن هذا هو الأمير الساحر الذي حطَّم

حياتي كما ترى منذ ثمانية عشر عامًا.

صاح بها چيمس ڤين:

ـ أنت تكذبين!

فرفعت يديها إلى السماء وقالت:

ـ بل أقسم أمام الله أني ما قلت إلا الصدق.

ـ أتقسمين أمام الله؟

ـ نعم. فإن كنت كاذبة فليخرس الله لساني. إن الأمير الساحر أفجر رواد هذا المكان. ولقد سمعت الناس يروون عنه أنه باع روحه للشيطان في مقابل وجه جميل. فحين عرفته منذ ثمانية عشر عامًا كان كما هو الآن، وهو لم يتغيَّر إلا قليلًا، أما أنا فقد تغيرت.

ولمع في عينيها بريق الشهوة وهي تقول هذه العبارة الأخيرة:

ـ أتقسمين على ذلك؟

فأجابت بصوت خشن خرج من فمها القبيح:

ـ نعم أقسم على ذلك.

ثم قالت في استعطاف:

ـ ولكن لا تشي بي عنده، فأنا أخشى شره. هيا اعطني بعض المال لأدفع أجر المبيت هذه الليلة.

فنزع چيمس ڤين ذراعه من قبضتها وهو يلعن واندفع إلى منعطف الشارع باحثًا عن فريسته ولكنه لم يجد لدوريان جراي أثرًا. فلما تلفت وراءه وجد أن المرأة قد اختفت كذلك.

الفصل السابع عشر

بعد أسبوع كان دوريان جراي جالسًا في صالون الموسيقى بقصر سلبي، يتحدَّث إلى دوقة مونماوث الجميلة التي نزلت في ضيافته مع زوجها الدوق وهو رجل في الستين من عمره بادي الإعياء. وكان الوقت وقت الشاي، وكان المصباح الضخم المغطى بالحرير، الموضوع على المائدة، يخرج منه نور رقيق يضيء أدوات الشاي بين أوان صينيه وقطع من فضة مطروقة، وكانت الدوقة على رأس المائدة، وذهبت يداها البيضاوان تنتقلان برشاقة بين الفناجين، وهمس دوريان في أذنها بكلمة فابتسمت شفتاها الحمراوان الممتلئتان. أما اللورد هنري فقد كان يتأملهما وهو مستلق على كرسي صُنع من فروع الشجر مكسو بالحرير. وعلى أريكة لونها كلون الخوخ جلست الليدي ناربورو وتكلفت الإصغاء إلى كلام الدوق في وصف جعران برايلي أضافة إلى مجموعة جعارينه وذهب ثلاثة من الشبان في ملابس السهرة يقدمون الكعك إلى بعض السيدات وقد بلغ عدد الضيوف اثني عشر ضيفًا وكان ينتظر قدوم ضيوف آخرين في اليوم التالي.

ثم نهض اللورد هنري وسار إلى المائدة ووضع عليها فنجانه قائلًا:

ـ فيم تتحدثان؟ أرجو يا جلاديس أن يكون دوريان قد حدَّثك عن مشروعي الذي وضعته لأغير جميع الأسماء، فهو مشروع جميل.

فأجابت الدوقة وهي تنظر إليه بعينيها الساحرتين:

ـ ولكني لا أحب أن أغير اسمي يا هاري فأنا راضية به وأعتقد أن مستر جراي راض باسمه كذلك.

ـ إن اسمك يا عزيزتي جلاديس اسم جميل، وكذلك مستر جراي اسمه جميل، ولن أقبل أن يدخل عليهما أي تعديل. إنما كنت أفكر في الأزهار خاصَّة حين وضعت مشروعي لتغيير الأسماء. فبالأمس قطفت زهرة من أزهار الأوركيد لأضعها في عروة سترتي، وكانت الزهرة رائعة المنظر ذات نقط، لها فتنة الرذيلة وسحر الخطايا السبع، وفي لحظة طيش سألت البستاني عما يسمونها فأجابني بأنها ضرب نادر من الروبنسوبيانا، أو ما أشبه ذلك من الأسماء المنكرة. وقد تألَّمت لذلك أبلغ الألم وعرفت أننا قد فقدنا القدرة على ابتكار الأسماء الجميلة. إن الأسماء هي كل شيء يا عزيزتي جلاديس. وأنا لا أكترث قط لأفعال الناس، فكل ما يعنيني هو أقوالهم، وهذا سر بغضي للابتذال الذي نجده في الأدب الواقعي. والإنسان الذي يسمي الأشياء بأسمائها يفسد طعم الحياة.

فسألته الدوقة قائلة:

ـ إذًا فماذا تحب أن نسميك يا هاري؟

قال دوريان:

ـ فلنسمِه أمير النقائض.

قالت الدوقة:

ـ هذا اسم على مسمًى.

فأجاب اللورد هنري ضاحكًا وهو يغوص في أحد المقاعد:

ـ أرجو أن أعفى من هذا الاسم. وإذا لم يكن هناك مفرّ من ماركة مسجلة، فأنا أرفض هذا اللقب.

قالت الدوقة الجميلة محذِّرة:

ـ تذكر أن الملوك لا يملكون التنازل عن ألقابهم.

ـ تحبين أن أدافع عن عرشي؟

ـ نعم.

ـ أنا الكاشف عن حقائق الغد.

قالت الدوقة:

ـ ليتك كنت الكاشف عن أخطاء اليوم.

فصاح قائلًا وهو يجادلها بأسلوبها:

ـ أنت تجردينني من سلاحي، يا جلاديس.

ـ أجرِّدك من درعك لا من رمحك يا هاري.

قال بإشارة مؤدبة:

ـ أنا لا أسدِّد رمحي إلى الجمال.

ـ هذا خطأ منك يا هنري، فأنت تبالغ في تقدير الجمال.

ـ هذا غير صحيح. فأنا أعترف حقًا بأني أفضِّل الجمال على الخير، ولكني أول من يفضل الخير على القبح.

قالت الدوقة:

ـ إذًا فالقبح أحد الخطايا السبع القاتلة؟ وكيف يتفق ذلك مع قولك بأن زهرة الأوركيد كانت تشبه الخطايا السبع القاتلة في جمالها؟

ـ بل القبح أحد الفضائل السبع القاتلة، يا جلاديس. وأنتِ وأشياعك من الأرستقراط آخر من يحق له أن يتجاهل قيمة هذه الفضائل. فالبيرة والكتاب المقدّس والفضائل السبع القاتلة هي التي جعلت إنجلترا ما هي عليه الآن.

فسألته قائلة:

ـ إذا فأنت تكره إنجلترا؟

ـ أنا أعيش في إنجلترا.

ـ لتفضح عيوبها بأمانة؟

فسألها قائلًا:

ـ أتحبين أن أقبل حكم أوربا علينا؟

ـ وما حكم أوربا علينا؟

ـ إن طرطوف[1] ملك المنافقين هاجر إلى إنجلترا ففتح فيها متجرًا.

ـ أهذا رأيك يا هنري؟

ـ قد تنازلت لك عنه.

ـ ولكني لن أستطيع أن أعلن هذا الرأي بين الناس، فهو يصف الحقيقة.

ـ لا تخشِ شيئًا، فمواطنونا الكرام لا يفهمون الأوصاف.

ـ لأنهم قوم عمليون.

ـ بل لأنهم قوم ماكرون. وفي ميزانهم التجاري تعوض الثروة عن الغباوة، والنفاق عن الرذيلة.

ـ ولكننا أتينا بالعجائب رغم كل ذلك.

ـ بل أوتينا العجائب يا جلاديس، فقد فرضت علينا العجائب فرضًا.

ـ هذا جائز، ولكننا حملنا عبء المجد، وهو ثقيل.

ـ نعم، حملنا عبئه حتى البورصة، ثم تخلينا عنه.

فهزت الدوقة رأسها وقالت:

ـ أنا أؤمن بسلالتنا.

ـ إن سلالتنا لا تمثل بقاء الأصلح بل تمثل بقاء الأقوى.

ـ إنها تتقدَّم.

ـ ليتها تنحَلّ. فالانحلال عندي خير من التقدم.

قالت:

ـ وما رأيك في الفن.

ـ الفن مرض.

---

(1) طرطوف Tartuffe أو المنافق: اسم مسرحية شهير لموليير، عُرضت لأول مرة سنة 1664، وطرطوف هو الشخصية الرئيسية في المسرحية.

ـ وما رأيك في الحب؟
ـ الحب وهم.
ـ وما رأيك في الدين؟
ـ الدين هو الاسم الحديث للعقيدة.
ـ أنت إذًا من الشُكَّاك؟
ـ حاشا لله! فالشك مبدأ الإيمان.
ـ ما أنت إذًا؟
ـ التعريف يفسد المعرَّف.
ـ أريد أن اهتدي إلى شخصيتك.
ـ إن خيوط الشخصية تتشابك، ولسوف تضلين في التيه.
ـ أنت تحيّرني، ومع ذلك فلنتكلم عن شخص آخر.
ـ نعم، إن مضيفنا لموضوع شائق للحديث. منذ سنوات طويلة سُمِّي بالأمير الساحر.

فصاح دوريان جراي قائلًا:
ـ لا تذكرني بذلك.

أجابت الدوقة وقد اصطبغ وجهها بالدم:
ـ إن مضيفنا ضيّق الصدر هذا المساء، وأظن أنه يعتقد أن مونماوث قد تزوّجني لأسباب علمية، حين وجد فيَّ أحسن نموذج من نماذج الفراش الحديث.

قال دوريان ضاحكًا:
ـ أرجو ألا يضع فيك الدبابيس يا سيدتي الدوقة كما يضع الدبابيس في فراشاته الأخرى.
ـ لا حاجة به إلى ذلك، فوصيفتي تغرس فيَّ الدبابيس بنفسها كلما غضبت مني يا مستر جراي.
ـ ولِم تغضب وصيفتك منك؟

ـ أؤكد لك يا مستر جراي أنها تغضب لأتفه الأسباب. تغضب مثلًا حين أعود إلى المنزل في الساعة التاسعة ثم أقول لها إن عليَّ أن أستبدل ثيابي قبل الثامنة والنصف.

ـ هذا تعنت منها! ويجب أن تنذريها بالطرد إن هي عادت إلى ذلك.

ـ لست أجرؤ على ذلك يا مستر جراي فهي تبتكر لي قبعاتي. أتذكر القبعة التي لبستها في حفلة الليدي هيلستون؟ طبعًا أنت لا تذكرها ولكني أشكر لك ادعاءك أنك تذكرها. تلك القبعة صنعتها لي من لا شيء. إن جميع القبعات الجميلة تُصنع من لا شيء.

فقاطعها اللورد هنري قائلًا:

ـ شأنها شأن السمعة الطيبة يا جلاديس. فكل أثر يتركه المرء في الوسط المحيط به يُكسب المرء عدوًا جديدًا، ولا سبيل إلى اكتساب قلوب الناس إلا بأن تكون من الأوساط التافهين.

قالت الدوقة وهي تهز رأسها:

ـ هذا الكلام لا ينطبق على النساء، والنساء يحكمن العالم. وأنا أؤكد لك أن أوساط الناس لا يكتسبون قلوب النساء، وقد قال حصيف إننا معشر النساء نعشق بآذاننا كما تعشقون أنتم معشر الرجال بعيونكم، إن كنتم تعشقون.

فقال دوريان:

ـ يبدو لي إن العشق هو كل عملنا في الحياة.

أجابت الدوقة وهي تتكلف الحزن:

ـ إذا كانت الحال كذلك فأنتم لا تعرفون الحب.

قال اللورد هنري:

ـ أنا احتجّ يا عزيزتي جلاديس، فالحب يحيا بالتكرار والتكرار يصقل الرغبة ويكسبها صفة الفن. إن الحب واحد مهما تعدَّد موضوعه. وفي كل مرة يحب القلب لا يبقى فيه إلا حب واحد. والتعدد لا يضعف الحب

بل يذكيه. فالحياة لا تتسع إلا لاختبار واحد عظيم، وسر السعادة أن نكرِّر هذا الاختبار ما وجدنا إلى ذلك سبيلًا.

وسألته الدوقة بعد صمت قليل:

ـ وإذا كان الاختبار أليما فهل نسعى إلى تكراره؟

أجاب اللورد هنري:

ـ بل يجب أن نسعى إلى تكرار الاختبار الأليم قبل سواه.

وتحول نظر الدوقة إلى دوريان جراي وبدا في محياها تعبير غريب وسألته قائلة:

ـ ما رأيك في هذا الكلام يا مستر جراي؟

وتردد دوريان لحظة ثم دفع برأسه إلى الوراء وقال ضاحكًا:

ـ أنا أوافق دائمًا على ما يقوله هنري يا سيدتي الدوقة.

ـ حتى إذا أخطأ؟

ـ هنري لا يخطئ يا سيدتي الدوقة.

ـ وهل جاءتك فلسفته بالسعادة التي تنشدها؟

ـ أنا لم أنشد السعادة في يوم من الأيام، فما بي حاجة إليها. إنما نشدت اللذة.

ـ وهل وجدت اللذة يا مستر جراي؟

ـ نعم وجدتها. وجدت منها أكثر مما أحتمل.

وتنهدت الدوقة ثم قالت:

ـ أما أنا فأنشد الهدوء، وإذا لم أسرع باستبدال ثيابي، فلن أذوق طعم الهدوء في هذه الليلة.

فنهض دوريان وسار إلى أقصى الصالون قائلًا:

ـ اسمحي لي أن آتيك ببعض أزهار الأوركيد يا عزيزتي الدوقة.

وقال اللورد هنري لابنة عمه الدوقة:

ـ إنك تغازلينه مغازلة مكشوفة وأنصحك أن تحتاطي فهو شخص فاتن.

ـ لو لم يكن فاتنًا لما كان هناك صراع.
ـ إذا فهذه معركة بين أخيل وأخيل.
ـ كلا، فأنا في جانب الطرواديين لأنهم حاربوا من أجل امرأة.
ـ وقد هُزموا.
فأجابت:
ـ السبي أهون ما في الحرب.
ـ إنكِ تركضين على جواد بلا زمام.
أجابت:
ـ هذا يجدد الحياة.
ـ سأدوِّن هذا في يومياتي الليلة.
ـ وماذا ستكتب؟
ـ سأكتب أن الطفل يحب النار التي تحرق أصابعه.
ـ هذا غير صحيح، فأنا لم أكتوِ بعد، فكيف تقول إني احترقت. وهذه أجنحتي سليمة.
ـ أنت تستخدمين أجنحتك في كل شيء إلا الطيران.
ـ إن الشجاعة قد انتقلت من الرجال إلى النساء، وهذا اختبار لم نألفه.
ـ إن للكِ عزيمة.
ـ ومن تكون هذه؟
فضحك وقال:
ـ الليدي ناربورو.
ثم همس في أذنها قائلًا:
ـ إنها تحبه إلى حد العبادة.
ـ أخشى أن يجذبه جمال الأطلال، فنحن الخياليين يُسحرنا القدم.
ـ ولكنك لست من الخياليات فأنت تملكين كل معدات العلم.
ـ لقد تعلمنا في مدرسة الرجال.

ـ نعم. لقد علّمناكنّ ولكننا لم نفسر من طبيعتكن شيئًا.
قالت بتحدٍّ:
ـ ما رأيك فينا كجنس؟
ـ المرأة أبو هول بغير سر.
فنظرت إليه باسمة وقالت:
ـ لقد غاب مستر جراي طويلًا، فهيا بنا نساعده على اختيار الأوركيد، ولعله حائر في ما يختار لأني لم أخبره بلون الفستان الذي سألبسه.
ـ فلتختاري الثوب الذي يناسب أزهاره.
ـ إن فعلت هذا كان ذلك تسليمًا مني قبل الأوان.
ـ ولكن الفن الخيالي يبدأ حيث يجب أن ينتهي.
ـ لا بد أن أحفظ لنفسي خط الرجعة.
ـ طبقًا لخطة موضوعة على طريقة الپارثيين؟
ـ لقد اعتصم البارثيون بالصحراء وأنا لا أستطيع أن أفعل ذلك.
فأجاب قائلًا:
ـ قد لا تجد النساء مجالًا للاختيار بين تراجع وتراجع.
ولكنه ما كاد يتم قوله حتى سمع أنَّة مخنوقة آتية من أقصى الصالون، وتلاها صوت جسم ثقيل يسقط مكتومًا فاضطرب كل من بالغرفة، وثبتت الدوقة في مكانها جزعى وشق اللورد هنري طريقه فزعًا بين الأشجار المضطربة فوجد دوريان جراي مستلقيًا على وجهه فوق البلاط في إغماء يشبه الموت.
وحُمل دوريان جراي إلى غرفة الاستقبال الزرقاء وهناك وُضع على إحدى الأرائك. ثم أفاق بعد قليل وتلفت حوله زائغ العينين، وقال:
ـ ماذا حدث؟ نعم، تذكرت الآن ما حدث. أأنا هنا في أمان يا هنري؟
وأخذت أوصاله ترتجف. فأجابه اللورد هنري قائلًا:
ـ لقد أغمي عليك يا عزيزي دوريان، هذا كل ما في الأمر فلا تجزع.

لا بد أنك أنهكت نفسك إنهاكًا بالغًا، ومن الخير ألا تتعشَّى معنا الليلة، وسأملأ أنا مكانك في المائدة.

وغالب دوريان نفسه حتى استطاع أن يقف على قدميه وقال:

ـ بل سأتعشَّى معكم. نعم، إني أفضل أن أتعشَّى معكم فليس من الخير أن أبقى وحيدًا.

ومضى إلى غرفته وارتدى ملابس السهرة. ثم أخذ مكانه في صدر المائدة وكان يبدو عليه المرح الشديد كأنه لا يبالي بشيء، ولكنه كان يرتجف من وقت إلى آخر حين يفكر في أنه لمح وجه چيمس ڤين شاحبًا كأنه منديل أبيض ملتصقًا بزجاج النافذة في صالون الموسيقى.

الفصل الثامن عشر

وفي اليوم التالي لزم دوريان جراي داره بل لزم غرفته الشطر الأكبر من الوقت وكان يحس بفزع من الموت شديد، ومع ذلك فقد رخصت في نظره الحياة. وبدأ يحس بأنه مطارَد، وبدأ يرى الفخاخ تُنصب حوله، وملأت هذه الفكرة شعاب عقله، فما اهتز في بيته ستار أمام الريح إلا اهتزت أوصاله، وشاهد أوراق الأشجار الذابلة تضرب زجاج نافذته المعشَّق بالرصاص فتذكره بنواياه الضائعة وأحزانه المبرحة. وحين أطبق جفنيه رأى وجه البحّار من جديد يتتبع حركاته من وراء الزجاج المغطى بالضباب فخفق قلبه هلعًا.

ولكن لعل ما رآه كان طيفًا منتقمًا نسجه في الظلام وهمه، ولعل أشباح القصاص انطلقت من خياله المريض لترقص أمام عينيه وترعبه. إن الحياة الواقعية قوامها الفوضى، أما الخيال فمنطقي ومرتب، فالخيال هو الذي جعل الندم يتبع الخطيئة، والخيال هو الذي جعل لكل جريمة أحلامها المزعجة. وفي الحياة اليومية ينجو الأشرار من العقاب ويضيع على المحسنين الثواب، ويجني الأقوياء ثمار النجاح أما الضعفاء فلهم الخيبة وسوء المآل، وهذه قصة الحياة. فلتطمئن نفس دوريان جراي إذ لا قصاص إلا في خيال المذنبين. وإن الوجه الذي يراه من وراء الزجاج ليس إلا صورة في خياله المحموم، ولو أن رجلًا كان يتربص به خارج

المنزل لرآه الخدم لا محالة، ولو أن أقدامًا غريبة تركت آثارها في الحديقة لأخبره البستاني بأمرها. نعم، لم يكن ما رآه إلا نسج الخيال، وأخو سيبيل ڤين لا يتعقبه ليفتك به، فقد رحل في سفينته ولعله الآن غريق في بحر من بحار الجليد، وهو في مأمن منه، هو في مأمن من چيمس ڤين على الأقل. إن چيمس ڤين لم يعرف هويته ولم يستطع أن يعرفها، ولقد أنقذه قناع الشباب.

ولكن هب ما رآه دوريان جراي لم يكن إلا وهمًا، فما أقسى هذا الضمير الذي يملأ الدنيا بالأشباح المخيفة ويعطي للهواجس أجسادًا تراها العيون، ويجعلها تتحرك أمام الإنسان وأي جحيم هذا الذي قُدِّر له أن يعيش فيه إذا كانت أشباح القصاص تتلصص عليه ليل نهار من الأركان الساكنة وتسخر به الدهاليز المهجورة، وتهمس في أذنه الويل والثبور في المآدب والحفلات وتوقظه من منامه بأصابع من جليد! وفيما يفكر في ذلك شحب لونه جزعًا وأحس فجأة بالهواء يلذعه ببرودة لم تكن فيه من قبل. لقد قتل صديقه في ساعة جنون، فأي نجم دام عَبوس ذلك الذي ارتفع في السماء وسلب منه لبه! ويا له من الذكرى فهي موجعة! وعادت إلى ذهنه تفاصيل تلك الليلة المشؤومة فخلعت فؤاده رعبًا، وخرجت عليه من كهف الزمن المظلم صورة جريمته في وشاح أحمر، وحين دخل عليه اللورد هنري في الساعة السادسة وجده ينتحب في مرارة وقد أوشك قلبه أن يتفطر.

ولم يجسر على الخروج من قصره إلا في اليوم الثالث. فالصباح النادر جميل عاطر بأريج أشجار الصنوبر رد إليه مرحه ورغبته في الحياة. ولم تكن الطبيعة وحدها هي التي أغرته بالخروج لأن طبعه تمرد على كل هذه الآلام المبرحة التي كدرت صفاء نفسه، فأصحاب المزاج الرقيق لا يحتملون المحن، وعواطفهم القوية إن لم تنحنِ أمام النكبات تنكسر، ولا يشفيهم إلا قتل النفس أو قتل الغير. وأصحاب العواطف التافهة يحبون

ويشقون فحبهم مديد وشقاؤهم مديد، أما أصحاب العواطف الجبارة فغرامهم الجبار يذبح نفسه لأنه مارد عملاق وكذلك أحزانهم الجبارة. ولقد أقنع دوريان جراي نفسه بأن الرؤى التي رآها لم تكن إلا زيفًا من عمل خياله السقيم، ونظر إلى مخاوفه نظرة لا تخلو من الرثاء والاحتقار.

وبعد أن تناول فطوره خرج إلى الحديقة وتحدَّث إلى الدوقة ساعة أو بعض ساعة ثم ركب عربته وقطعت به المنتزه ليلحق بجماعة الخارجين إلى الصيد. وكان الصقيع الهش يغطي الحشائش كأنه الملح المنثور وبدت السماء كأنها كأس مقلوبة صنعت من معدن أزرق وطفت طبقة رقيقة من الجليد على سطح البحيرة الساكنة التي نما فيها البوص.

ووقع بصره على السير چفري كلوستون، أخي الدوقة، عند ركن الغابة الصنوبرية فرآه يقذف بخرطوشتين فارغتين من بندقيته. فوثب خارجًا من العربة وأمر السائس أن يعود بالمهر إلى القصر ثم سعى إلى أضيافه شاقًا طريقه بين الأعشاب الشيطانية والشجيرات الخشنة. قال:

ـ أوجدت صيدًا طيبًا يا چفري.

ـ كلا يا دوريان، وأظن أن أكثر الطيور ذهبت إلى الخلاء. واعتقد أننا سنصادف توفيقًا أعظم بعد الغداء حين نغير المكان.

وسار دوريـان وچفري جنبًا إلى جنب. وشاع في نفس دوريان إحساس جميل بالحرية حين قرصه الهواء العاطر ورأى الأنوار الحمراء والأنوار البنية تلمع في بطن الغابة وسمع أصوات العمال الخشنة تعلو بالصياح وهم يضربون الأغصان لتخرج منها الطيور. وكان خلي البال سعيدًا مشرق النفس مقبلًا على الحياة.

وفجأة أبصر أرنبًا منتصب الأذنين أسودهما يقفز على بعد عشرين ذراعًا بين الأعشاب الذابلة بعد أن تحفز على رجليه الخلفيتين واندفع الأرنب صوب دغل من الأدغال، فرفع السير چفري بندقيته إلى كتفه وهَمَّ بأن يطلق عليه النار لولا أن دوريان جراي ارتاع لرشاقة حركته فصاح

بصاحبه قائلًا:

ـ لا تقتله يا چفري. دعه يعش.

فضحك صاحبه وقال:

ـ ما هذا الكلام الفارغ يا دوريان!

وفيما كان الأرنب يقفز داخلًا الدغل أطلق عليه النار، ارتفعت صرختان، صرخة أرنب جريح وصرخة رجل مصاب.

صاح السير چفري قائلاً:

ـ يا للسموات! لقد أصبت أحد الحراس. إن وقوفه أمام البنادق غباوة شديد. لا تطلقوا النار فقد أصيب أحد الرجال.

وجاء رئيس الحراس يعدو حاملًا بيده عصا، وصاح:

ـ أين يا سيدي؟ أين؟

وتوقّف إطلاق النار بطول الخط. وأجاب السيد چفري غاضبًا وهو يسرع نحو الدغل:

ـ في هذا المكان. لم لا تبعد أتباعك عن مرمى النار؟ ها أنت قد أفسدت شهيتي للصيد في هذا الصباح.

وأنشأ دوريان يتأملهما وهما يدخلان الدغل ويبعدان الأغصان عن طريقهما. وبعد لحظات خرجا وهما يجران جثة رجل من الدغل إلى العراء. ولم يحتمل دوريان جراي أن يرى هذا المنظر فأشاح بوجهه، وخيل إليه أنه يجلب الرزايا أينما سار. وسمع السير چفري يسأل رئيس الحراس عما إذا كان الرجل قد مات فعلًا وسمع رئيس الحراس يجيبه بالإيجاب. وخيل إليه فجأة أن الغابة يسكنها ألف شبح وسمع ألف قدم تدك الأرض بوطئها وطنَّ في أذنه همس كثير. وجاء طائر صدره نحاسي اللون ورفرف بين الأغصان فوق رؤوسهم.

ومرت لحظات خالها دهورًا من الآلام في حالته المضطربة تلك، وفي النهاية أحس بيد ترتكز على كتفه فانتبه من غفلته وتلفَّت حول فإذا

اللورد هنري قد جاءه يقول:
ـ لعل من الأصوب يا دوريان أن أقول لضيوفك إن الصيد قد انتهى اليوم عند هذا الحد. فاستمرارهم لن يحدث أثرًا طيبًا في الناس.
أجاب دوريان بمرارة:
ـ ليته ينتهي إلى الأبد يا هاري، فهذا لهوٌ إجراميٌّ بشع. والرجل، هل...
ووقفت الكلمة في حلقه، فأجابه اللورد هنري:
ـ نعم يا دوريان، مات الرجل، فقد أصابه الرش كله في صدره ولا بد أن يكون قد مات فورًا. هيا بنا، فلنعد إلى البيت.
وسار الرجلان جنبًا إلى جنب صامتين نحو خمسين ذراعًا في اتجاه الطريق الظليل، ثم التفت دوريان إلى اللورد هنري وتنهَّد من أعماقه وقال:
ـ هذا نذير شؤم يا هاري، هذا نذير شؤم.
فسأله اللورد هنري قائلًا:
ـ ماذا تقصد؟ أتقصد الحادثة؟ لا تبتئس يا صديقي فلم يكن هناك سبيل لتفاديها. لقد كان الخطأ خطأ الحارس فهو الذي وقف في مرمى النار. ثم إن الأمر لا يهمنا، لأن جفري هو المسؤول عن الحادث بطبيعة الحال. ومن الخطأ أن ندلِّل الحرَّاس وإلا حسبك الناس مهملًا في الرماية، وما جفري بمهمل فهو يحسن التصويب. ولكن دعنا من هذا الموضوع فالكلام فيه لا ينفع.
وهز دوريان رأسه قائلًا:
ـ إن هذا نذير شؤم يا هاري. وأنا أحس بأن شرًا ما سيحيق بأحدنا... بي أنا مثلًا.
وفيما هو يقول ذلك مر بأصابعه على عينيه في ألم واضح.
وضحك اللورد هنري وقال:
ـ إن الشر الوحيد في العالم هو الملل يا دوريان. والملل هو الخطيئة

الوحيدة التي لا تغتفر. ولكن الملل لن يصيب أمثالنا، اللهم إلا إذا رأى ضيوفك أن يتحدثوا في موضوع هذا الرجل أثناء الغداء. ولسوف أخبرهم بأن الكلام في هذا الموضوع محرَّم عليهم. أما النذير الذي تتحدث عنه فلا وجود له لأن القدر لا يرسل لنا الرُسُل لتحذرنا بل يأخذنا على غرة. ولعل هذه حكمة منه ولعلها إجرام. ثم إنك بمأمن من كل شر يا دوريان، ولقد أوتيت كل ما في الدنيا من أسباب السعادة وليس بين الناس من لا يقبل أن يستبدل مكانه بمكانك.

ـ بل ليس بين الناس من لا أقبل أنا أن أستبدل مكانه بمكاني يا هنري. وكفاك ضحك، فما قلت غير الحق. إن الحارس المسكين الذي قتل منذ هنيهة أسعد مني حالًا. وأنا لا أخاف الموت ولكني أخاف مقدم الموت، وأحس بجناحيه الشيطانيين يطنان حولي في هذا الهواء الثقيل. انظر يا هنري! ألا ترى رجلًا يتحرك خلف الأشجار متربصًا بي؟

فالتفت اللورد هنري إلى الناحية التي أشارت نحوها يده المرتجفة ذات القفاز. ثم قال مبتسمًا:

ـ نعم أرى البستاني واقفًا في انتظارك وأحسب أنه يود أن يسألك عن الأزهار التي تريده أن يضعها على المائدة هذا المساء. إن أعصابك متوترة إلى حد بعيد يا دوريان، وهي توحي لك بأسخف الخيالات، وأنصحك أن تستشير طبيبي حين يعود إلى لندن.

ورأى دوريان البستاني يتقدم منه فعاد إليه هدوءه. وهمَّ الرجل برفع قبعته تحية لسيده ونظر إلى اللورد هنري في تردد لحظة أو لحظتين ثم أخرج من جيبه خطابًا وسلمه إلى دوريان قائلًا:

ـ إن سيدتي الدوقة تنتظر الرد على هذا الخطاب.

ووضع دوريان الخطاب في جيبه وقال في برود:

ـ قل لسيدتك الدوقة إني سألحق بها.

وانصرف الرجل مسرعًا وسار في اتجاه القصر.

قال اللورد هنري ضاحكًا:

ـ ما أشد كلف النساء بالأعمال الغريبة يا دوريان! إن هذه هي الصفة الوحيدة التي تعجبني فيهن. والمرأة تغازل أي رجل في العالم إذا تأكدت من أن هناك من يراها.

ـ وما أشد كلفك بالأقوال الغريبة يا هنري! وأعتقد أنك مخطئ هذه المرة، فأنا أميل إلى الدوقة أشد الميل ولكني لا أحبها.

ـ والدوقة تحبك أشد الحب ولكنها لا تميل إليك، فأنتما كما ترى يكمّل أحدكما الآخر.

ـ أنت تنشر الفضيحة بهذا الكلام يا هنري، والفضائح لا أساس لها في الواقع.

فأجاب اللورد هنري وهو يشعل سيجارة:

ـ أساس كل فضيحة ليس الشك الأخلاقي بل اليقين الذي يتنافى مع الأخلاق.

ـ إنك تضحي بأي مخلوق في مقابل قول طريف.

فأجب اللورد هنري قائلًا:

ـ أنا لا أضحّي أحدًا لأن الناس يسيرون إلى المذبح من تلقاء أنفسهم.

قال دوريان وفي صوته رنة من الحزن العميق:

ـ ليتني أستطيع أن أحب، ولكن يبدو لي أني قد قتلت العاطفة ونسيت الرغبة. فأفكاري كلها مركزة في نفسي وشخصيتي قد أصبحت عبئًا عليَّ ثقيلًا. فكيف الهرب من هذه الأنا، وكيف النسيان؟ أظن أني سأبرق إلى هارڤي طالبًا إليه أن يعد اليخت لي، ففي اليخت أكون بمأمن من الخطر.

ـ أي خطر هذا الذي لا تفتأ تتحدَّث عنه؟ لا بد أنك في محنة، ويجمل بك أن تفضي إليَّ بكل شيء، فأنت تعرف أني سأقف إلى جانبك.

أجاب الفتى في حزن:

ـ لا أستطيع أن أفضي إليك بشيء يا هنري، ثم إن هذا الخطر الذي

يتهددني قد يكون خطرًا وهميًا. إن هذه الحادثة المشؤومة قد أثارت أعصابي وأنا أحس بأن مكروهًا من هذا النوع سينزل بي.

ـ دع عنك هذه الخزعبلات!

ـ أرجو أن تكون هذه خزعبلات حقًا، ولكني أفكر فيها برغمي انظر! ها هي الدوقة مقبلة علينا وهي تبدو كالإلهة ارتميس لابسة چاكتة تايير. لقد عدنا من الصيد يا عزيزتي الدوقة.

أجابت:

ـ نعم يا مستر جراي، لقد علمت بما حدث وچفري المسكين في اضطراب شديد وقد قالوا لي إنك سألته ألا يطلق النار فما أغرب هذه المصادفة.

ـ نعم. إنها لمصادفة عجيبة، ولا أستطيع أن أفسرها. ولعلها نزوة طارئة فقد كان الأرنب آية في الرشاقة وربما عزَّ عليَّ أن يُقتل. مهما يكن من شيء فيؤسفني أنك علمت بخبر هذا الرجل، فالموضوع كله بغيض.

قال اللورد هنري:

ـ نعم، إنه لموضوع ممل، وليست له أية قيمة من الناحية النفسية فلو أن چفري قتله عامدًا لاستحق أن نهتم له كل هذه الاهتمام. وكم أحب أن أعرف رجلًا ارتكب جريمة قتل حقيقية.

فصاحت الدوقة قائلة:

ـ هذه وحشية منك يا هنري. ألا توافقني على ذلك يا مستر جراي؟ إن مستر جراي قد عادت إليه النوبة يا هنري، وها هو يوشك أن يدركه الإغماء.

وجمع دوريان أشتات قوته المتخاذلة وقال مبتسمًا:

ـ لا تنزعجي يا عزيزتي الدوقة، فما بي مرض. كل ما في الأمر أن أعصابي منهكة، فقد أسرفت في السير هذا الصباح. ماذا قال هنري؟ إني لم أسمع كلماته، فهل قال شيئًا فظيعًا؟ لا بد أن تعيدي عليَّ ما قاله هنري

في مناسبة أخرى أما الآن فاعتقد أن من الأصوب أن أستريح. هل تأذنان لي بالانصراف؟

وسار اللورد هنري والدوقة حتى بلغا درجات السلم الكبير التي تؤدي إلى الشرفة من صالون الموسيقى، وبعد أن أقفلا الباب الزجاجي بينهما وبين دوريان نظر اللورد هنري إلى الدوقة بعينيه الناعستين وسألها قائلًا:

ـ كم تحبين دوريان؟

فلم تجب. ومرت دقائق لم يقل أحد فيها شيئًا ووقفت الدوقة تتفرَّس في الطبيعة المترامية أمامها ثم أجابت أخيرًا:

ـ ليتني كنت أعلم.

قال اللورد هنري وهو يهز رأسه:

ـ العلم يفسد كل شيء، فاحتفظي بهذا الشك لأن في الشك سحرًا خاصًا وقليل من الضباب يزيد جمال الحياة.

ـ وماذا أفعل لو تهت في الضباب؟

ـ لن تتيهي يا عزيزتي جلاديس فكل الطرق تؤدي إلى نقطة واحدة.

ـ وما هي هذه النقطة؟

ـ الاستفاقة إلى الحقيقة.

قالت وهي تتنهد:

ـ لقد بدأت حياتي بهذه الاستفاقة.

ـ وقد جاءتك الاستفاقة متوَّجة في شخص دوق.

ـ لقد تعبت من أوراق الغار.

ـ إنها تناسبك.

ـ في الحفلات الرسمية فقط.

قال اللورد هنري:

ـ لو نزلت عنها لافتقدتها في مستقبل الأيام.

ـ لن أنزل عن ورقة واحدة منها.

ـ ولكن مونماوث له أذنان.
ـ الشيخوخة سمعها بطيء.
ـ ألم تَثُر غيرته قط؟
ـ يا ليتها ثارت.
وتلفَّت اللورد هنري في كل مكان باحثًا عن شيء فسألته قائلة:
ـ عمَّ تبحث؟
ـ عن زرار سقط مني.
ـ ولكن قناعي لم يسقط بعد.
أجاب اللورد هنري:
ـ وهو يزيد عينيك سحرًا.
فضحكت ثانية وبدت أسنانها كالحبوب البيضاء في فاكهة حمراء.

وكان دوريان جراي مستلقيًا على أريكة في غرفته بالطابق العلوي مرتجف الأوصال ينهشه الفزع. وأحس فجأة بأن حياته قد أصبحت عبئًا ثقيلًا لا سبيل إلى احتماله. وموت الحارس المسكين الذي سقط في الغابة قتيلًا كأنه حيوان بري، بدا له كنبوءة بموته. ولقد كاد أن يصيبه الإغماء حين سمع ما قاله اللورد هنري عرضًا من باب العبث.

ولما بلغت الساعة الخامسة دق الجرس واستدعى خادمه وأمره بأن يحزم أمتعته استعدادًا للرحيل إلى لندن باكسبريس الليل، وأن يُعِدّ له عربته في الساعة الثامنة والنصف، فقد قرَّر ألا ينام ليلة أخرى في سلبي، ذلك القصر المشؤوم الذي مشى الموت في كنفه في رابعة النهار، وخضَّبت الدماء حشائش غاباته.

ثم سطر رسالة كتبها إلى اللورد هنري معتذرًا بأنه راحل إلى لندن ليستشير طبيبه، سائلًا إياه أن ينوب عنه في القيام بواجب الضيافة نحو أصحابه أثناء غيابه. وفيما هو يضع الرسالة في غلاف طرق الباب خادمه وأخبره بأن رئيس الحراس يطلب مقابلته. فعبس دوريان وعض شفتيه

وقال بعد تردُّد قليل:

ـ ادخله.

ولما دخل رئيس الحرَّاس أخرج دوريان دفتر الشيكات من أحد الأدراج وفتحه قائلًا:

ـ أظنك جئت لتحدثني في شأن الحادثة الأليمة التي وقعت هذا الصباح يا ثورنتون.

أجاب الحارس:

ـ نعم يا سيدي.

قال دوريان وقد بدا عليه الملل:

ـ أكان هذا الرجل متزوجًا؟ أكان يعول أحدًا؟ إذا كان يعول أحدًا فلست أحب أن يتعرض عياله للفاقة، وسأرسل لهم أي مبلغ من المال تراه أنت كافيًا.

ـ لم نتعرَّف على شخصيته يا سيدي، وهذا ما دفعني إلى إزعاجك الآن.

قال دوريان في فتور:

ـ وكيف كان ذلك؟ ألم يكن القتيل رجلًا من رجالك؟

ـ كلا يا سيدي، وأنا لم أره قبل اليوم، ويلوح لي أنه بحَّار يا سيدي.

فسقطت الريشة من يد دوريان جراي، وأحس بقلبه يتوقف عن الخفقان، وصاح قائلًا:

ـ بُحّار؟ أتقول إنه بحّار؟

ـ نعم يا سيدي، إن مظهره يدل على أنه بحار ففي ذراعيه وشم، وعليه سمات البحارة.

فمال دوريان جراي إلى الأمام وأخذ يتفرَّس في الرجل منزعجًا ثم قال:

ـ ألم تجدوا معه ما يثبت شخصيته أو يدل على اسمه؟

ـ وجدنا بعض النقود يا سيدي، ووجدنا مسدسا ذا ست طلقات، ولكننا لم نجد اسمه، ومرآه يدل على أنه رجل فاضل، ولكن عليه سيماء الخشونة، ونحن نظن أنه بحار.

ونهض دوريان واقفًا وداعب خاطره أمل شيطاني فلم يغير الموضوع بل قال في إصرار:

ـ أين وضعتم الجثة؟ لا بد أن أراها فورًا.

ـ إنها في مزود الخيل الفارغ بالحقل يا سيدي.

وضعناها هناك لأن أهل القرية رفضوا أن يقبلوها في منازلهم قائلين إن الجثث تجلب الشؤم.

ـ إقصد إلى الحقل فورًا وانتظرني هناك وقل للسائس أن يأتيني بجوادي.. ولكن من الأفضل أن أمضي بنفسي إلى مزاود الخيل ففي هذا توفير للوقت.

لم تمضِ ربع ساعة حتى كان دوريان جراي يركض عُلى فرسه في الطريق الظليل بسرعة قصوى، وكانت الأشجار على جانبيه تبدو له وهو ينهب الأرض نهبًا كأنها صفان من الأشباح، ورأى ظلالها الماردة ترتمي في طريقه فيطؤها وطئًا. وانحرفت به الفرس مرة عند عمود أبيض فكادت أن تلقيه أرضًا. وأخذ يضربها بسوطه على عنقها فمزقت الهواء كأنها السهم المنطلق، وطارت من وقع حوافرها الأحجار.

وأخيرًا بلغ العربة فوجد رجلين يتسكعان في الفناء، وترجَّل وسلَّم عنان الفرس إلى أحدهما، ولمح نورًا ينبعث من آخر مزود فهتف به هاتف إن الجثة ملقاة فيه وأسرع إلى بابه ووضع يده على المزلاج.

ثم تردَّد قليلًا وأحس بأن يوشك أن يكشف عن حقيقة عظمى قد تنقذه من محنته، وقد تودي بما بقي له من هناء. ثم دفع الباب ودخل.

وفي نهاية المزود رأى جثة رجل ميت يلبس قميصًا خشنا وبنطلونًا أزرق ممَدّدة على كومة من الخيش، ورأى منديلًا عليه نقط يغطي وجه

الرجل، ورأى شمعة من النوع الرديء مثبتة في عنق زجاجة تبصق نارها بجانب الجثة.

وشاعت في جسده رعشة، وعرف أن قواه سوف تخونه إن هو تقدَّم لرفع المنديل، فنادى على أحد الفلاحين ولمَّا دخل الرجل قال له وهو يعتمد على الباب حتى لا يتهافت:

ـ اكشف وجه هذا الرجل، فأنا أريد أن أعرف من يكون.

ورفع الفلاح المنديل عن وجه الرجل وتقدَّم دوريان جراي خطوات، وحين تبيَّن وجه الميت لم يستطع أن يكتم صيحة الفرح الذي مشى في بنيانه فلقد عرف أن الرجل الذي سقط في الغابة قتيلًا لم يكن إلا چيمس ڤين.

وثبت في مكانه بضع دقائق متفرِّسًا في الجثة. ثم اعتلى فرسه وعاد أدراجه إلى داره، وفي الطريق فاضت عيناه بالدموع، دموع الفرح، وغمره الفرح، فرح السلامة.

الفصل التاسع عشر

قال اللورد هنري وهو يضع أصابعه البيضاء في إناء من النحاس الأحمر مملوء بماء الورد:

ـ لا تحاول أن تُفهمني يا دوريان إنك ستصبح رجلًا صالحًا. إنك على غاية ما يرام كما أنت الآن فلا تحاول أن تغيِّر من طبيعتك.

فهز دوريان جراي رأسه وأجاب:

ـ كلا يا هاري. لقد أتيت في حياتي كثيرًا من الذنوب المخجلة ولن أضيف إلى قائمة جرائمي شيئًا بعد الآن. وقد بدأت حياتي الجديدة أمس بفعل الخير.

ـ وأين كنت أمس؟

قال اللورد هنري وهو يبتسم:

ـ اسمع يا عزيزي دوريان. إن أي إنسان يستطيع أن يكون صالحًا في الريف، لأن الريف خالٍ من أسباب الغواية. وهذا هو السر في أن الناس الذين يعيشون بعيدًا عن المدينة متأخرين في المدنية. فالمدنية ليست شيئًا سهل المنال إطلاقًا. وهناك طريقتان لا ثالثة لهما يصل بهما الإنسان إلى المدنية، الأولى هي الثقافة، والثانية هي الانحطاط. وأهل الريف لا سبيل لهم إلى الثقافة أو إلى الانحطاط. ولذا تراهم يتعفنون من فرط الركود.

قال دوريان:

ـ أنت تتحدَّث عن الثقافة والانحطاط، ولقد أصبت من كليهما شيئًا مذكورًا. ويبدو لي الآن أن اجتماعهما في شخص واحد وخيم العاقبة، فقد اتخذت لنفسي مثلًا أعلى جديدًا يا هاري، وقرَّرت أن أغير من طبعي، بل اعتقد أني قد غيرت من طبعي فعلًا.

ووضع اللورد هنري بعض الشليك[1] ذي البذور في طبقه ورشّ عليه بعض السكر الناعم من ملعقة ذات ثقوب تشبه المحارة في هيئتها، وقال:

ـ أنت لم تخبرني بعد بالعمل الصالح أو الأعمال الصالحة التي قمت بها أمس.

ـ سأقص عليك ما حدث لأنك تعلم أكثر أسراري، وهي قصة لا أستطيع أن أطلع عليها أحدًا غيرك. وقعت في يدي فريسة ولكني لم أفتك بها بل تركتها وشأنها. ولقد يبدو لك ذلك فخرًا حيث لا موضع للفخر ولكنك تفهم ما أقصد إليه. عرفت فتاة تدعى هيتي بارعة جميلة وفيها شبه قوي من سيبيل ڤين. وأعتقد أن هذا الشبه هو الذي جذبني إليها أول الأمر. أنت تذكر سيبيل دون شك؟ لقد مضت على حكايتها أيام طويلة كأنها دهور. مهما يكن من شيء فقد كانت هيتي من طبقة غير طبقتنا بطبيعة الحال، ولم تكن غير فتاة قروية ساذجة، ولكني أحببتها من أعماق قلبي. نعم لست أشك في أني أحببتها. وقد دأبت على الخروج إلى الريف للقائها مرتين أو ثلاث مرات من كل أسبوع طوال شهر مايو الجميل الذي سعدنا به هذا العام. وقد قابلتها البارحة في بستان صغير، وبينما نحن جالسان كانت الأزهار تتساقط من شجرة التفاح فوق شعرها فتضحك. وقد وضعنا الخطة لنهرب معًا هذا الصباح عند انبلاج الفجر، ولكني قرَّرت فجأة أن أتركها كما وجدتها طاهرة كالزهرة البيضاء.

فقاطعه اللورد هنري قائلًا:

---

(1) الفراولة.

ـ أعتقد أن هذه العاطفة الجديدة التي لمّا تألفها قط ملأتك بإحساس اللذة الحقيقية يا دوريان. ولكني أستطيع أن أتم هذه القصة الغرامية نيابة عنك، لقد زودتها بالنصائح الأخلاقية وكسرت قلبها. وهكذا بدأت حياتك الصالحة.

ـ ما أقساك يا هنري! أرجوك أن تقلع عن قول هذه العبارات الساخرة. فقلب هيتي لم ينكسر، وكل ما هنالك أنها بكت وتألّمت.. إلى آخره، ولكني تركتها نقية كما وجدتها وهي تستطيع أن تعيش الآن كپرديتا[1] في حديقتها بين أوراق النعناع وأزهار الأقحوان.

قال اللورد هنري ضاحكًا وهو يغوص في مقعده:

ـ وتبكي على فلوريزيل[2] عاشقها الخائن. إن لك يا عزيزي دوريان نزوات صبيانية لا أفهمها.

أتحسب أن هذه الفتاة سترضى الآن برجل من طبقتها؟ كلا ولعلها تتزوَّج في يوم من الأيام بحوذي فَظّ أو فلاح عَبوس، ولكنها ستحتقر زوجها وتعيش في شقاء لأنها عرفتك وأحبتك. فمن الناحية الأخلاقية لست أرى في توبتك العظيمة ما يستحق الإكبار. بل إن البداية نفسها بداية سيئة. ثم ما أدراك بأن هيتي ليست الآن طافية على وجه بركة ساكنة انعكست فيها نجوم السماء، تحيط بها أقاحي الماء مثل أوفيليا صاحبة هاملت[3]؟

ـ هذا لا يُحتمل يا هنري، فأنت تمزِّق كل شيء إربًا بتهكّمك اللاذع ثم تتوِّج كل شيء بمأساة فظيعة من نسج خيالك. وإني لآسف على الإفضاء لك بما حدث، ولم يعد حكمك يهمني لأني واثق بأني قد فعلت ما فيه

---

(1) شخصية في مسرحية «حكاية شتاء» لشكسبير.

(2) شخصية في المسرحية نفسها، وهو الأمير الذي يقع في غرام پرديتا.

(3) أوفيليا وهاملت شخصيتان في مسرحية شكسبير الشهيرة «تراجيديا هاملت، أمير الدنمارك».

الخير. يا لهيتي من فتاة مسكينة! فيما كنت عائدًا على جوادي هذا الصباح مررت بالحقل ورأيت وجهها في نافذة بيتها أبيض كباقة الياسمين. كفى حديثًا في هذا الموضوع، وإياك أن تحاول أن تقنعني بأن القليل من إنكار الذات الذي أبديته لأول مرة في حياتي هو في الواقع خطيئة جديدة، فأنا أريد أن أهذِّب من طبيعتي، بل إني لمهذِّبها مهما كانت الظروف. فلتحدثني الآن عن نفسك. حدثني عن لندن وما يجري فيها فأنا لم أزُر النادي أيامًا وأيامًا.

ـ إن أعضاء النادي لا يزالون يتحدَّثون عن اختفاء بازيل المسكين.

قال دوريان عابسًا وهو يصب بعض النبيذ في كأسه:

ـ حسبتهم قد سئموا الكلام في هذا الموضوع بعد هذه الأسابيع الطويلة.

ـ إنهم لم يتحدَّثوا في هذا الموضوع إلا ستة أسابيع يا عزيزي دوريان والجمهور في بريطانيا أغبى من أن يتحدَّث في أكثر من موضوع واحد كل ثلاثة أشهر ولقد كان حظه لا بأس به في الأيام الأخيرة، فقد وجد قصة طلاقي أنا، وقصة انتحار آلان كامبل، ثم لغز اختفاء أحد الفنانين. وسكوتلانديارد لا تزال تصر على رأيها القائل بأن الرجل الذي سافر إلى باريس بقطار منتصف الليل لابسًا معطفًا رماديًا كبيرًا هو بازيل المسكين، والبوليس الفرنسي لا يزال يقول إن بازيل لم يصل إلى باريس أصلًا. وأعتقد أننا سنسمع بعد أسبوعين أن بازيل قد شُوهد يتجوَّل في شوارع سان فرانسسكو. وهذا شيء غريب ولكن كل ما يختفي يقال إنه يُشاهَد في سان فرانسسكو فلا بد أن تكون سان فرانسسكو مدينة جذَّابة فيها كل مغريات العالم الآخر.

فسأله دوريان وهو يرفع نبيذه البورغوني إلى النور ويتأمَّله عاجبًا من قدرته على الكلام في موضوع بازيل هولوورد دون انزعاج:

ـ كيف تعلل اختفاء بازيل؟

ـ ليست لدي أية فكرة عن هذا الموضوع. فإذا كان بازيل يرى إخفاء نفسه عن الناس فهذا ليس من شأني، وإذا كان قد مات فلست أحب أن أفكِّر فيه. فالموت هو الشيء الوحيد الذي يرعبني وأنا أمقته مقتًا شديدًا.

قال دوريان في إعياء:

ـ ولم تكره الموت؟

أجاب اللورد هنري وهو يدني من أنفه علبة قارورة للعطور مفتوحة مخططة بماء الذهب:

ـ لأننا نستطيع في هذه الأيام أن نقهر كل شيء إلا الموت. نعم الموت والابتذال هما كل ما بقي من القرن التاسع عشر من ظواهر لا نستطيع تفسيرها وإزالتها. هيا نتناول قهوتنا في صالون الموسيقى يا دوريان. وأرجوك أن تعزف شيئًا من شوپان فأنا أتوق إلى سماعه. إن الرجل الذي هربت معه زوجتي كان يعزف موسيقى شوپان بمهارة لا تُجارى. يا لڤكتوريا المسكينة! كم كنت أميل إليها! إن البيت يبدو مهجورًا بعد أن تركته ولا شك أن الحياة الزوجية مجرَّد عادة، عادة سيئة، ولكن الإنسان يأسف على فقدان عاداته، حتى الخبيثة منها. بل لعل الإنسان يأسف على فقدان عاداته الخبيثة قبل أن يأسف على فقدان عادته الحسنة، لأن العادات الخبيثة جزء متمِّم لشخصية الإنسان.

لم يجب دوريان بشيء بل نهض من مكانه في المائدة ومضى إلى الغرفة المجاورة وجلس أمام البيانو وترك أصابعه تجول بين مفاتيحه العاجية البيضاء ومفاتيحه العاجية السوداء. وجاءت القهوة فتوقَّف عن العزف ثم نظر إلى اللورد هنري وقال:

ـ اسمع يا هنري ألم يخطر لك قط أن بازيل مات قتيلًا؟

فتثاءب اللورد هنري وقال:

ـ إن بازيل كان محبوبًا من الجميع، فما الداعي إلى قتله؟ وهو لم يكن ذكيًا فيكون له أعداء. أنا لا أشك في عبقريته كرسّام، ولكنك تستطيع أن

تكون لك مهارة ڤيلاسكيز[1] في الرسم وتبقى رغم ذلك نموذجًا للغباوة. ولقد كان بازيل في الواقع على شيء من الغباوة، ولم أجد في تفكيره ما أثار اهتمامي إلا مرة واحدة، أعني حين باح لي منذ سنوات طويلة بأنه يحبك حبًا يقرب من العبادة وبأنك النفس الجبار الذي يلهم فنه.

قال دوريان في وجوم:

ـ وأنا كذلك كنت أحب بازيل حبًا جمًا. ولكن ألا يقول الناس إنه مات مقتولًا يا هنري؟

ـ نعم. هذا ما تقوله بعض الصحف، ولكني أستبعده. صحيح أن باريس ملأى بالأوكار الجهنمية ولكن بازيل لم يكن بالرجل الذي يتردَّد عليها. فالفضول عنده كان ميتًا، وهذا كان عيبه الرئيسي.

قال الشاب:

ـ لو أني قلت إني قتلت بازيل فماذا تقول يا هنري؟

ثم أخذ يتفرَّس في اللورد هنري ليرى وقع كلماته في نفسه.

ـ أقول إنك تحاول أن تمثل شخصية لا تناسبك يا صديقي. فالجريمة بكل أنواعها مبتذلة كما أن الابتذال بكل أنواعه جريمة. وليس في طبيعتك ارتكاب الجرائم يا دوريان. أقول هذا راجيًا أن تغفتر لي جرحي لكبريائك، ولكني أؤكد لك أن الإجرام ليس في طبعك. الإجرام امتياز خاص تملكه الطبقة الدنيا في المجتمع، وأنا لا ألوم أبناء هذه الطبقة على ذلك، فالإجرام عندهم يقوم مقام الفن عندنا، أي أنه وسيلة لإشباع الحواس بالاختبارات غير المألوفة. هذا ما أتصوره أنا على الأقل.

ـ وكيف يكون هذا؟ أتعتقد إذا أن من قتل مرة يستطيع أن يقتل ثانية؟

قال اللورد هنري ضاحكًا:

ـ إن أي عمل قد يصبح مصدر لذَّة إذا اكتسب قوة العادة، وهذا سر

---

(1) ديجو ڤيلاسكيز (1599-1660): رسَّام إسباني، يعتبر من أشهر رسَّامي الباروك.

من أهم أسرار الحياة. على أني أعتقد أن القتل خطأ مهما كانت ظروفه. فالإنسان يجب ألا يفعل شيئًا يتأفَّف من الكلام فيه بعد العشاء. ولكن دعنا من موضوع بازيل المسكين. ليتني أستطيع أن أحمل نفسي على الاعتقاد بأنه انتهى هذه النهاية المثيرة للخيال كما تقول، ولكني عاجز عن ذلك. وإذا كان بازيل قد مات فعلًا فأرجّح أنه سقط من الأتوبيس في نهر السين مثلًا وأن الكمساري نجح في إخفاء هذه الحقيقة. نعم، أرجّح أن نهايته كانت شيئًا من هذا القبيل. وإني لأتصوره الآن مستلقيًا على ظهره في قاع ذلك النهر الأخضر المنطفئ، وقد اشتبكت في شعره الأعشاب الطويلة وطفت من فوقه الزوارق الكبيرة. وإني أعتقد يا دوريان أن فنه كان في اضمحلال مستمر في السنوات العشر الأخيرة ولم يكن يرجى منه أن ينتج شيئًا آخر ذا قيمة حقيقية.

وتنهَّد دوريان وقطع اللورد هنري أرض الغرفة وأنشأ يداعب رأس ببغاء جاءه من جاوه، وهو طائر هائل أشهب الرياش وردي الصدر والذيل يقف على غصن من الخيزران. وحين مسَّته الأصابع الدقيقة أغمض جفنيه المتكسرين على عينيه السوداوين اللتين تشبهان الزجاج وبدأ يتأرجح يمنة ويسرة. ثم التفت اللورد هنري إلى الخلف وأخرج منديله من جيبه قائلًا:

ـ نعم، إن فنَّه قد انحط، ويبدو أن شيئًا ضاع منه. يبدو أن المثل الأعلى ضاع منه. وحين فترت الصداقة بينكما خمدت جذوة فنه، فماذا فرَّق بينكما يا دوريان؟ أظن أنه أضجرك بمواعظه وتفاهاته؟ إذا كان الأمر كذلك فلا بد أنه ألقى عليك اللوم دائمًا، فهذه عادة الناس المضجرين. وبهذه المناسبة يا دوريان، ماذا كان مصير تلك الصورة الرائعة التي رسمها لك؟ أظن أني لم أرها منذ أن أتم بازيل رسمها. أذكر أنك قلت لي منذ سنوات عديدة إنك أرسلتها إلى قصر سلبي وفي الطريق اختفت، ضاعت أو سرقها سارق. ألم تستردها يا دوريان؟ إن ضياعها لشيء محزن، فقد

كانت صورة من بدائع الفن الخالدة. وإني لأذكر أني رغبت في شرائها، وياليتني اشتريتها فهي من إنتاج بازيل إبان عنفوانه الفني. ولقد صار فنه منذ أن رسم تلك الصورة مزيجًا من الأسلوب الركيك والنوايا الطيبة وهو المزيج الذي يؤهل صاحبه في كل عصر لأن يكون فنانًا بريطانيًا من الطراز الأول. قل لي: أأعلنت عن ضياع الصورة؟ إن كنت لم تعلن بعد فالواجب يقضي عليك بأن تفعل ذلك.

قال دوريان:

ـ لست أذكر يا هاري، ولكني أرجح أني أعلنت عن ضياعها، وإن كنت لم أحبها قط، بل إني لآسف على أني سمحت لبازيل أن ينقلها عني، وذكراها تثير في نفسي أبغض الخواطر. لمَ تتحدث عنها؟ لقد كانت تذكرني ببيت من الشعر في مسرحية من المسرحيات، أعتقد أنها مسرحية «هاملت» كانت تذكرني بهذا البيت:

هي صورة الأحزان،

هي وجه بلا قلب.

نعم يا هاري، هذا وصف صادق لتلك الصورة.

وضحك اللورد هنري وأجاب وهو يغوص في مقعده:

ـ لو أن رجلًا عامل الحياة معاملة فنان لقام عقله مقام قلبه.

ولم يجب دوريان جراي بل هز رأسه وعزف لحنًا حنونًا على البيانو وأنشأ يردد:

هي صورة الأحزان،

هي وجه بلا قلب.

واستلقى اللورد هنري إلى الوراء وأغمض جفنيه قليلًا وأدمن النظر إلى دوريان ثم قال بعد صمت قليل:

ـ ما رأيك يا دوريان في قول المسيح «ماذا يستفيد الإنسان لو خسر روحه وربح العالم أجمع؟».

واضطرب اللحن، والتفت دوريان جراي إلى اللورد هنري منزعجًا وحملق فيه طويلًا ثم قال:

ـ لم تسألني هذا السؤال يا هاري؟

قال اللورد هنري وهو يرفع حاجبيه دهشة:

ـ سألتك هذا السؤال لأني حسبت أنك قد تعرف الجواب عليه. هذا كل ما في الأمر يا صديقي. ففي يوم الأحد الفائت كنت أمرُّ في هايد پارك، ولما كدت أبلغ الماربل آرتش رأيت نفرًا من الناس قليلًا، ثيابهم رثة، يستمعون إلى واعظ تافه من وعّاظ الشوارع. وفيما أنا أمرّ بهذه الجماعة سمعت الواعظ يطرح هذا السؤال على سامعيه، وقد خيل إليّ أن في المشهد الذي رأيته قوة مسرحية بليغة. إن لندن ملأى بمثل هذه الظواهر الغريبة ومن المألوف أن تخرج كما خرجت في يوم مطير من أيام الأحد فترى مسيحيًا خشن المنظر يرتدي معطفًا من الجلد ومن حوله اجتمع رهط من الناس وجوههم شاحبة فوق رؤوسهم مظلات مبللة تنحدر عليها مياه المطر، وتسمع عبارة بليغة يطلقها في الهواء صوت عصبي حاد. لقد كانت الكلمة جميلة على طريقتها الخاصة، وكانت تحمل معنى قويًا. وقد عنَّ لي أن أجيب على سؤال هذا النبي الصغير قائلًا بأن للفن روحًا، أما الإنسان فلا روح له. ولكني خشيت ألا يُفهم معنى كلامي، فمضيت لحالي.

ـ لا تشك في وجود الروح يا هنري، فالروح حقيقة رهيبة لا مراء فيها، وهي تُباع وتُشرى وتُستبدل بشتى الأشياء، وهي تقبل أن تسمَّم وهي تقبل أن تهذَّب. إن في كل منا روحًا، وأنا على يقين من ذلك.

ـ أأنت واثق تمامًا من وجود الروح يا دوريان؟

ـ تمام الوثوق.

ـ لا بد إذًا أن تكون الروح وهمًا. فكل ما نثق فيه لا أساس له من الصحة. وهذه مأساة الإيمان وهذه عظة الخيال. لم كل هذا الوجوم يا

دوريان؟ هيا انفضه عنك. هذه تُرَّهات العصر ونحن لا نكترث لها. نعم، لقد تخلينا عن إيماننا بالروح. هيا اعزف لي شيئًا على البيانو، اعزف لي ليلية من ليليات شوپان[1] يا دوريان، وقص عليَّ بصوت مهموس كيف استطعت أن تحتفظ بشبابك. لا شك أن لديك سرًا تصون به الجمال، فأنا أكبرك بعشر سنوات لا غير ومع ذلك تراني مغضَّن الوجه متعب الجسد شاحب اللون. أما أنت يا دوريان فنموذج للجمال الحي، وما رأيتك قط أشد فتنة مما أنت الآن، فأنت تذكّرني الليلة بيوم لقائنا الأول. لقد كنت يومئذ شديد الخجل لا مثيل لك في الدنيا. ولقد تغيَّرت، ولكن في شخصيتك لا في مظهرك. وليتك تبوح لي بهذا السر العظيم الذي يديم عليك الشباب، فأنا على استعداد لأن أفعل أي شيء لأسترد شبابي، إلا أن أصحو مبكرًا أو أقوم بالتمرينات الرياضية أو أصطنع مظهر الرجل المحترم. فياليت الشباب يعود، فهو النعمة الأولى في هذه الحياة. ومن السخف أن يتحدث الناس عن حماقة الشباب فأنا لا أقيم وزنًا لرأي أحد إلا إذا كان يصغرني بسنوات عديدة. إني أرى الشبان يتقدمون الكهول من أمثالي، لأن الحياة قد كشفت لهم عن أحدث عجائبها وضلت به علينا. أما الشيوخ فأنا أختلف معهم في كل شيء، وهذه سُنّة أتبعها، فلو أنك سألتهم عن رأيهم في شيء وقع بالأمس رددوا لك الآراء التي كانت منتشرة في عام 1820، أيام أن كان الناس يلبسون الجوارب حتى الركبة، ويؤمنون بكل ما يقال لهم ويجهلون كل شيء في الوجود. ما أعذب هذا اللحن الذي تلعبه يا دوريان، لعل شوپان وضعه وهو في ميوركا وهو يسمع البحر ينتحب حول بيته وماءه المالح يلطم زجاج نافذته. كم يحرك هذا اللحن خيالي يا دوريان. يجب أن نشكر الآلهة يا دوريان على أنها

---

(1) مجموعة من 21 مقطوعة موسيقية للبيانو، ألفها فريدريك شوبان بين عامي 1827 و1846، والليلية هو اسم للمقطوعة الموسيقية المستوحاة من الليل. وهو نوع قديم من الموسيقى، وشوبان هو من أعاد إحياؤه مرة أخرى.

أبقت لنا فنًا واحدًا لا يقوم على التقليد. استمر يا دوريان فنفسي تحن إلى الموسيقى هذه الليلة. ويبدو لي أنك أبولو الإله الصغير وأني مارسياس استمع إليك. إن نفسي حزينة، وأحزانها خبيئة لا يعرف عنها أحد شيئًا حتى أنت يا دوريان. إن مأساة الشيخوخة ليست في شيخوختنا ولكن في شبابنا. هذا قول صادق أقوله مخلصًا وأعجب لإخلاصي في القول. وما أسعدك يا دوريان بهذا الشباب الذي لا ينضب، وما أجمل حياتك، فلقد شربت من كل شيء حتى الثمالة، ولقد عصرت عناقيد السعادة على لسانك فما أبقيت منها شيئًا، ولقد عرّت الحياة صدرها أمامك ولم تستر عنك شيئًا، ومع ذلك فقد جاءتك السعادة مجيء لحن جميل بعيد فلم تفقد توازنك، ولم تفسد طبيعتك.ثم صمت للحظات وأردف :

أجل. أنت لم تتغيَّر رغم كل ما مرَّ بك.

ـ ولكني تغيَّرتُ يا هاري!

ـ كلا. أنت لم تتغيَّر بل بقيت على حالك. ترى كيف تكون حياتك المستقبلة؟ مهما يكن من شيء فلا تفسدها بالتوبة. أنت الآن نموذج للكمال، فلا تنتقص من نفسك يا دوريان. أنت الآن سالم من كل خدش أو عطب. لا تهز رأسك فأنت تعرف أني صادق في ما أقول. ولا تخدع نفسك يا دوريان، فالحياة لا تخضع للإرادة أو للنوايا، ولكنها تخضع للأعصاب والألياف والخلايا التي تنمو رويدًا رويدًا وتختبئ فيها الأفكار وينسج القلب أحلامه، ولقد تخال نفسك بمأمن من صوت الماضي ولقد تحسب نفسك حديدي الإرادة ولكنك في الواقع خاضع لأتفه الأمور. لون تراه صدفه في غرفة من الغرف أو صفاء تراه في السماء ذات صباح أو عطر كنت تحبه في يوم من الأيام يعود إليك بخفِّيْ الذكريات، أو بيت من قصيدة منسية أو تنغيم بقي لك من لحن قديم، مثل هذه الأشياء تتوقف عليها حياتنا يا دوريان. لقد كتب براونج شيئًا بهذا المعنى. ولكننا لسنا بحاجة إلى شعره لنفهم ذلك، فحواسنا لها قدرة التصور. ولقد يهب في

أنفي أريج الليلج الأبيض فأبقى شهرًا كاملًا سجين الذكريات وأعود بخلدي إلى أغرب شهر مرَّ بي في حياتي. ليتني كنت مكانك يا دوريان. إن المجتمع شانئي وشانئك، ولكن المجتمع يعبدك ولا يعبدني. ولسوف يمضي المجتمع في عبادتك فأنت نموذج لكل ما يصبو إليه العصر وكل ما يخشاه من حقائق الحياة. وإني لمغتبط بأنك لم تخرج من نفسك فتنحت تمثالًا أو ترسم صورة أو تنتج أي شيء تنزل فيه عن جزء من شخصيتك. لقد كانت الحياة فنك، فكان كل يوم يوم من أيام عمرك لحن جميل.

ونهض دوريان من مكانه أمام البيانو ومرَّ بأصابعه خلال شعره وقال:

ـ نعم. لقد كانت حياتي الماضية جميلة، ولكن حياتي المستقبلة لن تكون كحياتي الماضية يا هاري. وأنا أسألك ألا تردِّد على مسامعي هذه الأقوال الطنانة فأنت لا تعرف بعض نواحي حياتي، ولو قد عرفتها لانصرفت عني. ها أنت ذا تضحك، ولكني أرجوك ألا تضحك.

ـ لم توقَّفت عن العزف يا دوريان؟ عد إلى البيانو والعب هذه الليلية مرة أخرى. وانظر إلى القمر الكبير ترَ لونه كلون الشهد، انظر إليه وهو معلَّق في السماء الظلماء ترَ أنه ينتظر منك أن تسحره بألحانك. فعد إلى اللعب يقترب القمر من الأرض. أراك تصر على رفضك. إذًا فهيا بنا إلى النادي حيث نختم هناك الليلة الجميلة ختامًا جميلًا. إن في نادي هوايت فتى مشوقًا إلى التعرف بك هو اللورد پول الشاب وهو الابن الأكبر للورد بورنموث، وقد بدأ فعلًا بتقليد ربطات الرقبة التي تلبسها، ورجاني رجاء حارًا أن أقدمه إليك. وسوف تجد فيه أنيسًا مسليًا، ولا أكتمك أنه يذكرني بك إلى درجة ما.

قال دوريان في حزن:

ـ أرجوك ألا يكون هذا صحيحًا. ولكني الليلة متعب يا هاري ولن أستطيع الذهاب إلى النادي. لقد أوشكت الساعة أن تبلغ الحادية عشرة، وأنا أفضِّل أن آوي إلى فراشي مبكرًا.

ـ أرجوك أن تبقى معي يا دوريان، فأنا لم أسمعك قط تلعب بهذا الحنان وبهذه المهارة، ولقد كان أسلوبك أقوى تعبيرًا منه في أي وقت مضى.

فأجاب دوريان وهو يبتسم:

ـ ذلك لأني قرَّرت أن أقلع عن الشر، ولقد تغيَّرتُ فعلًا كما ترى ولو بقدر قليل.

قال اللورد هنري:

ـ ولكن علاقتنا لن تتغيَّر يا دوريان، وصداقتنا لن يصيبها شيء.

ـ أنت نسيت أنك سمَّمت أفكاري بكتاب أرسلته إليَّ ولا يصح أن أغتفر لك ذلك. فعدني يا هنري بألا تعير هذا الكتاب لأحد فهو خبيث الأثر.

ـ أرى أنك قد بدأت تعظ الناس فعلًا في ما تجيزه الأخلاق وما لا تجيزه. وسوف تصبح بعد قليل كأولئك التائبين وأصحاب حركة إحياء الدين المسيحي، تسير في الناس محذّرًا إياهم من الخطايا التي شبعت منها حتى زهدت فيها. فلا تفسد شخصيتك الجميلة بهذا العبث ثم إنك لم تنجح في ذلك مهما حاولت فأنت وأنا باقيان على حالنا ولن نتغيَّر في المستقبل. أما قولك بأن كتابي سمَّمك فهذا لغو لأن الفن لا أثر له في سلوك الإنسان، وإن كان له أثر في سلوك الإنسان فهو أنه يشلّ الرغبة في العمل. الفن عقم جميل. والكتب التي ينعتها الناس بأنها منافية للأخلاق هي التي تشكف للإنسانية عن عوراتها. هذا كل ما في الأمر. ولكن دعنا الآن من حديث الأدب، سأنتظرك غدًا، وأنا خارج للنزهة سآخذك إلى دار الليدي برانكسوم حيث نتغذّى على مائدتها، فهي سيدة لطيفة المعشر، وتحب أن تستشيرك في بعض المنسوجات المصوَّرة التي ترغب في شرائها. لا تنسَ أن تأتي، وإن كنت تفضِّل أن نتغذّى مع الدوقة الرشيقة كان بها. إنها تقول إنك قد احتجبت عنها تمامًا في هذه الأيام

الأخيرة، فلعلك قد مللتها كما كنت أتوقع، فمهارتها في الحديث تتعب الأعصاب، على أية حال تعال في الساعة الحادية عشرة ولنتصرف بعد ذلك كما نشاء.

ـ وهل هناك ضرورة لمجيئي غدًا يا هنري؟

ـ نعم، بلا جدال فهايد پارك في هذه الأيام في أجمل حلة وفيه من البنفسج ما لم أره منذ أن قابلتك أول مرة.

قال دوريان:

ـ إذًا سأكون هناك في الحادية عشرة، فإلى اللقاء يا هنري.

وبلغ الباب ثم تردَّد قليلًا كأن بنفسه شيئًا يريد أن يبوح به لصاحبه، ولكنه تنهد وخرج.

الفصل العشرون

كان الليل ساجيًا فحمل دوريان جراي معطفه على ذراعه إذ لم تكن به إليه حاجة؛ كذلك لم يحتمل أن يضع كوفيته الحريرية حول عنقه، وسار قاصدًا بيته وكان يدخن. وفيما هو سائر مر به شابان يلبسان ثياب المساء، وسمع أحدهما يقول للآخر: «هذا هو دوريان جراي» وتذكَّر دوريان جراي أيامه الخاليات حين كان يغتبط إذا أشار الناس إليه أو حملقوا فيه أو تحدَّثوا عنه. أما الآن فقد مجَّ كل ذلك وأصبح يسوءه أن يسمع اسمه يتردَّد. وكان يرتاح إلى القرية، قرية هيتي التي أكثر من زيارتها في الأسابيع الأخيرة، لأنه كان مجهولًا فيها. وكم من مرَّة قال لتلك الفتاة التي ساقها إلى حبه سوقًا إنه رقيق الحال لا يملك من متاع الدنيا شيئًا فصدقته. ولقد ذكر لها مرَّة إنه مخلوق شرير فضحكت وقالت إن المخلوقات الشريرة لا بد أن تكون دميمة الخلقة طاعنة في السن. نعم ضحكت ملء رئتيها ورنَّت ضحكتها كأنها زقزقة عصفور. كم كانت هيتي جميلة في ثيابها القطنية وقبعاتها الكبيرة! ولم يكن عِلم هيتي كثيرًا ولكنها لم تكن بحاجة إلى العِلم، فقد اجتمع لها كل ما ضاع منه من فضائل.

ولما بلغ بيته وجد الخادم في انتظاره، وصرفه لينام ثم تمدَّد على أريكة بالمكتبة، وبدأ يفكر في بعض ما قاله اللورد هنري.

هل سيعجز حقًا عن تغيير طبيعته كما زعم اللورد هنري؟ إن به شوقًا

آكلا إلى صباه الطاهر الطرير، إلى صباه الذي أشبه بباقة من الورد الأبيض والورد الأحمر، بلغة اللورد هنري. إنه يعلم أنه لوَّث نفسه، وأفسد عقله وشحن خياله بالأشباح المخيفة. وهو يعلم أنه كان ينشر الانحطاط حوله أينما ذهب، وأنه كان يسرّ بذلك سرورًا عظيمًا، وأنه كان ينتخب من رفاقه أذكاهم وأصلحهم للحياة فيلقي بهم في أتون الشر كأنه إبليس الرجيم، ويجردهم من الشرف. ولكن هل فات الأوان حقًا؟ وهل ضاع كل أمل في التوبة؟

لقد أخذه الغرور مرَّة وأعماه حب الدنيا فصلَّى إلى الآلهة أن تجعل الصورة تحمل أوزار حياته وأن تبقي له على شبابه الناضر إلى يوم يموت. وقد كان. وهكذا بدأت مأساة حياته فيا ليت ذنوبه حفرت على وجهه آثارها النكراء وشوّهته أولًا بأول ولو قد حدث هذا لجاء عقابه آجلا سريعًا رادعًا، وفي القصاص تطهير للنفس الآثمة. ولخير للإنسان أن يصلِّي أمام عدالة الله قائلًا: «أبانا الذي في السموات! ابطش بنا لذنوبنا» من أن يصلِّي قائلًا :«أبانا الذي في السموات! اغفر لنا ذنوبنا».

وكانت المرآة العجيبة التي أهداها إليه اللورد هنري منذ سنوات طويلة لا تزال قائمة على المائدة، وكانت رسوم كوپيد التي تزينها لا تزال تضحك كما كانت تضحك قديمًا. وتناول دوريان جراي المرآة، تناولها كما تناولها في تلك الليلة العصيبة حين لاحظ التغير الذي أدرك الصورة المشؤومة، ونظر إلى خياله فيها بعين زائغة دامعة. وذكر الكلمات الوثنية التي كتبتها إليه عاشقة مجنونة في خطاب محموم: «إن العالم يتغيَّر لأن الآلهة صاغتك من عاج وذهب: إن خطوط شفتيك تكتب التاريخ من جديد». عادت هذه الكلمات إلى خاطره فرددها خاطره المرة تلو المرة، ثم سئمت نفسه جمال وجهه فقذف بالمرآة على الأرض وداس عليها بقدمه فهشمها إلى شظايا تلمع كقطع الفضة. لقد حطم هذا الجمال حياته وأجهز شبابه على سعادته، ولولا جماله وشبابه لعاش أبيض الصفحة لا

يعرف الدنس. إن جماله لم يكن إلا قناعًا وشبابه لم يكن إلا حلة مسمومة فماذا أفاد من الشباب؟ زمان الصبوات المتلفة والثمار الفجة، والعواطف السطحية المريضة. لقد فسد دوريان جراي وما أفسده إلا شبابه.

ولكن كان من الخير ألا يفكِّر في الماضي، فما كان كان، ولن تمحوه قوة على الأرض أو في السماء. فليفكر إذًا في نفسه وفي مستقبله. إن چيمس ڤين راقد في قبر بغير شاهد في فناء كنيسة سلبي. إن آلان كامبل قد أطلق النار على نفسه ذات ليلة وهو في معمله، ولكنه لم يبُح بسرّهما لأحد. ولسوف تسكن الضجة التي أثيرت حول اختفاء بازيل هولورد عمَّا قريب، بل لقد خفتت فعلًا. إذًا فهو سالم لا يخشى افتضاحًا. ولكن اضطرابه لم يأتِ من تفكيره في موت بازيل هولوورد. لقد كان اضطرابه من إحساسه بأنه ميت حي في روحه. إن بازيل رسم له صورة قضت على حياته، ولن يغتفر له تلك الإساءة. نعم. كل ما نزل به سببه تلك الصورة. إن بازيل أباح لنفسه أن يزجره زجرًا لا يحتمل، ومع ذلك فقد احتمل ما قاله بازيل بصبر عظيم. إن قتل بازيل كان في لحظة جنون استولى عليه. أما آلان كامبل فقد قتل نفسه بيده، وهو الذي شاء أن يموت، فكيف يُسأل دوريان جراي عنه؟

إلى الحياة الجديدة إذًا، فالحياة الجديدة هي ما تصبو إليه نفسه، ولقد بدأ هذه الحياة الجديدة فعلًا. أوَلم يظفر بفريسة بريئة ثم يطلقها؟ إن نفسه لن تسول له بعد الآن أن يلوث زهرة نقية. إن نفسه تطلب عمل الخير.

وفيما هو يفكِّر في هيتي مرتون اتجهت أفكاره إلى الصورة القائمة في الغرفة المقفلة، وخطر له أنها لا بد أن تكون قد تغيَّرت، فمحال أن تحتفظ الصورة بكل بشاعتها بعد أن فعل ما فعل مع هيتي. وأخذ يحلم بالتوبة وأثرها في اللوحة، فظن أنه لو طهَّر نفسه من آثامها إثمًا بعد إثم لاستطاع أن يمحو من الصورة كل ما فيها من معالم الشر وأن يرد إليها الرونق المفقود. بل ما يدريه أن الصورة لم تتغيَّر فعلًا وأن معالم الشر لم

تزُل عنها؟ إذًا فليفحصها لفوره.

وحمل المصباح القائم على المائدة ودب دبًا خفيفًا إلى الغرفة العليا. وشد المزلاج وهو يبتسم ابتسامة الفرح وداعبت خياله الخواطر الجميلة فأضاء وجهه الدائم النضرة فهو لن يفزع بعد اليوم من مرأى الصورة لأنه تائب، ولأن الصورة الممسوخة سوف تسجل توبته كما سجلت إجرامه. وأحس بالراحة الكبرى.

ودخل في هدوء، وأقفل الباب وراءه كعادته، ونزع الستار الأرجواني فكشف اللوحة. وخرجت منه صيحة المتألم وصيحة الغاضب في وقت واحد ذلك لأنه لم يرَ في الصورة التحوّل المنشود، فكل ما وجد فيها بريق في العينين هو بريق المكر والتواء في الشفتين ينم عن النفاق: لقد كانت الصورة كما تركها آخر مرة، مسخًا حيًا، بل لعل مسخها اشتد إن كان قد بقي فيها مجال لذلك.ورأى البقعة الحمراء التي تلطخ اليد أشد أحمرارًا مما كانت ورأى فيها آثار دم جديد. ومشت في أوصاله رعدة فقد تذكر ما قاله اللورد هنري. إن اللورد هنري زعم أن غروره قد ساقه إلى فعل الخير، أفهذا صحيح؟ إن اللورد هنري زعم أن رغبته في الحصول على لون جديد من ألوان الإحساس هي التي دفعته إلى فعل الخير. أفهذا صحيح؟ لعله كان يمثل دورًا ساميًا لا حبًا في السمو بل حبًا بالتمثيل. لعل هذه العوامل مجتمعة هي التي ألهمته أن يفعل ما فعل. ثم البقعة الحمراء التي تلطخ أصابعه الشوهاء. كيف اتسعت هذه البقعة الحمراء. وشاهد على قدميه آثار دماء كأنما سالت القطرات من يده قطرة قطرة. كذلك اليد الأخرى التي لم تمسك بالمدية شاهد عليها دماء. ترى ما معنى هذا؟ الاعتراف؟ هل يراد له أن يعترف، أن يسلِّم نفسه إلى العدالة؟ وضحك دوريان جراي، لأنه علم أن هذا محال. ولو أنه اعترف لما صدّقه أحد. فأين جثة القتيل؟ لا أثر لها. أين أشياؤه؟ لا أثر لها. لقد أحرقها دوريان جراي بنفسه ولو أنه تجَوَّد على الناس بهذه القصة لظنه الناس مخبولًا.

ولو أنه أصرَّ على دعواه لأودعوه في مستشفى المجاذيب. ولكن الواجب يقضي عليه بأن يعترف، وبأن يعلن على الناس عاره، وأن يكفّر أمام الناس عما اقترفت يداه. فالله يأمره أن يعترف أمام الأرض كما يعترف أمام السماء، ولن يغسل عنه خطاياه إلا أن يعترف بها. وما هي خطاياه؟ إن موت بازيل هولوورد لم يزعجه كثيرًا، لأنه يفكر في هيتي ميرتون. يا لها من مرآة خائنة، هذه المرآة التي يرى فيها روحه! أكان غروره أم فضوله أم رياؤه هو الذي دفعه إلى توبته المزعومة؟ ألم يكن في توبته ذرة واحدة من الإخلاص؟ نعم لقد كان في توبته شيء من الإخلاص، أو هذا ما كان يتوهمه قبل أن يرى الصورة. ترى من يستطيع أن يدلّه على الحقيقة؟ الصورة. والصورة تقول إن توبته لم يكن فيها ذرة واحدة من الإخلاص. فهو لم يفتك بهيتي ميرتون إلّا إرضاء لغروره، وهو قد لبس قناع التقوى من باب الرياء، وهو قد جرَّب إنكار الذات من باب الفضول. هذه هي الحقيقة، وهو يدركها الآن.

ولكن ما سبيله إلى الخلاص من آثار جريمته، وهل قتله بازيل هولوورد مطارده بقية حياته؟ وكيف يفعل بماضيه؟ أَوَيحمل عبئه دائمًا، دائمًا؟ وهل هناك ما يلزمه بالاعتراف؟ كلا. فلم يبقَ من الأدلة التي تدينه إلا دليل واحد، وهذا الدليل هو الصورة؛ فلتدمَّر الصورة تدميرًا. ترى ماذا حمله على الإبقاء عليها كل هذا الزمن؟ لقد كان في وقت من الأوقات يجد لذة في تتبع التغيُّر الذي يطرأ عليها، ولكنه فقد هذه اللذة أخيرًا. ولكم أرّقت الصورة جفنيه ولكم امتلأ جزعًا كلما غادر لندن خشية أن تقع عليها عينان. لكم أوحت له الصورة بالأفكار السوداء ولكم هيَّجت فيه الأحزان. لقد كانت الصورة عنده بمثابة ضميره الحي، ما في ذلك شك. فليحطم ذلك الضمير الذي يفسد عليه طعم الحياة.

وتلفّت حوله فرأى المدية التي قتل بها بازيل هولوورد. كم غسل هذه المدية ومسحها حتى لم يبق عليه أثر الدم! رآها تلمع. إنها المدية التي

قتلت الرسَّام، فلتقتل إذًا عمل الرسَّام، ولينته بذلك الأمر. فلتقتل المدية الماضي، وحين يموت الماضي ينعم دوريان جراي بحريته مرّة أخرى. ولولا هذه الروح اللعينة الحيّة في الصورة لوجد الطمأنينة الكاملة. فلتزهق إذا هذه الروح اللعينة الحية. وأمسك دوريان جراي بالمدية وطعن بها الصورة.

وارتفعت صرخة وعقبها سقوط جسم.

وكانت الصرخة مفجعة حتى لقد أيقظت الخدم من نومهم وانسلوا خارجين من غرفهم ليقفوا على ما كان. وكان بالميدان رجلان عابران سمعا الصرخة العالية. فتوقفا عن المسير ونظرا إلى البيت الكبير في ارتياب، ثم مضيا يبحثان عن شرطي، وعادا بالشرطي إلى البيت. ودق الشرطي الجرس عدة مرات، فلم يتلقَّ جوابًا وكان البيت مظلمًا ليس فيه مظهر من مظاهر الحياة إلا النور المنبعث من النافذة العليا. وبعد قليل انصرف الشرطي ووقف عند مدخل بيت مجاور، وأنشأ يترقَّب الحوادث.

وسأله أحد الرجلين قائلًا: بيت من هذا؟

فأجاب الشرطي:

هذا بيت دوريان جراي يا سيدي.

وتبادل الرجلان النظر وعبسا ثم انصرفا. وكان أحدهما عم السير هنري أشتون.

وفي داخل البيت كان الخدم المذعورون في ملابس النوم يتهامسون وكانت المدبِّرة العجوز مسز ليف تبكي وتعصر يديها عصرًا. وكان فرانسيس شاحبًا شحوب الأموات.

وبعد ربع ساعة خف الحوذي وأحد الخدم إلى فرانسيس وصعدوا جميعًا إلى الغرفة العليا بخطى واجفة. وطرقوا الباب فلم يجبهم مجيب. ونادوا على سيدهم فلم يجبهم مجيب. وحاولوا أن يقتحموا الغرفة عنوة ولكن الباب كان عنيدًا، فلما يئسوا تسلَّقوا إلى السطح ومنه نزلوا إلى

الشرفة ودفعوا النوافذ فلانت مزاليجها البالية.

ودخلوا الغرفة فشاهدوا على الحائط صورة رائعة لسيدهم، وقد سجَّلت جماله الفذ وشبابه الناضر. وعلى الأرض شاهدوا رجلًا ميتًا في ثياب السهرة. وقد غارت في قلبه مدية. وكان الرجل مغضَّن الوجه يابس البدن كريه الملامح. ولم يتبينوا هويَّته إلا بعد أن فحصوا الخواتم التي يلبسها.